سلمى الجابري

ديجافو

Deja Vu

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الطبعة الرابعة

دجاقو

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: أيار/ مايو 2014 م - 1435 هـ
الطبعة الثالثة: شباط/ فبراير 2015 م - 1436 هـ
الطبعة الرابعة: نيسان/ أبريل 2015 م - 1436 هـ

ردمك 978-614-01-1203-2

جميع الحقوق محفوظة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: إياد عبد الرحمن @Eyadabdulrhman
لوحة الغلاف: محاسن الجابري @mahasenaljabri
الخطوط: يسرى شعيب @just_yousra

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

قبل البداية 17

قبل الحب 49

قبل المصادفة 89

قبل الفزع 133

قبل القيامة 167

قبل الانشطار 187

قبلَ النهاية بشهقة 209

لِشبهة الكتابة

للندبة الدامغة بأقصى الذاكرة، لحتمية الرحيل، لعصارة المشاعر المجعدة، لتحدّب ظهر الأحرف المارقة ولخلخلـة التفاصيل المبتورة عن نسـقها الكربونيّ، لأمصال الذكرى المُعلقة في العدم، ولصناديق المفاجآت المحشوّة بالوجع.

«لا شيءَ هنا سيُـقرأ، إلا بجنائزيّـةٍ خالصة»

رسالة دامغة إليك

أنا امرأة مسيّرة من حرفها، من ثورتها، من ضجيجها وسكونها، امرأة الأضداد واللغة الصامتة، امرأة المسافات والمناطق الرمادية، امرأة الهروب والإختباء السامق، لا أعلم من أكون، لكن كلّ ما أعلمه أني لا أعلم عن نفسي سوى ما علمته منها هي، لم أعاقر خمر اللغة إلا هنا، وتحديداً في هذه المساحة الشاسعة من الذكريات، من الأوهام، من العقد القديمة، ومن المشاعرِ المتقدة، لذلك قد أنسّل حدّ التناثر أو أنصهر بعد أول حرف، باختصار امرأة هشّة حدّ العطب والنسيان، لم أكن قادرة على الإستسلام، الرضوخ والإنصياع، لم أكن أنفكّ عن عقالي أو حتى أدع لاستيهاماتي الفرصة للرجوعِ للبداية وأنا حافية من كلّ ثرائي الكتابيّ، كنتُ بحاجةٍ لأن أُبعثُ من جديد على هيئةِ كتاب، على هيئةِ أحرفٍ دائخة، وشخوصٍ هَرِمة، كنتُ بحاجةٍ لأن أصل إلى هذه المرحلةٍ المرهقة من الكتابة، أن أكتبني قبل النهاية، وبعدها، أن أعيشني بين رائحة الأوراق وأطويني بداخلها، أن أودّعني وكأنه الوداع الأخير، بل كأنني أتبرّأ من سوأتي، من ماضيّ، وحاضري وحتى مستقبلي، أن لا أعرفني بعد الكتابة، أحتاجُ أن أخرج من هذه الرواية تماماً كما خرجتُ لأولِ مرّة للحياةِ، بلا ذاكرة، بلا ماضي، وبلا قيود، كما ابتسمتُ أمام وجوهٍ لا أعرف مدى صلة قرابتها لي، كما تلعثمتُ بلغةٍ أخذَت مني جهداً حتى أتمرّن على النطقِ بها، وكما سِرتُ بأولِ

خطواتي نحو مستقبلِ أجهله، لذلك كيفَ لنا أن نجتثَ الحزنَ من مرافئ الحنين، ونحنُ ما زلنا نتلوّى بالإشتياق؟

في جميع الأحوال لا مناص لنا من كلّ هذا الصدع والتوحّد العاطفيّ، لا مناصَ لنا إلا في التمدّد والتقلّص بين فصولِ اللغة بتعاسةٍ خالصة، وبأفكارٍ مارقة نحو العالم الموازي لنا، نحَونا نحنُ بأبعادٍ أخرى، نحو غيبٍ لا ندركه، ونحو أرواحٍ هائمة خلف الطبيعة، هناك حيثُ اللا شيء سنكونُ نحن، فالكتابة خارج الزمن، تماماً كضربٍ من الجنون، لذلك جاءَ هذا الوقت على مقاس وجعي بالضبط، لذلك قد نلتقي كالبداية، في زحام الوجوه ستعثر عليّ، كما سأشتمّ رائحتك من على بعدِ وطنٍ وثورة، سنعيش خلف الأفق بل سنرقص ونغني بل ونركض وننجب أجنّة الدهشة من رحم الكون، أعدك بأننا لن نلتقي إلا داخلِ الكتب، كأساطيرِ إغريقيّة، رومانية وبابلية، سأكون فينوس بل عشتار، هذه المرأة الصارخة بالجمال، بالحرب، بالشهوة والوحم العاطفي، هذه المجنونة التي ركع تحت جمالها الرسامون بألوانهم ولوحاتهم المزدحمة بالمشاعر، هذه الأغنية التي لحنّها الموسيقيّون وتغنّوا بها حتى بعدِ رحيلها، هذه الأسطورة التي خلّدها الروائيّون، والتي تقاتلَ الشعراء على إلباسها القصائد المشتعلة بتوْقهم وهوسهم، هذه أنا، ولأني كذلك فأنا الوحيدة التي لها الحق في تعاطي الذكريات المثخنة بأدرانِ الهوى كيفما أشاء.

للآسف لم يعُد طيفك المتشبّث بسطحِ الأشياءِ القديمة يثيرني، فأنا لم أعد أحبّك إلا بشقّ اللغة، لأنك ستبقى كالكلماتِ التي لا تقرأ، كالصخب الكامن وسط الفراغ، ستبقى تتسلّق وتزحف

وتحبو إن لزم ذلك، فقط لتستجدي من قلبي العودة ولن تنجح، قد تأتيني يوماً بلهجتنا القديمة، بحقولِ التوليب، بأغنياتنا المتوقدّة، قد تأتيني خلفَ اللا مشاعر جانحاً وهزيلاً لكنك ستكون متأخراً جداً، فأنا أكتب بخشوعٍ لا تفقهه، لذلك قرّرتُ الابتعاد عن شوائب حبك بنضجٍ لم تعهده.

قيامة الذاكرة

أنا الآن في أكثر الاماكنِ سلاماً، أنا هي الورقة المنكفئة حول أسطرها بدمعٍ وقلق، أنا الآن نافرة بل مسافرة بين حيواتِ اللغة، أنا الآن يا أنايَ أصبحتُ قصيدة مجفّفة وناشفة بين معالمِ الكتاب، أنا الآن تحوّلتُ لروايةٍ ورقيّة، بكلّ نسقها واضطرابها، فلتقرئيني بصوتٍ منهمر، فلتسمعيني بقلبٍ مكلوم، ولتصرخي بمشاعرٍ خاشعة، كوني قدّيسة بكلّ رهبانيّة وتضرّع، أحتاجكِ، أخشاكِ وأجهلكِ، دُلّيني إليكِ، فأنا ضائعة بين تيهِ الأحرف، تلقّفيني، ساعديني، وأخبريني الكثير بل علّميني كيف تكون الكتابة علاجاً؟ كيف تصبح القصائد والرسائل أشدُّ وقعاً على أنفاسنا؟ كيف نتحوّل من ثرائنا العاطفيّ إلى زهدنا اللغويّ؟ كيف لنا أن نَعبر بين تلك الحيوات دون أن نقفز، أو حتى دونَ أن نركض بحوافرٍ من نهاية؟ وأين تكمن البداية حتى نبلغ النهاية؟ أين نقف؟ وأين سنصل؟ لماذا نحبو للوراء؟ ما به المستقبل! لماذا ننتمي للماضي السحيق؟ وأين نحن عنّا؟ ما هذه المشاعر البور؟ لماذا نبكي رغماً عنا؟ ولماذا نحبّ بوحشيّة؟ ولماذا نفترق بكرمٍ وسخاء؟

ولماذا نعود ونحنُ مفلسون منّا؟ لماذا تتدلى الأسئلة دائماً وهي عارية من أجوبتها؟ لماذا تغوينا العلامات المفخّخة بتعجّبٍ وانتشاء؟ لماذا نسير طالما نستطيع الركض؟ لماذا نقف طويلاً طالما نستطيع الجلوس تحت الظلال؟ لماذا نحبّ في العتمة الدامسة

طالما نستطيع أن نحبّ تحت الشمس الساطعة؟ لماذا نخفي أرقامهم، صورهم، رسائلهم وبقايا حبهم تحت الذكريات الغابرة؟ ما هذا الحطام العاطفيّ الذي نجوب حولهُ ونحن نشعر بفجاجة المشاعر وغبنها؟ لماذا نستمرّ طالما نستطيع الإنشطار منها كقصيدة مائية؟ لماذا نبتعد طالما لن نستطيع التعايش مع حدث غيابها بأكثر الطرق سلميّة؟

ما هذه التفاصيل التي تحدث بين تفاصيل التفاصيل؟ ما هذه الأمور التي تخلق من اللاشيء كل شيء؟ كيف نتقاطع ونعبر كل تلك الشخوص والحيوات بهذه السهولة؟ من نكون قبل الكتابة؟ وكيف نصبح بعدها! أين أخفينا هويّتنا؟ أهي فوق المروج القاحلة، أم بين المشاعرِ المعلّبة؟ وأين ضِعنا عن أسمائنا؟ هل نسيناها بين أفواه الدراويش، أم بين مرافئ الحكايا؟ أم ألقينا بها في اللّجة بكلّ جسارة؟

وكيف أصبحنا نكتب ونحن نلهث كل هذه الأوجاع؟ كيف غرقنا بين البياض فقط، والحياة تنتظرنا بألوانها؟ كيف تلعثمنا بجنونها ونحن عابرون بين مفترق الطرق؟ كيف تحوّلنا لكائناتٍ حبريّة متجرّدة من إنسانيتها بين الورق؟ كيف استبدلنا الدم في أوردتنا بالأحبار؟ ما هذه القوة التي نكتب بها أوجاعنا؟ نُعرّي سوأتنا، ونشير إليها في نهاية المطاف على موضعِ الألم بحبور؟ ما هذه الجرأة الكتابيّة التي نُعلنها بين ملايين الأعين بشكلٍ فضائحيّ؟ أهذا هو الوأد اللغويّ الذي طالما سمعتُ عنه؟ أم أنه شكلٌ من أشكال اللعنة الأدبية التي تتلبّس أيّ كاتبٍ شهر قلمه أمام الورق؟ وقرّر أن يحارب الصمت، والعدم والفوضى العاطفيّة بهوسٍ

اللغويّ!.

ولأنّ اللغة امرأة، لم يكن يتوجّب عليّ أن أتوقّف، أن أُقصم أو حتى أن أتمطى من بينِ الأسطر بفضيحةٍ لا تشبهني، لذلك تحايلتُ على عقائدِ الحب العتيقة، وأنا ممتلئة بكَ حدّ الفراغ، فقط حتى أخلّدكَ بشبهةِ الماضي السحيق كما ينبغي.

لذلك لا تقلق فأنا ما عدتُ أخشى أن تغرّرَ بي بسكتة قلميّة أخرى، فنحن لا نخشى مهابة الموت سوى مرّة يتيمة، وما عدا ذلك سيبقى في العدم، وها هي المرّة قد نفدت منك دونَ أن تدرك مدى جنائزيّة الفرصة الراحلة من بين يديك، ولكنكَ ستبقى رغماً عن جحيم الوجع، كندبةٍ تغلّفها الأبجدية بِوهنٍ جانح حتى حين.

فَهنا أصبحتُ بين جنباتِ الأوراق أشهق، أحيا وأموت، هنا أنسج أجمل بداياتي وأقبر أتعس خيباتي، هنا أُدوزِن النهاية بمزاجيتي المتطرّفة، وأغربل التفاصيل الكارثيّة بصورةٍ يصعُب نسيانها، هنا سأرقد بسلام، وهنا سأبعثُ في كلّ مرّة تقرؤني بها الأعين، وهنا ستكون قيامة الذاكرة، إلى الخلودِ يا أنا.

قبل البداية

الضوء أحياناً يفسد ملامح الهوى

اللغة التي تحاول إحياءك من العدم لا أقوى على كتابتها، لا أقوى على مجاراتها ولا أقوى على الركضِ بها أو حتى حملها، لا أقوى إلا على أن أبكي بها وأتباكى عليها.

لا أريد العودة للوراء، فأنا تُخيفني وحشة التفاصيل القديمة وبؤسها، تخيفني الأماكن المهجورة، القلاع المسكونة، والطفولة المنكسرة، يخيفني بُعد المسافة بين الذكرى والأوراق،أخافُ من عبثيّة الأقدار، ومن فوضى المصادفات، أخافُ النسيان والإختباء وراءَ العدم، أخاف من اشتعال المشاعر وتشابه الاسماء، أخافُ من الأغنيات الخادشة لكلّ ذكرى ممزّقة، أخافه وأخافني وأخافنا،أخشى على حرفي، وعلى المشاعرِ الباكية من هذا الوحم العاطفيّ، أخشى التنكيلَ بكَ عنوة، لذلكّ فقط أريد الركض للمستقبل، للقادم، للمجهول ولكلّ الأحداث الغامضة، أريد رؤيتي بينها، أريدُ تجربة الإقامة الجبرية بين كلّ الموريات التي أجهلها، أريد كتابتكَ من هناك بأتونٍ شهيّ، وبين كلّ سطرٍ وحنين سأخلق بكَ حالة لغوية مبتكرة، فأنت تعلم بقدرِ ما خذلتني بأنني أميلُ للحداثة، للخلق، ولتمرينِ الأسطر على كلّ الأمور الغير قابلة للتكرار، لطالما كانت وما زالت تمُيتني التفاصيل الكربونيّة، والعلاقات المتشابهة، أيعود هذا لمزاجيّتي الكتابيّة؟ أم للأفكار المارقة والمتزاحمة بداخلي؟ فأنا بين البيْنين أعلو وأسقط، أرقص وأنحني، أركض وأقف، أثرثر

وأصمت، أتكهّن وأخطىء، أقترب من الجميع وأبتعد، لذلك تلك المزاجيّة المفرطة والأفكار المشوّشة هي إرثي المقدّس الذي يسير معي بجنائزيّة وفرائحيّة، هي أنا، ولأنها كذلك ها أنا أجرّها خلفي وأنا مفلسة من الحياة.

أصبح قلبي كرغيفٍ بارد لا يأكُلهُ سوى الفقد، لذلك بدأتُ أتشقّق وأنشطر، فحُبكَ قرص قلبي من حيثُ أُهزم، لم تعد تُجدي الأحرف الضمنية شيئاً، فوحشة المشاعر انسدلت من الأفق، بقصةٍ سيقرؤها الملأ علانية، وعلى شاكلة اللحنِ القديم سأُغنّيك فلتسمعني بقلبٍ محموم.

أصبحتُ أمطرُ وابلاً تحتَ وقعِ تشابك الأحداث، أصبحتُ أنبش سبر أغوارها، وأصبحتُ متوجّسة من حكايةٍ بُترت في الماضي السحيق، وها أنا أشتمّ رائحة عودتها، ها أنا أسمع أزيز خطوتها، وها أنا الآن أيقنتُ بأنني كنتُ وما زلتُ منذورة لحبٍ هامد، حدّ كتابته بتقشّف، بتصوّف وتناثر، حدّ أني بدأت بنزعِ الغطاء عن المشاعرِ المعلّبة، فبين الأوراق ما عادَ الصمتَ يجدي شيئاً، فنحنُ دائماً بحاجةٍ لسماعِ لغة لا نفهمها، في أغنيةٍ ما، في نبرةٍ ما، في سطرٍ منسيّ في كتابٍ ما، أو حتى بصوتِ العابرين بمحاذاة إيقاع الحياة السريعة، نحن بحاجةٍ لصفقة تعيدنا إلينا من جديد، نحتاجُ أن نُبعث من بين الأحرف وأن نُدفن تحت اللغة، بكلّ جنائزيّتها المعتمة وفرائحيّتها البيضاء، لذلك يا رجُل الغمام والموسيقى النائمة في مهد الأحلام، أنا أُشرعّ لكَ الآن الجنون كي تعيدني إليك في حكايا متطرّفة من الحنين، من النهاية، من كلّ البدايات الخافتة، لم نعد عُشّاقاً للظلام، فحبّنا الآن سيصبح تحت مجهر الأعين، تحت

شطبِ الأقلام، وفوق كلّ الرفوف المنسيّة من مظاهرِ الحياة، فأنا يغيّرني أن نعيشَ سوياً خلف اللاوجود، كقصةٍ غابرة، وكمساحةٍ تضيق بالتفاصيل المسكونة، يغريني أن نتشارك ذات الرقصة المشتعلة فوق الأبجدية، ويثيرني هذا الاحتقان العاطفي كما يُمرضني بلذّة أستسيغها، فأنا بدأتُ أشعر كأنني أصبحتُ دميةً مشدودةً أطرافها من القدر ومن معاقل الحزنِ الأولى، لذلك أرجوك دعني أتحرّك ببطءٍ يسير بخطواتٍ عرجاء، فأنا لا أملك نيّة التوقّف، كما لا تجبرني على الهروب، وأنا ما زلتُ أتعلّم كيف يكون السير إليك في الغياب.

صدّقني، لن تحتاج لكذبةٍ أخرى حتى تُبرّر لي خذلانك، لن تحتاج لأغنية صاخبة حتى تدُسّها في حنجرة الغضب بحنانٍ وغرام، لن أحتاج سوى أن أنساك، ولا أملك نيّةَ التوقف حتى تبلُغ مني النهاية ما تبلغه، يا ترى أين سأصل وأنا دائخة بك؟

فذاكرةٌ من رماد لا تليق بأنثى تُرتّب فوضى الحُب، لا تليق بامرأة البُكاء وهي على وشك أن تُعيد دوزنة مشاعرها اليابسة، لا تليق بصبيّة السكاكر أن تُطارد الحياة وهي تتناغى بالحنين في كلّ خُطوة، لا يليق بها الفزع، لا يليقُ بي الإندثار خلف شتات ذاك الحب، ولن أحتاج منكَ أن تضرُب ذكراك بالمِعْول حتى تتهشّم أمامي فترضيني، يكفيني أنكَ تركتَ وجعي يئنّ حتى امتزجت بالركام دونَ أن تعلم.

لذلك أخبرني كيف لي أن أستحضرك من فوضى الحنين؟ وكيف لي أن أتبرّكَ بذكراك وأنا لم أتعلّم ثقافة الإنحناء لرجلٍ قط؟ لم أدرك في غمار الجنون بأنك ستقصمني من منتصف الفرح بوجعٍ

مضاد، بضحكٍ سيعقبهُ بكاء، وبصراخٍ من سعادة ستلتصق به آهاتٍ من غياهب حبٍ جُلِد.

هل خلعتني من أُمنياتك؟ وهل طمرتني بالنسيان؟ لا أعلم أنا أسمع دويّ النسيان قادماً إليّ من أقصاك، لا تفعل ذلك من أجلي، لأني ما زلت على قيد الحب أشهقك.

وها أنا على سبيل الكتابة أخلّدك، وعلى سبيل الذكريات أزفرك، نقيضانِ أتفانى بهما دونَ كللٍ أو ملـلٍ، وعلى شاكلة الكرّ والفرّ أختبئ منك لأجدكَ لا تنتظرني.

مُضحكةٌ هي ضآلة الأمنيات، وقصيرة جداً قامة الأحلام التي تبدأ بأرغب وتنتهي بمجرّدِ وهْم، وموجعةٌ هي الحياة حينما تُحلّق بنا فوق ناصية الإحتضار، لتسقطنا في عمقها من علوّ شاهق دفعةً واحدة.

«الأيام كفيلة بالنسيان».

بدعة لفّقها الأوّلون، فأصبحنا نتداولها ونحنُ نربّت على قلوبنا بأسى ولا ننسى، ولأنه لا يأتينا الأجمل إلا بعد مسيرة ألف وجع وبكاء كان لابدّ أن أتحرر منك، لم تعد لي وطناً أجثو إليه بانكسار الحياة وقوّتها، لم تعد تبني معي ذاك الوطن ولم تعد قوافلي تشُدّ رحالها إليك، أصبحتُ كمشرّدةٍ تسير بمحاذاة العابرين، فيسير من فوق ملامحها الوهن ويتكاثر في صوتها أطفال الصمت حتى تُجهض الفقد رغماً عنها.

فاخرةٌ جداً أحزاني وهي تهتزّ للحنين وترقص في كرنفالِ الدموع، لتنتقل بين وصلةٍ وأخرى بكلّ رشاقةٍ لتُغري العالمين بإثارة.

كان عليّ أن أصحو من سباتي مذ الوجع الأول والخيبة التي جرّت خلفها أسراب الخذلان ضاحكة على مراهقة مشاعري، كان عليّ أن أقفل ذاك الباب الموارب لصهوة الجنون منذ عقدٍ من الأنين، كان عليّ أن أستبدل الأرقام، الطرقات، المدن، العطور، الثياب، الأصدقاء وليالي السهر، كان عليّ نزع قشورك من جلدي حتى أغفو حولَ آهةِ الخنوع بتأبينٍ سأعتاد عليه، ما هذا الرهاب الذي ألصقته فيّ يا رجل؟

لم أكن انتظر منك، سوى أن تمنح حبُنا شرعيّته، لكنك حتى في هذه الأمنية البائسة خذلتني، لا بأسَ يا سيدي بكلّ هذا الركام وفتات الأحلام، لكن أخبرني كيفَ لكَ أن تُرتّب سوأة صورتكَ في عينِ قلبي؟ كيفَ لك أن تُعيد مجدكَ من تحتِ الآلام؟ لن أنتظرك حتى تتصدّق عليّ بقليلكَ، فكثيرُكَ لم يعد لي، لذلك غيابك ليس بالأمرِ الجلل، لا تقلق فلن أتهجّى طريق الرجوعِ إليك، كنتُ مؤمنةً بكَ حدّ تَشرُّبي الألم دونَ اعتراض، وها أنا ألفُظكَ من قلبي على مضض، لم أكن أتمنى نهاية حامضة لنا لكنها أصبحت كذلك بخيبةٍ ووهن، فلتحتفظ بقصاصاتِ رسائلي، وأبجديتي الدائخة عشقاً، فلتحتفظ بأسرارنا وذنوبنا الصغيرة، فلتحتفظ بعمري الذي توقّفَ عندك، احتفظ بي في الغياب.

ألمْ أخبرُكَ ذات احتواء، بأنني امرأة لا تُرضيها أنصاف الحلول، إما أن تأتيني بكثيرك أو ترحل بقليلك، وها أنا راحلة نحو الفراق بقلبٍ معطوب.

آهةٌ من الحبّ الذي لا يُنسى، من النوافذ المضيئة بالرسائل المهملة، من صوت الأغاني الراقصة بلذيذ الذكريات، ومن رجلٍ

نسيانه يعني الإحتضار، صدّقني لم أعد قادرة على اقتفاء أثر الحُب أكثر، لم أعد أحتمل ضجيج حرب المشاعر بصدري، لم أعد أبكي ولا حتى أضحك، فملامح الحياة فيّ تجمدت، في الحُب لا توجد سوى فرصة واحدة وباقي الفرص يا سيدي ما هيَ إلا كذبة تتشبّث بها قُلوبنا دونَ جدوى، لن يعودَ بنا الزمن الصادق للحُب القديم وللشهقةِ الأولى ولكلمة أحبّك العتيقة، لن يعودَ بنا إلا لذكرى الوجع بوجعٍ أعمق.

مُفخّخٌ أنتَ بالرحيلِ والحنين، وعالقةٌ أنا بياقةِ الوجد التي لم يكوها غيابُك بعد، أرجوك لا تعرُج بالأحلام اليابسة، وأنتَ تدّعي الحُب، ولا تتجمهر من حولي وأنت تُصفّق لِضعفي، فاحتضاري هو ابتلاء لقلبك.

فنحن عندما نرحل، لا نعود كيفما كُنا، لذلك يبقى انكسارنا عاتياً يأبى النسيان، إنه لحن الحياة يا رجُل، فهو كفيلٌ بإعادة دوزنة مشاعرنا من عمق الوجع، لذلك دعني أبتسم وأرقص بأطراف فضاءك وأنا مُنتصرة عليك، سئمتُ من لغة الهلاك، وأوجاع زنبقات الهوى، قد حان وقت الأحلام الملونة والخالية من ملامح تفاصيلك الباكية، لأنك ستجد بين سطرٍ وسطر حضارات مُهدّمة، قلاعٌ طُمرت، وأحلامٌ تحتضر وأخرى ترقص، ستجدك في هامش الأوراق شهيّاً للبكاء ولاستحضار الوجع من جديد.

كيف سأبدأُ بك من الذكريات؟ كيف سأكتُبك بالأوراق؟ وما هي الصيغة التي سألْصُقها بك! فذاكرة الكُتب مليئة بخطايا وخفايا القصص وأنت إحداها!

أكرهُكَ، الذائبة بصوتي تبخّرت مع كلّ خيبةٍ ونحيب، أكرهُكَ، العالقة بحُنجرة الرحيل تمرّدت على سطوة خذلانك وباتت تزرع خلف كلّ الغرام كُرهاً جديداً، بطُرفةِ حنينٍ واشتياق، مازالَ قلبي يتلعثم باسمك وينتفض، وكأنك لم تحقُنه بالوجع، ها أنذا أودّعُك بشحوبٍ يُبكيني، ها أنا أجرّ خيبة حُبٍ سيندثر خلف ذكرى وأغنية، لن تُجيد قراءة مطلعي ولن تُدرك مدى وعورةَ صمتي، لذلك كن مستعداً لأي حدثٍ طارئ.

لكن أخبرني هل مازالت لغة الأسى التي حطّت فوق كتف أبجديتي تُغريك؟

لأنني بكلّ حماقةِ النساء مازلتُ أحشُر لك الأمنيات وأكدّسُها في الرسائلِ كُلّ ليلة، هكذا أفضل أن تبقى قصاصات الورق تشهق بك دونَ علمك، هكذا تكون ثقافة الغياب أجمل.

«ستبقى الذكريات المرشوشة بلذيذ الغرام لا تُنسى إطلاقاً، فقط نتناساها».

مُتورطةٌ بك من أقصى البداية لمنتهى النهاية، متورطةٌ بحُبّ أثقل كاهل أيامي بالفقد، الوحدة، الخيبة والضياع بين أزقّة الغرباء بشفقةٍ وشجن، لم أتسوّل الحُب ولم أصرخ باسمك وأنا أجثو على منتصف رصيف الخذلان باكية، لم أُشع قلبي بين المارة بمحاذاة الألم، فأنا أقوى من هذه الحماقة، بل كنت بحماقة المشاعر آلهتك، لأنك أول فراقٍ يُناط عليّ بفجيعةٍ جعلتني أنتشي بخيبة، حدّ دهسك الحُب ذات احتراق، فمزّقت فصول الغرام ثم تمنيّتَ لي الخير ورحلت!! أي خيرٍ هذا بعد انقشاع ما تضمرهُ لي بفجيعة!!

ولأنني أعلم بأنّ تحت كنف الحُب كلّ شيءٍ جائز كالإنتظار،

البكاء، الكتابة دونَ وعي، والإحتراق عُنوة مع كلّ كوبٍ يتنهد بالمرارة، كل شيءٍ تحتَ الحُب غير قابل للتداول، لذلك كنت أنتَ كالإتيان المخيف، لا تأتي إلا بحلمٍ ضبابيّ وذكريات مُقفرة، لا تجوس حتى تطوّقني بخيبة وبكاء.

أيها المستحيل الآسر، ورجُل المخاطر والغياب، أيها الحاضر مع كل تنهدات المشاعر والغائب مع تلابيب الحياة، غِبتَ عني كثيراً أكثر من شهقةِ لقاء ودموع فراق، أكثر من ومضة حُب ومسيرة فرح، أكثر والله من وخزِ الحنين وانعتاق الذكريات.

لمَ اغتصبت عذرية الهوى بوحشيّة طاغية؟ لمَ نكلّتَ بي حدّ جمعي وطرحي من رصيدكَ النسائيّ؟ لمَ تركتني عالقة بين فخاخ الأسئلة دونَ أجوبةٍ تشهق حقيقتك؟ دون تفسيرٍ يجمّلك للنسيان!

كنت بحاجة لحزن كبير وفاجعة خاطفة، نازفة وحارقة، كنت بحاجةٍ لهذا البؤس العاطفي، كنت بحاجة لاختفائك، لجبنِك ولرحيلك، وكنت بحاجة لعيونٍ لا تكفّ عن البكاء ولقلمٍ لا تتوقّف حوافره عن الركض ولصفعةٍ لا تبهت حمرتها، وللغةٍ معقّدة ومشاعرٍ لا تتوقف على النحيب.

فقط حتى أخرج منك دفعة واحدة على هيئة كتاب، حتى أنشطر من ترسّبات ذكراك كقبيلةٍ من برابرة وبهمجيّتهم أشن عليّك حرباً كتابية وأعيد تاريخ الهولوكوست لألقيكَ مع بقاياك في المحرقة، فرائحة شواء جثّتك شهيّة، شهيّة حدّ اشتهائي العيش فيك من أقصاك.

ما هذا الخراب الذي ألقيتني تحته؟

أتعي ما معنى أن أتمنّى العيش فيك من جديد؟ ما معنى أن

أتمنّى أن تغتالني بذات السذاجة التي كسرت بها قوام عشقي!

أتعي ما معنى أن أذهب لحتفي مرةً أخرى وأنا دائخةٌ بك؟ أتعي ما معنى أن أضرب وجعي بعرض حائط الإنتظار، وأدهس كل المشاعر الباكية بالكثيرِ من الأمل والحب؟ بل بالكثير من الغباء العاطفي!!

للأسف جميعنا نصبح حمقى للحب عند الحدّ الفاصل بين الحياةِ والموت.

في مهب الريح تقف دائماً اللغة مشدوهةَ الذراعيّن كأمٍ تحاول أن تخبئ سوأة أبنائها وذنوبهم بحنان، بأسطرٍ ناصعة السلام وبمحبرةٍ ممتلئة بالسواد، وكأنها تعلّمنا بأن الكثير من البياضِ المفرط بحاجةٍ للقليل من شوائب الذكرى، لثقوب السنين، لحرائق التفاصيل، لسواد الأماكن وللغبنِ العاطفيّ.

فذلك البياض يحتاج لذاكرة تطفو فوق مستنقعات الماضي مُشرّعةً لنتوءات الآه العبور، مخضّبةً لمتاهات الأدب مشاعراً مكدّسة بالإجتياح الثائر، النافر والحانق.

«لطالما كانت الإستثمارات العاطفية مشروعاً لكتاب، أو مشروعاً لانهيار».

وها أنا على مشارف ذلك السقوط المثير، فارهةً كل التفاصيل التي دهسها السهر الطويل والإنتظار القاتل بكارثةٍ ستدبّ الحياة فيها من جديد، فبيني وبينكَ انكسارات الخيبة، احتراق الأوراق، صُراخ القلب، تهشُّم الذكرى، وتهلُكة الحنين..!

لا أريد التخطيط أكثر ولا أريد معرفة ما حتفي وما أنا آيلة للتورّطِ فيه، ما يعنيني هو أن أكمل لحظة الإنخطاف هذه ببكاءٍ

يثيرك، إن كنت انسحبت يوماً من بين شهقاتِ قلبي برشاقة،فها أنت تنساب بأوردتي من جديد.

ما زلتُ أتساقط من قوّتي لِضعفي، هاربة من سماع اسمك حتى وإن كان يحملُه رجل غيرك، فذلك التشابه يُدمي فيّ الحنين.

كفاكَ عبثاً معي، أنا الآن على شفير الهاوية، وذاكرة التفاصيل المحمومة ستسحقنني حدّ ارتشاف حُبّكَ من أول الحكاية للمنتهى.

فاخرةٌ جداً أحزاني، تبدأ وتنتهي بكَ، لأنني كنتُ كاذبة عندما أخبرتُكَ بأني نفضتُ غبار حبّكَ عن جسدي، والحقيقةُ هي أنني غارقةٌ بهِ حدّ القاع، لذلك أشتاقك من غيهب الذكرى، فسنديانة الغرام التي كنا نركض حولها باتت شاحبة وباهتة منذ فراقٍ وفزع، لا أرى في مرآتي سوى الملامح المشوّهة، ما عدتُ أعرفني، كبرتُ كثيراً حدّ الأحلام الحالكة والأمنيات الفارغة من الحُب..!

جماليّة التفاصيل القديمة ببكائها، بتضحياتها، بأوهامها العاطفية، برتوشها الدامية وانتظارها الموجع، لذلك نحن شديدو العاطفة بقدر ما نحن شديدو الغبن والبؤس العاطفي، لذلك نبكي بسبب أغنية، بسبب ذكرى وبسبب إسم!

أتتخيل بأننا نحن المغفّلون باسم الحب والإخلاص العشقي يُبكينا اسم من نحب حينما يتلبّسه شخص أخر؟

فثقافة الأسماء إن اقترنت بالحب الأزلي سيلغيها رحم المنطق، لأنه ببساطة سيأتينا ذلك الإسم مراوغاً للنسيان، راقصاً فوق سكوننا، مُتحرّشاً بذاكرتنا وضاحكاً على بكائنا، فقط لأنه الحب الذي لا يُقهر بل يقهرنا، لا يُنسى بل يتناسانا، لا ننكره بل يتنكّر لنا، لا نتمنى سواه بل يتمنى الولوجَ في غيرنا، هو ذاك الحب الذي

يشتعل من اللهفةِ الأولى، من اللقاء الأول، من الأغنيةِ الأولى، ومن الإعتراف الأول لتصبح الكارثة حتميّة، لتصبح مشاعرنا عرضةً للقدر ولعبثيّةِ الحياة، عُرضة للنسفِ والإضطهاد.

من الصعب أن نتشرّب الذكريات القديمة، في كلِ مرّة قد نصادف وجوهاً تشبههم، أو أشخاصاً لهم ذات الإسم، بذات الوجع المزمن، من الصعب أن نصحو من اشتياقنا والحياة ما زالت تذكّرنا بهم رغماً عن أنفِ النسيان.

من الصعب أن نترفّع عن كل الأمور التي كانت تربطنا بهم، بملامحٍ لا تكترث وتحديداً بنبضٍ لا يبكي، من الصعب أن نتظاهر بعدم الإهتمام لسماعِ تفاصيلهم، لأحداثهم ولحياتهم كيفَ أصبحت بدوننا، من الصعب الإبتعاد عن تجمهر الأفواه التي ما زالت تذكرهم أمامنا ببكاء وحنين، من الصعب التظاهر بالسعادة، بالحياة وبأن ذكراهم ما عادت تؤثّر بوتيرة أيامنا شيئاً، لكن لابدّ من التظاهر بذلك، لابدّ من السير بثقةٍ مفرطة، ولابدّ أن نكمل من حيث فرغنا، لا سبيل للوقوف أو حتى للصّراخِ علناً، لا مجال للحماقة ولسذاجة العاطفة.

فالدرس كان أعظم والوجع كان أشدّ، والحياة أصبحت تحتضر، لكن لا عودة للوراء.

مهما بلغَ بنا الإشتياق، سنبقى نشهق بالكبرياء، فلم يبق لنا في مرمى الحب سواه، وهل هذا هو الوقت الملائم لهدرِهِ؟ بالطبعِ لا، لذلك لن نكون القصة الوحيدة التي شُنقت غدراً أمام ملايين القصص، لن نكون قطّاع الغرام، ولن نصبح مشرّدين باسم الهوى، لن نهرم ونحن نردّد اسمهم أو نعانق صورتهم، لن نبقى حمقى

للحبِ القديم أكثر، لابدّ لنا أن نشهق الحب مرةً أخرى، بنسقٍ آخر وبتعويذةٍ مثيرة، لابدّ أن نقع في فخاخ العاطفة، ولابدّ أن نحيا من جديد، لن تقبرنا الحياة باسمِ شهداء الحب، لن نكون مخلصين للفراغ، وللعدمِ أكثر، فهنالك الكثير من التفاصيل تنتظرنا والكثير من المشاعر المتأججة لابدّ أن تُعاش وتُولد بداخلنا.

إنهُ الحُب المعاق الذي مهما بلغَ من العمرِ سيبقى في النهاية تحت رحمة شللِ الأطراف، تحت عناية متلازمة التفاصيل، ورهاب الأماكن، الأغاني والرسائل العاتية بلغةِ الحرائق، ورائحة العناق والقُبل المسروقة من هوّة الخطر، سيبقى يرتطم بالوجد حتى حين، سيبقى وجعه يصفع ذاكرة الحواس بخرابٍ جميل، بوقعٍ سيبلغ ثراه حينما تلهو المصادفاتُ بنا.

حينما أراك في وقتٍ أتناسى فيهِ تاريخك فيأبى التاريخَ أن ينساك، في وقتٍ لا أعلم ماهي وجهتي ولا أملك جُغرافيَةَ الملاحين فألقاكَ تتكاثر في جهاتي الأربع، أجدك متسمّراً عند الضفة الموارية للنسيان، وعند معبر الإحتضار حاملاً بقلبك حياةً أشهى، بعمرٍ أشد فتوة ، وبوقتٍ يتوجس لنا بالرقص عشقاً.

في خضّم الأحلام ها أنا أكتبك يا حلمي الصعب، يا حلمي الوحيد، يا حلمي الصارخ بهوسي، ها أنا أحقّقك بفضيحةٍ كبرى وعلى مرأى من الأعين، وبالقربِ من الشفاهِ الذابلة أنطقك، ها أنا أنحتكَ حرفاً بحرف وقُبلةً بذكرى، ها أنا أعانقكَ بساديّةٍ، بحنانٍ وبغضبٍ سيهزّ رجولتكَ من أقصاها، أنا لم أخن وجع الحُب، لم أخن الشهقةَ الأولى، لم أخن خوفي عليك، لم أخن صبري وانتظاري، لم أخنكَ يا أحمق فكيف تنعت أحرفي بالخائنة؟!

لا أريد الانزواء أكثر ولن يغريني الصمت المطبق مجدّداً، سأموت هذه المرة بسكتةٍ حرفيّة، سأقع من علو سطرٍ، ولن أكتبك بصورةٍ مؤطرة، ولن أتداول معك العاطفة بتراشقِ المشاعر، ولن أبهت وأجفّ من أولِ صفحة، بل سأقرع طبول ذكراك، وأدُكُّ حصون قلبك بوجعٍ لن تصحو منه.

سأكتبكَ بملحمةٍ عاطفية لن ينساها تاريخك وسيمحيها قدري، سأحرص أن تعانق رسوخ الذكرى بذكاءٍ يُعرّي غباءك، ستعلم حينها بأنني داهيةٍ لم تكتشفها إلا بفنِ الإختزال، سأواظب على حقنك برمادِ الأيام الماطرة جنوناً، سأصيبك بدوار عشقي يسقطك بين ذراعيّ كتابي كما أرغب، حينها فقط سأواصل التماهي والتلوّنَ بكَ كيفما أرغب، صدّقني هذه المرة لن تستسيغ رائحة الحُزن العالقة في ثيابي، صوتي، وجهي وفي أسطري، لن تصمد أمام اجتياح البُكاء وضعفي..!

الذاكرة المخلوعة أبوابها ستبقى عُرضة لقطاع الغرامِ، في أي وقتٍ خارج عن حدودِ التوق.

وها أنا أتعرّض للسرقة طوعاً، ها أنا أعرضك للبيع بقبحكَ، بكمالك، بجبنك وخيانتك أو بالأصح خياناتك وجنونكَ دفعةً واحدة.

أنا أعلم بأنك مُتضخّم الأنا، ومتعالٍ بالفطرةِ العاطفية، لذلك أهديكِ هذا الكتاب بنزقهِ الأخير وبكلِ تأبينه ووجعه ودواره.

ولذلك السبب فقط، أنا أخلّدك بما يليق لغرورك التباهي، فأنت سيكون لك نصيب الأسد في هذه الفصول الممزقة.

ولأن حبّنا أصبح بحاجة إلى تغذية كتابية، لوتيرةٍ أكثر تعقيداً،

لمناجاة وانتظار أكثر وعورة، ها أنا أشرعّ لأبجديتي جنونها حتى تسعد، وبين كل المد والجزر العاطفي ما زلت قابعاً في الرسائل القديمة، في صوت الأغاني، في تنهدات الإنتظار وفي حالات التّرقب الدامية.

تتزامن مشاعرنا عند بداية النهاية بحنينٍ أقوى، بدوارٍ عشقيّ يُلقي بنا عند عتبة التفاصيل وتحديداً عند كل الذكريات الباكية، بملحمةٍ عاطفية كُبرى نحن حمقاها.

فبعض الذكرى ما هي إلا تلافيف من وجع، تعيدنا لأقصى البداية، فقط حتى تجعلنا مشدوهين بامتلاء الأفواه.

هذا الوجع مدعاةٌ للغناء، للسخرية، وللإنهيار ضحكاً، ولجماليّة الغياب سأُراقص حُبنا حرفاً بحرف، لذلك أنا أريد البكاء الطويل على حبٍ لن يندثر، على عمرٍ لن يعود وعلى رجلٍ لن يتكرّر.

قرفصاء الذكرى تنهش جلد الحنين بوجعٍ لا أحتمله، هل لكَ أن تعود حتى تُخفّف عني وطأة النحيب والسير خلف تفاصيلك المهترئة بجنون؟ لكن قبل ذلك أخبرني كيف ستجمعني بكَ المصادفة من جديد وأنا لا أملك أُجرة العودة؟ وأخبرني بأقصى وجعك، هل قطعت جسور الإنتظار باكياً؟ هل انتفخ بك الحنين حدّ التخمة؟ هل انقلبت ذات اكتواء نحو منقلب من رماد؟

لا أعتقد..

قالها محمد علوان:

أين أنت؟

أنا هنا وهناك وما بينهما.. في الفراغات المبهمة والطقوس الظاهرة. حيث أكون كما أنا.. وغالباً.. حيث لا أعرف من أنا!

فعلاً فأنا لا أعلم من أنا؟ وأين أنا؟ ولماذا أنا هنا بالتحديد!

* * *

لم يكن حبّك سهلاً حتى يتلبّسني النسيان بسهولة، فقلبي لم يفطم عن عشقك، لذلك أنفتك حنيناً.

أتعلم يا رجل ما هو الأشد إيلاماً؟: هو أن تترك أنثاك تصارع الوجع بمفردها، أن تُسقطها نحو هوّة الفراق خاوية من الحياة التي كانت تحياها بك، متورّطة بمشاعرٍ منزوعة من السلام العاطفيّ، ومُشرّدة بين أرصفة الخيبة ومذهولة من النهاية الموجعة.

في وقت مضى كنت لي، وفي وقت سيأتي ستصبح لغيري، مؤمنة بأنك لن تلبث عاكفاً خلف ذكرياتي كما أفعل.

لذلك لكَ أن تتصوّر!! رغم كلِ الغُبن العاطفي الذي حقنتني بهِ «سأخلّدكَ في رواية»!!

«لا عليك، فأنا مُتسامحة جداً مع الحياة ومعك، فكلاكما تُشيّدانَ بي حضاراتٍ تنهار وأخرى تقوم».

صدّقني المسألة تخطّت مسألةَ الوقت، فنِصفُ عمري توقّف عند عناقكَ الأخير، والنصفُ الآخر انزوى يكتُبكَ، لذلك أنا أعيشك بأنصافي الناقصة، ولم أكن بحاجةِ رجلٍ يُبيدكَ من معالمِ الحياة بحبٍ أقوى، لم أكن بحاجةٍ لذلك الغرام العابر، فأنا بحماقة نساء العالمين ما زلتُ أتشبّثُ بذكراكَ أكثر، ما زلت أركض بكَ خلف وجلِ الحُب بلذيذِ الحنين وما زلتُ أعرجُ لك الأغنيات برقصةٍ تُغريك.

في مهبّ الذكرى، يشهقك الحُب اشتياقاً، فقط أخبرني كيفَ تُناجي الحنين وأنتَ بالقرب من مرمى الفقد؟ للأسف دائماً من

خلفَ لحظاتِ الترقّب يولد الوجع، الإشتياق، الإحتياج، الحب والإنتظار، تلك الملهاة العاطفية تُبكيني.

«المجد للأشخاص، الذين يبصقونَ الماضي بقلبٍ أصم».

أخبرتكَ مُسبقاً، بأن الأنصاف هالكة، لماذا أفنيتَ نُبلك طامعاً بأن تُبقيني بنصفِ عمر، بنصفِ نبض، وبنصف حياة؟

لذلك بعض الغرام يجب أن يبقى في الظلام، الضوءُ أحياناً يُفسد ملامح الهوى، وملامح عشقنا عثتَ فيها خراباً، وألقيتها لليالي الحالكة وللمشاعرِ العجاف، كنتُ وما زلتُ لا أطيق الإختبارات العاطفية ولا أطيق أن أوضع تحت وطأة الغياب، لأنني ببساطة لن أحاول النجاح في أي منهما، لكنك هذه المرة خرقت جميع مبادئي، قناعاتي، وإيماني في الحُب، هذه المرة بالذات جعلتني أتلظى بنارِ الوجد بمفردي، ضائعة بين صفحاتٍ ستشهد على ولائي أمام نكرانك، وجنوني أمام سكونك، لذلك كنتُ دائماً أتطيّر من الوقت الذي ليسَ بوقتي، وها هو الوقت قد حان يا أنا.

هنالك أضرحة ستتبارك منها أحرفي، وهناك محميّة عاطفية سيخترقها غبار الذكرى، ثق بي، تحت وقع المغامرة سأتمرد عليّكَ وعليّ، لا مجال لنعاس المشاعر، ولا وقت لديّ لحرق جثث العشاق، فقط سأتعلّم منك كيف أتقن فن اختزال التفاصيل فوق اللغة، سأكتبك بحبّ مخضّب، بمشاعرٍ عارية من تأبينها، فمن بين الذكريات سأقيم عليكَ صلاتي وخشوعي.

لذلك كن دوماً على أهبةِ الإستعداد للقائي من شرفات الورق، وكن على حذر من منازلتي، لأنني سأضرم العاطفة من أقصاها حتى أُسقطَ الوقت وهو يتغنّى بنا.

لنتداول الحُب دونَ وجهة محدّدة، ودونَ رُزنامة تُجدولُنا، دعنا نلتقي خلف بهو الغرام بمشاعرٍ دائخة، وبلغةٍ صعبة.

نافرةٌ أنا من كلّ الأمور التي لا تأتيني بكَ فاخراً، عابثاً وأحمقاً، أنت عالمٌ من الرجال لذلك كنتُ وما زلت أحبّكَ بجميع ذنوبك قبلَ صلاحك.

في هذا الكتاب سأدهس كلّ حماقة وكلّ غياب أبعدني عنك، للحدّ الذي سأسيرُ فيه إليكَ، مسيرة ألف شوقٍ وحياة، هذه المرة لتستعدّ لطمعي ولشراهتي المجنونة بك، لن أرضى بقليلك، هذه السطوة والثورة العاطفية تثير شهيّتي لأحبّك أكثر، لأُبكيك بدمعٍ مضاعف وبغباءٍ أعظم، لأنك تعلم بأن المشاعر الفاترة لا تثيرني قرّرتَ حرقي بحب.

«أنت لم تستعبدني، بل استعبدت ذاكرتي، وهنا الكارثة الجنونية».

ولأن أول رسالة حُب، هي الندبة التي تنتصف بقية عمرنا بخيبة، سيصبح هذا الكتاب نُدبتي الجميلة وفضيحتي الباكية، وذنبي الذي لن تمحيه أسطر الحياة من رحمها.

وأحذّر أن تعتبره هروباً عاطفياً، لم يكن ارتيادي على مطارات العالم بنيّة النسيان بل بنيّة إحيائك في كلّ دولة بلهفةٍ لا تتوقّعها، ولا تسر بمحاذاة واجهة الإشتياق، واختر طريقاً أخر لا أعرض فيه وجعي، صدّقني لن أحتمل رفات الشفقة وبالذاتِ منكَ أنت.

فقط أخبرني حينها، لمَ لجمْتَ عاطفتكَ عني؟ ولمَ أصبحتَ تُحرّضني على الموت بسكتةٍ قلمية؟ أ كان سبب هذا تزامن مشاعرنا في وقتِ كسادِ الغرام؟

لأننا كنا يا حبيبي مجرد سخيفين وقَعا عمداً داخل هالةِ الحُب، نحنُ يا رجُلي حمقى الغرام، لذلك اخترنا الفراق عن العناق، نحنُ يا سيدي خائنان، نعم خائنان للذكريات، للسهر، للّيل ولذلك الحُب الهزيل الذي لم يلبث أن يشتد قوامه إلا وقصمناه بالرحيل، نحنُ يا طفلي قاسيانِ جداً على الأحلام المحمومةِ بنا وبارِدان حدّ التجمّد على مشاعرٍ تتناغى بالهوى وجاحدانِ لكلّ حقبةٍ خبّأتنا ذات احتواء.

* * *

الكثيرون ما زالوا لايفهمون كيف يُصبح للغياب ثقافة، كيف تُقام من الوجع كرنفالاتٍ من ضحكِ وحياة، وكيف تُشيّد الحضارات من التفاصيل المحمومة، للحدّ الذي تُشد فيهِ كلّ الرحال من البكاء، لذلك لن نفيق من سباتنا الغراميّ، إلا بتوقّف ذاكرتنا عن استحضارهم من الدرك الأسفل للجنون.

سنبقى في ضيافة الذكريات، جميعنا مشرّدين.

الحُب لا يحتمل التذاكي، فقط كن مجنوناً وارقص السامبا فوق منصّته.

ما زلت متورّطة بمأزقٍ أنت المعنيّ فيه، ما زلت أدور حول تفاصيلٍ تقاطعنا بها ذات احتواء، ومازالَ خاتمكَ يتوهّج في إصبعي ببكاء.

- هل أبالغ في تمجيدك؟ لا أعتقد، فهذه البداية فقط، لأنك لم تكن مجرد حبيبٍ عابر ورحل، بل كنتَ أنا وما زلت.

ياه! كم يفصل بين أوراقي وعينيك، كم من العمرِ انقضى وأنا أدعو أن تقرؤني بأعينِ الرجال، كم تمنيّت لو تحقنني بجزيلِ الحب، لكن تضامناً مع الذكرى سأذكرك بشهيةٍ مُفرطة.

أتعلم ما معنى أن تدّب الحياة في كائناتي الحبريّة؟ أتعلم ما مدى خطورة أن تُخرجني من سياق الرواية بواقعٍ أنت المهيمن الوحيدِ فيه؟

لذلك لك من ذكاء الرجال الملهمين الكثير، تجيد الإبتعاد في وقتِ امتلاء المشاعر والعودة من الغياب في وقت الجفاف، تجيد حقن أبجديتي بلغتك، كنتَ تُخيفني، أتعلم لمَ؟ لأنني أدركتُ من أولِ وخزةِ حُب بأن هذا الغرام سيكون أكبر مني ومنك، أدركت بأنك ستُثقلني بالحنين والذكرى الحارقة، لكن أعدك بأني هذه المرة سأكون أذكى وأشهى وسأحافظ على زمام الحُب.

أجوعُ لصوتك، لحنانك، ولقلبك، أجوعكَ كتابةً واحتراقاً، لم ينقصك سوى فصاحة الحُب، حتى تعبُرَني بكلّ إجلال لجنوني، قسوتي، مزاجيّتي وحبي، لم تكن تفاصيلي معك عمياء، ولم يكن حبي كذلك، أنا اليتيمة بين قسوتك وحنانك، والقوية في انتظارك وشتمك، قد نلتقي خلف عقارب الزمان، قد أمرّر أصابع يدي فوق ملامح دهشتكَ يوماً، وقد أخبركَ حينها بأني أصبحتُ معطوبة حدّ الشفاءِ منك.

أتعلم أكثر ما يثير البكاء فيّ، هي رؤيتي لرسائلك وصورك المكدّسة وهي باهتة، حانقة ومجعّدة بعمري وعمرك، فمن بين تلك التفاصيل ستبقى ذكرانا.

في عمرٍ مضى أتيتني بهزة عاطفية، وبمناوراتٍ غرامية، لم تدعني ألفظُ أنفاسي، حتى عقدتَ رهانك حول قلبي، ثم حظيتَ بهِ فرحلت.

في لحظة الوداع حُنجرة الغياب أصابتها البحة، لا كلامَ يعلو

أُبهة الرحيل، في لحظة الوداع خذلتُك، أضعفتُك وأبكيتُكَ لبكائي، أعذرني لم أحتمل العناق الأخير، النظرة الأخيرة والأحاديث السريعة، لم أحتمل هذه النكبة، أخبرني كيفَ يكون الوداع من غيرِ بُكاء؟ كيفَ لي أن لا أصابُ بالوهن وأنت ستُحلّق لقلبٍ آخر؟ كيف لي أن لا أنتحب بفتورٍ ووجع، والخيانة ستسكُنك؟

أخبرني بأن هذا الغياب تماماً ككلّ فراق يرتدينا، تماماً ككلّ رحيلٍ يبدأ وينتهي بلقاءٍ وعناق، أخبرني بأننا سنعودُ يوماً من حيث لا نعلم، لكننا سنعود، أخبرني ماذا عسايَ أن أفعل، هل انتظر أكثر؟ هل أحقن صبري بصبرٍ أكبر؟ هل أصرخ بهيئةِ قصيدة؟ أم أكتفي بالبُكاء لأعوامٍ عديدة؟

أخبرني أرجوك.

أخبرني من غيرك سيستطيع بتر السكون والوجعُ فيّ؟ من غيرُك قادر على الصراخ بوجه الغياب بحبّ؟ من غيرُك سيجرُؤ على بلورة مشاعري بشقاوةِ وطفولة؟

إلى سدرة الملتقى يا رجُلي.

* * *

الليلة فقط لن أستطيع الركض والنوم داخلِ حُنجرتك، الليلة ستكونُ بيني وبينك بلاد وبحار وأوطان، الليلة لن تجتاحني بتمتمةٍ ولا بقُبلة، الليلة عني سترحل، الليلة يا أنا، الليلة يا رجُل قلبي، سأرقص حدّ الإغماء، الليلة سأكون عمياء، الليلة جميعهم سينعتونني بالبلهاء، الليلة هو الفراق حدّ الغناء، الليلة ستتكدّس بين جميع الذكرياتِ من جديد، الليلة ستكون ميلاداً آخر للغةِ الغياب والأحلام العالقة،فأنا لن أراك إلا بعد وعدين واحتضار، الليلة سأعانق الوحدة،

سأتسوّل الحُب، سأنفثُك بوجعٍ ووهن، والليلة ستحلّق بعيداً عني، لأنزوي بفتورٍ وألم.

لا تقلق سأرتدي فستاناً من ضبابٍ وبُكاء، سأُعيد دوزنة مشاعري وأصدح لنفسي بالغناء، لا تقلق؛ لم يُصِب مشاعري إلا بعضاً من رتوش الغياب وستزولُ يوماً، لذلك لا تهتم سأكونُ بخير، لأني بعد خُذلانٍ ونيف، سأكون أكتبُك بجوعٍ مُفرط، فقط حتى أستحضرُك من خلف الذكريات المعتّقة بماضٍ كنتَ ترتع فيهِ من حولي.

على شفا الحُب نموتُ ونحيا، على شفا الحُزن نرقصُ ونبكي، وعلى شفا الذكريات نُخلّد ونبقى.

إشش لا تُدر لي ظهرُك وتبكي، إشش لا تتلقّفني بحنانٍ وحُب.

إشش دع نشاز القلب يعلو ويصدح.

أرجوك فقط دعنا نتظاهر بالقوة وشيءٍ من الكبرياء.

صدّقني ستكون لنا عودة بهيئة مختلفة، ثق بي.

لم يكن هذا الذي كنتُ أصبو إليه وأخطو، لم يكن غمارُ الهوى مُجرّدَ لهوٍ وعبث، لم تكن خُرافة الرواياتِ عنّا من فراغٍ وغياب، بل حُبٌّ باقياً رغم الفراق.

سلامٌ لتراتيل الغرام التي عُطبت، سلامٌ على ساعاتِ الحُب التي ستنطفئ.

سلامٌ للذكرى القادمة وللأمنياتِ الراحلة، سلامٌ على خنوعي وضعفي.

سلامٌ على الأحلام المموّهةِ بالغياب، سلامٌ على حُبٍ اهترأ.

سلامٌ على التفاصيل القاتمة بالضياع، سلامٌ علينا.

أصبحتَ تتجلّى بي وتعصف، تُعاندُني فتغضب.

تعانقُني فترحل، تبّاً لمشاعرٍ ممتلئة بخطيئتك.

تبّاً لذكرى أبت أن تذبل، فشحيحُ الذكرى ما عاد مرشوشاً بوابلِ الحنين.

لذلك لا تنتظر من قلبٍ تالف العودة لحضارة جنونكَ بإثارةٍ وصخب.

رُغم وعورة الحُب وخُنوعهِ، إلا إني اخترت السيرَ فيهِ على مداد الأغنياتِ والأوراقِ بتمرّد ورقص، أنا امرأة تُحتَضر تحت قِشرةِ الحُب وتنتحِب، وأنتَ رجلٌ يسفِكُ بالمعولِ كلّ ذكرى كانت بيننا عاتية، الحياة لم تُنصفني كثيراً ولا أحتاج لذلك، يكفيني أنكَ لم تتشبّث بي كما أستحقّ.

وبكلّ صراحة مُفخّخة.. أنت في الغيابِ أوفى.

نحن هرمنا كثيراً بين الورق، للحدّ الذي نسينا فيهِ كم أصبح عُمر حُزننا، للأسف في الدركِ الأسفل من أنينِ الغرام، يتكاثر المشرّدون في الحُب، وكأنهم ينتظرون إعفاءًا كونيّاً للهوى، يأتينا الحُب معتّقاً بماءِ الزهر والعُنفوان، لا يلبث بنا حتى ينسِفنا، والأكثرُ خوفاً هو انزواؤنا خلف خاصرة التفاصيل بأملٍ مُقفر.

«قد يأتي البعض على مقاس الحُب تماماً، لكن في نهاية المطاف يُصابون بالتخمة».

الكادحون في الغرام هم من يتملّص منهم الحُب دوماً، فينبثق الجرح من رماد الحُب، لذلك كيف له أن يبرأ والقلب مازالَ معطوباً؟

ما زال يكتبُنا الفراق ويُبكينا الإحتراق، فنعلم حينها أن لا سبيل

لنا للإنعتاق، لن تكفّ الذكريات عن لدغِنا، ولن تكفّ عن الإتيان بهم على هيئة أغنيات وسهر.

تأخذ العلاقات دوماً نسقاً غريباً، والمريب في تلك العلاقات أننا دوماً نكون ساذجين أمام الحُب بشكلٍ أو بآخر، لا نتعلّم رغم أننا نتألم.

«لذلك يتلوى الحنين فوق قتاد الإنتظار..!».

لا تتكدّس تحت الوسائِد ولا تعصف بالأحلامِ والسهر، اكتفِ بطالعٍ لا يأتيني إلا بك، ودع عنك الطمع، لا تخطُ نحو الرقصِ والحماقة، وأنتَ لا تُجيد الحُب.

قُلها ولا تخشى صداها أن يُبكي لي مدمعي.

تعالَ بصوتك وانسكب داخل مسمعي .

لا تصرخ باسمي من بعيد وتسألني هل تسمعي؟

* * *

لماذا تركتَ لي أطفال الحنين يركضون خلف الذكرى بحماقةٍ ونهم، وأنت تعلم بأنك لن تكون أباً باراً بهم، ياه، هذا الألم يتعالى بي الى سدرةِ البُكاء؟!

أرجوكم أخبروه، بأن سوسنات القلب تنزف، أخبروه بأن الدمع في أحداقي قد جفّ، أخبروه بأن تلك الشقية التي كانت تُثيرُه قد هرِمت، إسألوه لماذا عاد إليّ من بين الورق؟ أخبروه بأن مأدبة غرامٍ وبكاء تنتظره، أخبروه بأنني خائرة القوى وبأنني أكتبهُ من على شفا احتضار، ها أنت عُدتَ وعاد معك قلقي، حُبي، سهري ومرضي، عُدتَ يا أنا لتدُسّ بداخلي الوجع وهذه المرة على هيئةِ كتاب، ستبقى الذكريات هائمة بين حنينٍ وألم، وسيبقى انتظاري يُلوح

للمارة سائِلاً عنك..!

بصوتِ الذكريات وصُراخ تشرين، غرقتُ في شبرِ فوضى وانتظار، لأنك حالة تامة غير قابلة للانكسار، فقد كُنت بي عاتياً، فحُبّكَ شاهقٌ حدّ التجلّي، لذلك لستَ بحاجة أن أضع لك تاريخاً، أو وقتاً ليكون ميلاداً لك، فالتواريخ تذهب والعقارب لن تتوقف، وحدهُ كتابي من سيخلّدُك بشموخٍ وألق، إن كنتَ واقفاً ضد الكتابة وضد المشاعر، فأنا مُنزويةٌ خلف الأسطرِ والقصائد، إذاً من بينَ أناشيد الرباب سنفترق.

فقط تصوّر، حينَ سقطتَ من قلبي، صرخت مشاعري بـالله!! ألهذا الحدّ كُنتَ تُشعرني بالوخز والوجع؟!

أرجوك دعنا نلتقي في حفلة بُكاء، حينها اقترب مني أكثر وأكثر، وأوقعني في غمار حُبّك الملفّق بضحكٍ وغناء، أعدك سأبتسم وأتباهى بقلبك المهترئ، وستجدني حينها مُنزوية في مأتمِ الذكرى، ستجدني أتسوّل الحُب من فتات الحكايات القديمة، ستجدني أبحثُ عنك في أحاديث الدراويش، فقط جِدني قبل الإحتضار.

ها هي الساعة الثانية عشر ونصف، الثانية عشر بعد الحنين والاشتياق.

أيعنيك أن يُسرع الصباح لعناقي بدونك؟

أيهمُّك أن يمضي ليلي يترنّح بين بكاءٍ واكتواء؟ للأسف رجلٌ مثلك لن يستطيع إبادة أسراب الوجع التي تقصفُ الوجد ليلاً، فقط أريد الركض إلى النهايةِ بدونكَ، أريد أن تُطلّ نافذة قلبي على ملامحٍ غير وجهُك، أريدُ الرحيل حتى إشعارٍ آخر بدونِ انتظارك،

نشبتَ بقلبي حُزناً لن يلبث حتى يفتك بأوردتي من عُمقها لأقصاها، فأنا المنزوية في أقصى الذكرى ببكاء، وأنت الهارب من وجعي بكمدٍ وقلق..!

* * *

تصفعنا الكتابة، بنصوص ألقينا بها عرض الرياح، فتعيدها لنا بندبة تنتصف السطر، أحتاجك حتى أكمل ما بدأت به، لأني ما زلتُ لا اجيد الكتابة بقلب معطوب، وأنت تعلم بأني سيدة المسافة فكن أنت الحدّ الذي أقف عنده.

لكي انساك، لا حلّ لي سوى أن أكتبك، أشهقك وأزفرك اكثر حتى تخرج مني، وتعود اليّ كالأفعى زاحفاً تلتصق بجلدي، فأتشبث بك حينها أكثر وأكثر.

أذلّني الحُب، فكاهلي مُثقلٌ بالخيبات، وأضلعي اصبحت مائلة بقلبٍ مثقوب لا يفقه الفراق ولا يجيد الإحتضار.

إشتقت أن أسير من أجلك في طريق مُتهالك حتى أحظى بعناق دافئ وشهقة تُعيد لرئتيّ الحياة، إشتقت أن تركل جميع الأمور حتى تقطفني كوردة لتتنفّسها بحبّ.

إشتقت أن ألقي عليك السكاكر بطفولةٍ لتصرخ في وجهي بسخريةٍ شهية قائلاً:

- «ما زلتِ كطفلةٍ تقفز بشقاوة، متى ستنضجين»؟.

ألم تكن تسير خلفك قافلة الحنين؟ ألم تأتك مني باقة من القُبلات المعّطرة بحبّك؟ إذن لماذا لا تأتيني بِكُلّك كهدية مُغلّفة بشريطةٍ حمراء؟

فهذا الكون قزم جداً، مقارنة بحجم اشتياقي لك.

أحتاج أن أرحل من نفسي إليك، أن أنبتَ فوق كتِفك، أن أكون أنت، أن أكون كل شيء من حولك، أحتاج أن أعبث بشَعرِ الليل معك، فمتلازمة الحنين إليك تُصيبني بالتوحّد، وصُداع الفقد موجع.

* * *

أنت نص أجتهد في كتابته، لأنك فقط تستحق أن تخلد بداخل الرواية.

لكن هل يتوجّب عليّ تدوين كلّ تفاصيلنا؟ وهل عليّ أن أجهضك حتى تخرج من رحم أعماقي بذكرى مشوّهة بالخذلان، فيقرؤها الجميع؟ ويتعرّى ذلك الحب بخذلانٍ مؤلم؟

ها أنا أرشف الذكرى والهمّ بمفردي، فحبّنا كان خرافة لن تتكرّر، على الأقل لن تتكرّر بالنسبة لي، أمّا بالنسبةِ لك أشك في ذلك! فتلك القصائد والخواطر الباردة تجرّدت من المساءات المتعبة.

لذلك لا حلّ لي سوى الكتابة.

هل ستخرج مني فور انتهائها؟ أم أني سأعيد ولادتك بداخلي بحبٍ سيؤلمني أكثر ويرسم لي أحرفاً مبلّلة بالبكاء ليعيد تكوينك أمامي بثقة وكبرياء، للأسف أنت تتجسّد أمامي كوشم لن تمحيه ألف رواية أكتبها!

أنت أحادي القدر تلهمني رغم الفراق، رغم الغياب الموجع، رغم بكاء الحنين في داخلي ستبقى أنت ملهم هذه الروح الشاحبة، لك وقعٌ عميق في حضورك وغيابك، لم يكن رحيلك عني سوى رحيل شامخ بعثرني من أقصاي.

سيبقى رماد هذا الحب ينطفئ ليشتعل مرة أخرى كالبركان، ليصفعني بقوة الألم الذي خلقته بين طيات الحلم.

وأنا كنتُ بك ومعك دائخة، دائخة حتى الرمق الأخير من الخيبة.

لم أكتفِ بتشرّب ذاك الألم بدأبٍ وضعفٍ حتى تصفعني بالرحيل والإنزواء، فأنا إن كان يعنيك لم أكتفِ منك رغم الإكتواء يا أحمق، لم أنتشِ وأرقص بطفولةٍ ومراهقة إلا بين ذراعيك، لا أعلم كم ينبغي لي أن أبتلع من حبوب الإنتظار،حتى تعود إليّ كشيء من السحر؟ وهل يمكن أن تتحقق المعجزة؟

لم تحتويني من قُطّاع الحُب والعابرين، لم تُخبّئني جيّداً من حاضرٍ حالكٍ بالضياع، لم تطوّقني وتلملم شتات خوفي كما يجب، لكنه هو فعل، هو حاول ترميم ما يحتاج ترميمه دون أن أتسوّل ذلك كما كنت أفعل معك، دون أن أخنع خلف الإستفهامات وأنقر خلف الأجوبة المؤصدة من بابٍ صدئ.

كنت أنتظر منك الكثير ولم يأتني إلا القليل، ولم أنتظر منذ حينها الإ القليل حتى بدأت تأتيني بأقل منه ومنه، وكأنك تخبرني إزاء ذلك بأن لا أطلب وأن لا أتوارى خلف الطمع كما أتمنى، بل كما يحلو لك، وكما يسنح قلبك، أفكارك ومزاجك بذلك، ستغدقني حباً وقتما ما تريد وليس وقت ما أرغب.

أهةٌ منك يا هذا.

كم كنت مغفّلة وساذجة حتى اليباب، وها أنا الآن أتقيأ الوجع بهيئة رواية ستندب حظها مستقبلاً، سأطعمك لبقايا الكبرياء من سطر وحرف حتى تبقى آخر الشعر القديم، وآخر الوطن العتيق وّخر

القوافل التي غنّت بي وتغنّت حتى بحّت الحناجر.

هل هذه وصمةُ عار أن تبقى آخر الأشياء وأنت كنتَ أوّلها وأوسطها؟.

أخبرتني ذات حب، بأن الغياب مهما طال سيحرّضنا على اللقاء، ليجمعنا القدر مصادفة، في وقتٍ لا نتوقّعه، فمن حينها وأنا أدعو أن يجمعني بك القدر داخل لحن الدهشة والجمال.

لا أعلم أي قسوة وُلدت داخلك حتى جعلتك متحجّر القلب بهذا الشكل، وكأنّ قسوة الكون خُلقت واجتمعت داخل روحك انت فقط.

وها أنا أرمّم ما يحتاج ترميمه في هذه الرواية اليتيمة، لا يهمّني أن ارضي غرورك، ولا يهمّني إن علمت بأن هذه الرواية هي جنين ذاك الحب المشوّه، فطفلتي بسببك ستعانق الحياة بندبةٍ تمزّق قلب من يقرؤها، نعم إنني أحرّض الجميع بأن يكرهوك، كما أكرهك وأحبك في ذات الوقت.

تبّاً لحبّ لا يعلو عليه أي حب عابر، وتبّاً لقلبٍ لا ينسى من جلده بالرحيل والخذلان.

لم تكن سوى لوحة رسمت تجاعيد القلب بنتوءاتٍ مائلة، ملأها الإنتظار المريض، فكنت سرّي الممزّق، لذلك كنت وستبقى نهاية غريبة في كلّ بداية راقصة.

أنا امرأة بألف قناع عندما أتظاهر أمام الجميع بنسيانك والسير بثقةٍ هشّةٍ أتمايل بها امامهم بكبرياء معتّق بالألم، وأنت لم تكن سوى رجُلٍ بملايين الأكاذيب، اذاً نحنٌ أسراب من الوهم المليء بالشوائب الذي لن يكون طاهراً يوما.

أنت كلصّ أحمق، سرق قلبي، والإلهام معه، فترك لي كومة الذكريات المرصّعة به، لذلك ها أنا أدور حول ماضٍ مُرصّع بحماقة الحب، أكتبه بتركيز أكثر حدّ خوفي أن أهمل أي حدث أنجبنا بداخله، ضحكة، جنون، ألم، بكاء، فراق، لقاء، عناق، حماقة، فيضيع خارج النص ولا أستطيع محاصرته بين الأسطرِ من جديد.

عندما تشكّلت أمامي المسافات في قالبٍ مقلوبٍ بأوهامٍ وأحلامٍ فارغةٍ، نضجَت بكَ حدّ الجُنون، فبيني وبين الحياة أنت ، وبين الحب والغياب أنت، وبين البكاء والألم أنت ، وبين الماضي والحاضر تقف أنت، متى سترحل مني يا أنتَ؟

ألصقتَ بقلبي نُدبة لن يمحيها النسيان، لأنّكَ العالق بين التفاصيل، والراحل معها.

قبل البداية قل لي هل بإمكاني أن أسد جوع قلبي ببعض رماد حبّك، أو ببعضِ القبل المسروقة من السماء؟

قبل الحب

من الجميل أن نبقى غرباء ، عابرين
وراحلين ، من الجميل أن نحمل أسفارنا
بمفردنا ، فالحياة تعلّمنا الكثير بالمجان

المثير في الأمر هو أن يجعلك الحب تبتسم وأنت فوق ناصية الهوى، أن يمنحك سعادة تزيل وخز الماضي عنك بسلامٍ وهدوء، هذا الحب لن يتكرر كثيراً في حقبتك لذلك إقطع مع الغرام موعداً في خيالك، فوق دفاترك وحتى في أغانيك، أتشعر به؟ ها هو الآن يلتفُّ حولك كدولابٍ من الهواء، لينثر اللافندر والتوليب لك، فقط مارس معه الفضول، شاكسهُ وكن لحوحاً عليهِ، سيجودُ عليك بالهوى الذي تستحقّه، ولا تقف كفزّاعةِ حقلٍ مشدوهةٍ، ذراعاها عُرضةً للنقرِ من الطيور.

الحُب يأتينا كحلمٍ مُباغت فقط حتى يطمر ذكرى الأسى عنا بكلّ اجتياح وعنفوان، ليخبر القلب المكلوم بأنّ العُمر مازالَ فيهِ نبض لحبٍ يتّسع مداد الكون، تساقطنا كثيراً حدّ التهكّم فوق أرصفة الإنتظار وجاء الوقت الذي يستحقّ منا أن نكفّ عن إيذاء قلوبنا أكثر، فالحب مهما كان عمره سيلفظه القلب ذات يوم باكتواء ولا مبالاة، لأننا لن نجثو خلف أحلام اليقظة أكثر من هذا ولن ننتظر أكثر.

ها هو قد أتانا حبٌّ أفضل من دهاليز الغيب حتى يُصبح حياةً تترنّح بين قلوبنا كما كنا نرغب، فقط شذّب ذكراك القاحلة وازرعها بالزهر والأمنيات، واحقنها بالأحلام الملوّنة، لتنبثق لك ضحكاتٍ وجنون ولوحاتٍ راقصة من عمق إيقاع الوجد، وحتى تشهق

الموسيقى وتتوغّل معها بلا هوادة، سيبقى شعورٌ موجع أن نعبر من سكنونا بشحوبٍ لم تعتده ذكراهم، أن نعبرهم لنتركهم فارغين منا، فقط لنستوطن اجساداً غيرهم، وأن نلقي عليهم السلام لآخر مرة، فنعانقهم بشفقةٍ لنتخلّص مما تبقى لدينا من أسراب حنينهم فنلقي به من شفا الرحيل لننعم بالنسيان.

وحتى نحظى ببدايةٍ اخرى تضحك لنا وعلينا بحبٍ مراوغٍ سيتخلى عنا في نهاية المطاف، لكننا لا نسأم من النهايات الباكية، تماماً كما أفعل أنا، لأنني لم اتوقّع قط أن أبدأ من حيث انتهيت، لم أتوقّع أن تجمعني الكتابة مع رجلٍ يُخرج لي أحرفه من ثقوب النوافذ، ليقول لي إتبعيني بصمتٍ، ودعي أبجديتكِ يا كاتبة تصرخ، لا أعلم كيف له أن يحقنني بالفرح طيلة اليوم، كيف له القدرة أن يُشعِرني بأنني فراشة مُلوّنة ببهجة الحياة وترفها، فهو يخلق من لغتي لغة أخرى، ومن أحلامي واقعاً آخر، ومن الرسائل نوارس تعلن هجرتها بين بريدي وبريده في كلّ عقربٍ من الساعة، هكذا يجعلني مندسّة بين وميض الفرح، بفمٍ مزموم وقلبٍ ينتفض حُبّا.

كنت تحملني فوق الأخيلة لتغرسني بين السطور، لتعلّمني كيف الإحتماء بين النصوص يكون، لتبعدني عن خطيئة الأحلام المبتورة والزمن العالق بين جسور الذاكرة.

حرفاً بحرف تقاسمنا الوقت والحكايا الراقصة، تلوّنا بالحُب وتلوّن هو بنا، فأنت لك من السطوة ما يجعلُك تخلق بيننا الحياة، لترفع من سقف التحدي، حتى لا يغرينا الغياب، ولنظلّ مُعلّقين أمام عتبة الإياب، هكذا نركض بحوافرٍ من ثرثرة وغنجٍ وغرام، قضايا المجتمع كانت تثير فينا حدّة النقاش والمذاهب الطائفية باختلافها

وعلوّ صوتها ،كانت تجيد تحريك روح الفلسفةِ بيننا، لا أذكر قط أن حوارنا انتهى ذات احتواء بنقطةٍ فاصلة، دائماً بين الصحو والغرام، كانت حواراتنا ومجاراتنا الأدبية مُعلّقة بين جنباتِ الهوى حتى حين.

يُغرينا صراخ العاطفة، والإحتياج إلى المزيد من ذروة الحُب والجنون، فخلف كوامن العبارات نهمس، نتمتم، ندوخُ ونحلم حتى يعلو التناغي بيننا وينخفض، كالأطفالِ تماماً عندما يبدأون بتعلّم الحبو نحو المكعباتِ الملوّنة بضحكٍ وشقاوة.

لم أعلم بأنك ستأتيني بهذا الزخم، بهذا الجدال العاصف بين مسامع قلبي وعين عقلي، لم أكن أعلم بأن هذه المواجهة الكتابيّة لم تكن سوى معراج للهوس، للثمالة وللذنوب الصغيرة، لذلك احذر يا رجُل أن تهبط بي إلى سدرة المنتهى، فمعك أنت أصبحت أشرّع للحماقةِ، للخطيئة، وللرقص المثير الذي تتبعه ألف قُبلة وعناق.

اصطدمت بكَ في حادثِ حبّ وكأنك أردت أن تُعلّمني كيف تصبح الحالة العشقية أكثر جنوناً وشغفاً، وكأنك أردت أن ترتطم بي حتى أغرق وأغرق بك، فتعلّمني كيف يكون العوم بداخلك بالفطرة لا باكتسابها من الحياة، أنتَ لغة معقّدة أتسلّقها بفضولٍ لذيذ، تجيد إغرائي بين تفاصيل التفاصيل، أنت لا تشبه نفسك البارحة، علّمني كيف تستطيع ارتداء كلّ يوم رجلاً بأناقة مفرطة وببساطة مثيرة وبتكلّف غير مصطنع، واحياناً تظهر أمامي بتجاعيد الخمسين وبعدها بملامحِ فتيّة!! كيف لك الإنخراط بين كلّ تلك الشخوص بكلّ هذه الجاذبية الغريبة؟

لكَ من الفلسفة ما يخرسني دوماً، ولكَ من وجاهة اللغة ما

يُشعرني بفقري، هكذا أجدني مأخوذة مني إليك بذات السهولة التي عصفتها عليّ، وبذات الفوضى العارمة التي تركتني بها ذات حيرة، لذلك آتيك بخجل وعفوية كلّ ليلة، فقط لتجعلني أعود من بين أبجديتك مُبلّلة بلذيذ الأحلام والغرام.

* * *

«نحنُ لا نختار قدرنا لذلك نمضي فيهِ على مضض».

لذلك ها أنا معك، وأكتبك يا قدري لأنني لم أخترك ولم أسِر نحوك رغم تجاهلي وامتناعي عن الرد، إلا أنني وجدتُ نفسي مخطوفةً من كل أبّهتي حتى أجاريكَ أدباً، وحتى أعقد مع الحُب صفقةً غريبة، وهل هنالك قلوب غيري قد عقدت مع الهوى اتفاقيات وتورّطت كما تورّطتُ أنا؟

لكنك اخترتني، فشمّرتَ الجنون المكثّف عن قلبك، فقط حتى تُحاصرني من جهاتي الأربع، لم يتبقّ لي منفذٌ إلا منفذك، ولا حرية لي سوى أحرفك، وكأنك تريد اقتناص آخر الفرص التي لن تحبا بعدها.

أكثر ماكنت أخافه أن تُصيبني بسكتة قلميّة، وفعلاً فعلتها من حيث أخشى، أتيتني لتُدلّكَ لي موضع الخيبة والألم بجزيل الحنان والنبل، أأنت آخر رجال الأرض نُبلاً وشموخاً؟ لطالما تردّد هذا السؤال حولي باستفهاماتٍ لا أعيها.

لا أعتقد بأنك قادر على وخزي بالخيبة، لا أعلم لما أنا على ثقة مُفرطة من ذلك، رغم معرفتي بأن بعض الرجال يتقنون التمثيل في معارك الحب السلميّة بأكثر الطرق وجاهة، فقط حتى تكون غنيمتهم بقدر جهدهم وذكائهم، لكن أنت بالذات كنتُ أشعر بأنّ

لك ذات الوجع، ذات الغموض وذات الأنفة المكسورة من علوّ الأمنيات، تشبهني كثيراً في الموسيقى، القصائد وعشق النوارس والتفاصيل الحميميّة، لنا ذات الجرأة على السير بجنون، والهروب بحماقة، أشعر بأننا قد التقينا في خطيئةٍ ما، لم أعد أذكرها، أشعر بأنك تعرفني جيداً للحدّ الذي تربّت فيه على مواضع ضعفي وتُقبّلُها برحمة وسلام.

صدقاً بدوخةِ العاطفة لا أريد النهوض منك، أحتاج لظلامك قبل ضيائك، فقط يا رجُل الأعياد والسعادة المفرطة خبّئني تحت ظلالك، تحت ثيابك وتحت جلدكَ، المهم أن لا أنشطر عنك، أريد تقاسم الذنوبِ معك، أريد أن تتعرى مشاعرنا من ترسّبات الذكرى بقدسيّة جنوننا، أريدك أن تبيد تعاستي بخشوعٍ خالصٍ، وبعبثيّة القدر نرتطم بكلّ الأمور الثائرة بعاطفةٍ متطرّفةٍ، أعدكَ بأنّ من بين أصابعك ستحبل اللغة، فقط تحت وقع الإشتياق عانقني، لأننا سنتقاطع كثيراً من بينِ الأسطر.

-كيفَ سأصبح في عينيكِ إن نزعتُ منكِ كلّ الأسى؟ كيفَ سأصبح في قلبكِ إن حقنتكِ بأكسير النسيان؟

«لذلك أنا سأحبّكِ كلّ يوم أكثر ولذلك سأجنُّ بكِ بألفِ طريقة».

فقط حينَ قالها ذات حنان اختصرت فيّ الموتَ والحياة، أنت لا تعلم كيف رفعت من سقف الرجولة في قلبي، لا تعلم بأنه سيصعب على غيرك مجاراة جنونك بي، لذلك بتراشق العاطفة دعنا نتمايل ما بين الصحوةِ والشمالة، لذلك كن على ثقة كما أنا على يقين بأنني سأنجب منك ذنوباً خالصة وستكون لك، فأنا

لستُ ملائكية ولا بتلك المثاليّة، أحتاج أن أقاسم دراويش العاطفة أوجاعهم وتقشّفهم، طالما نحن تحت كنف الحياة، لابدّ لنا أن نتألّم كثيراً، حتى نتعلّم.

* * *

إلى الكاتبة التي بروحِ طفلة

ها أنا هنا من جديد أضيئ النافذة الساكنة من كلّ شيء والصاخبة بأحرفك.

قريبةٌ أنتِ حدّ الأنفاس، ولكِ قدرة مخيفة في السير على الجرح بفتنة تربك الرجولة من أقصاها، لا أجيد تنميق الأحرف، ولا أملك من ثراء الأبجدية ما يؤهّلني لمواجهة سطوة مفرداتك لكن أملك قلباً بات يشهق السهر، الدفء، الفرح من جميع ما تكتبينه.

وكأنني ألهث خلف شيء لا أعلم ما هو، جاهلٌ أنا في أمور الإتيان بكذبة قد توقعكِ برجلٍ آسر أو ما ستعتقدينه كذلك.

لكن ومضة صراحة: فقيرٌ أنا حدّ التقشّف، والإنجلاء خلف ما يقصمني باسم الهوى، مدمنٌ للقهوة، لكاظم ولإميل سيوران ولفرناندو بيسوا، وللأبجدية المنزوية خلف ظلام الحب، هكذا بكلّ بساطة أنبش عن ما يحول بيني وبين السكون بصخبٍ أكثر وهذا ما فعلتهِ معي من حيث لا تدرين، تجهلين الكثير بقدر ما تُربكين الجميع.

من أين أتيتِ لنا بكلّ هذا الحنق والوجاهة؟ كيف تملّكتِ ذائقة الرجال قبل النساء وأنتِ الغاضبة الثائرة في وجه كلّ رجل! كيف لكِ أن تجعلينا معكِ لا ضدك؟

آه! هنا الكثير من الأسئلة المتدلّية من سقف الذهول سأقطفها لكِ على كلّ نافذة أخرى وأبعثها مع نورسكِ الأنيق البعيد القريب من أنفاسك .

كوني مشاكسة دوماً يا طفلة.

كنتُ أضرب ما يبعثه لي في عرض ذاكرة المسودّات كما كنت أفعل مع كلّ بريد يصلني بذات الغرابة، لم أكن حينها في حالةٍ مزاجيةٍ تسمح لي بمجاراة قلمه، لم أكن سوى في حالة مزرية برؤية وافي أمامي في كلّ مكان كنتُ أهرب اليه منه لأجدني ماثلة أمامه بحذر، لم أكن أعلم بأن هذا البعيد القريب من أنفاسي سيصل يوماً لمبتغاه، وبأن مصادفته الغريبة مع وجعي لم تكن سوى بدايةٍ أخرى أجهلها، لم أعلم حينها بأن الوجع وإن دهسنا عنوة سيعلّمنا يوماً كيف يكون الوقوف على الحياد، بقصةٍ مختلفة، فقط ليكون الحدّ الذي تقف عنده الأحزان التي تحاول جاهدة أن تجتاحنا عُنوة، ليكون الفرحة التي تدسّها فينا الحياة بكلّ كرم من بعد شحيحها معنا، وليكون لنا كلّ ملامح الحنان، وليصبح هو الأسر الذي أوقعني بغمار الفتنة من دونِ أن يعلم.

لم يتفان عن دسّ تلك النوافذ الضوئية بعد كلّ مقال، حتى أدمنت قراءته بغرابة لم أتوقّعها، رغم عدم ردّي عليه، كان هو مستمراً في الكتابة والكتابة لكاتبةٍ قد يراها مغرورة ولا تتواصل مع معجبيها بسهولة.

لماذا ظهر من بعدِ مواجهتي الكلامية مع وافي، ومن بعد رحيلنا الأخير بشقّ الأنفس، كان هو يربّت على قلبي بوجل؟ أتراه كان يشعر بتنهّداتي، ببكائي، بضياعي وخوفي؟ لما كلّ هذا الإصرار

والحصار الذي يطوّقني بـه، ولما يتقاطع مع أقـداري الباكية في هذا الوقت بالـذات؟ لما يحـاول أن يشـنّ حملاتهِ العاطفية فـي وقتٍ لا يعترف فيه الزمن بقلبي المعطوب؟

لذلك اكتفيت من شتاء روما ومن هروبي المنذور بذكراه، ومن الحياة التي ما زالـت تضعني أمامه أم تضعهُ هو أمامـي في كلّ بداية غابرة، لم يكن أمامي سـوى أن أعود لجدة فوراً، لملء كلّ الأوقات المفخخة باللا شيء

فـي كلّ مقـال كنـت أنشـره كان يـزداد عدد القـراء حتـى بات بريدي الإلكترونـي مليئا بثناءاتهم وآرائهم سـواءً كانوا من الرجال أو النساء، فقد كنت سـعيدة جداً بهذا الكم الهائل من المحبة، حدّ أني بدأت أخشى أن أُغبط نفسي عليهم.

ما عدا ذلك اليـوم الذي كتبت فيـه مقالاً بعنـوان: «كانت بداية راقصة».

ها أنا أكتبك كطفلةٍ مشاكسـة كما أسـميتني ذات غرابة، وأنا لا أكتب عن رجلٍ حافية ملامحه أمام وضوح تفاصيلي.

لكن أخبرنـي يا رجُـل الغموض: مـن أي بلادٍ أنـت؟ ومن أي تاريخٍ جئت؟ وكيفَ اسـتطعت أن تعقد صداقة مع نورسـي رغم أنه لا يحبّـذ الغربـاء، ويخشـاهم؟ والأهم كيـف اسـتطعت مجاراته من حيث أجهل؟

أتعلـم أنّ هنالك شـيئاً مـا أثار حنقـي بسـببك، فأنا لـم يقرأني رجل بذلك العمق قط.

لذلـك أخبرنـي كيـف لـكَ أن تقشّـر المبهمـات بذلـك الألق؟ وكيف لكَ أن تحلّق بي نحو ذلك الأفق؟

فأنا لم أختزل لغتي مُسبقاً لرجلٍ دلَف بي نحو فخاخ الأسئلة، وأنا التي لا تحبّذ اللهث الطويل خلف الإستفهامات الحامضة، أصبحتُ الآن أركض نحوها بفضولٍ أمقتهُ.

دائخةٌ بين تفاصيل التفاصيل حدّ تَشرُّبي سطوتك المثيرة على كلّ ما ترمي جنونكَ عليه، ألا تعتقد بأنه آن الأوان لنعقد صفقة عاطفية، نصعد بها نحو اللا منتهى، ثم نهبط مشدوهين بما اقترفناه من جنون الهوى؟

صدّقني فأنا لستُ بحاجةِ رجلٍ يُبهرجني بين قصائده، ويكتُبني بعمقٍ تحسدُني عليه نساء العالم، ما أحتاجه فعلاً هو أن تجود عليّ بكثيرك، فقليلُك لا يُغريني؛ لذلك دع الأبجدية تشهقُنا بمفردها، واسعَ لأن تُروّض تمرّدي على السأم العاطفي قبل أن يُصبح تداول الأحرف بيننا عادة مُملّة.

دائماً بين كرّ وفرّ يجوبُ بنا الإشتياق إلى حيثُ لا نعلم، وكأننا نذوب أكثر فأكثر بين سياق الحنين بكلّ غرابته، واختلافه، فتكرار التفاصيل وحتى الأماكن في غمار الحُب تُطفئ شعلة الشغف، وتجلد نزق الأحلام بروتينٍ مملّ، لذلك دائماً خلف كلّ نهاية باردة كانت بداية راقصة.

«النورسيّة».

نشرتُ ذلك المقال، وأنا أعلم بأنه سيشعر بأنه قد نجح أخيراً، وقد أصابت سهامه موضع الغموض الجميل فيّ.

كنت أعلم بأن بعض القراء سيتعجبون منه، لأنه مقال مختلف عن جميع المقالات الماضية التي كانت تصرخ وتئنّ من وجع الرجل، قد يرونه الآن مقالاً عن ضعف امرأة سحقت تحت وطأة

رجلٍ شامخ، لا يهمّ، ما يهمّ أنني أردت بداية أن ألوّنها كيفما أشاء وأُلبسها ما يحلو لي وأعتقد بأنني نجحت.

* * *

كنتُ بحاجةٍ إلى بدايةٍ جديدة، بداية أنهي بها كلّ ملاحم الأسى دفعةً واحدة، كنتُ بحاجةٍ إلى هزّة عاطفية تعيد إليّ أنفاسي وتوازني، تعيد ترتيبي لبضع شهقات ثم تربكني باجتياحٍ مثير، كنتُ أرغب بالقفز فوق ذاكرة النسيان وأنا أرقص.

لطالما كنتُ أتساءل كيف للحب أن يأتينا على حينِ غرّة من صمت الأحلام وتداعيات السكون ليقلبنا رأساً على عقب؟ كيف لهُ إعادة تشكيلنا بملامحٍ أشد إثارة وحياة؟ لذلك أنا بحاجةٍ لهذا العنفوان، وبحاجةٍ لشهوة السهر والإنتظار الملون، أنا بحاجةٍ أن أبتعد تماماً عن المنطقة الرمادية، لأدخل للزوايا المحظورة بنشوةِ الجنون والتحدي.

فنحنُ لا نتوب من الركض خلف الحُب الضبابيّ مهما سقطنا، أجدنا نعاود التسلّق بتسلسلٍ مربك، لكن حالتي تختلف، فأنا لا أرغب بحبٍ أمكث فيهِ طويلاً، أنا بحاجةٍ لحُبٍ أعقد معه صفقة الكتابة، حب يلهمني بوجعٍ جديد وموسيقى مختلفة، يجعلني أرتاد مقاهي غريبة وأدمن على قهوة بنكهة انتظارٍ جديدة.

أريد غراماً لا سقف له، متجرّداً من ثيابه الفضفاضة والخاوية من الوعود، عارٍ تماماً من الصدق، أرغبُ بكذبةٍ كبرى تكتُبني أو أكتبها أو تكتُبنا بنحيبٍ لا يصمت.

أيوجد رجلٌ مُستعدّ أن يحتوي امرأةً ترتدي الأوراق الباكية، ليتعاطى معها شغف الإلهام لفترةٍ قصيرة؟ حتى تستطيع أن تجدّد

حالتها الكتابية، فيرحل عنها بدونِ وداعٍ أو حبٍ أو حتى جرح! تاركاً لها أضرحة الأبجدية تتبرّك بها كيفما تشاء؟

أو هل يمكنني أن أشعل ثورة الرجل المخادعة، في تعاطي الهوى بكذبةٍ تجعله يصدّق بأنني ساذجة، حتى أتمكّن من دس مخالبي في قلبه، ثم أرحل منتصرة وممتلئة بأبجديةٍ جديدة؟

لكنني أفضّل الإنزلاق في القدر الأول فهو أكثر متعة وإثارة.

كان لابدّ لي أن أبدأ برسالةٍ أخرى تجعله يقرؤني أكثر من مرة، حتى يتعرّف على ملامحي الجديدة، حتى يواصل التماهي بصورةٍ تحرّضني على الكتابة أكثر، كان لابدّ أن أسقطه في جذوة المشاعر المتأججة دون أملٍ في النجاة، كان لابدّ لي أن أخوض الغمار قبلهِ، لكن كيف سأبدأ وهو الوحيد الذي أجاد تحليلي بمنطقِ مربك، كيف لرجلٍ على مستوى عال من الزهو والزخم، قراءة امرأة مراوغة خلف أبجديةٍ حدقة وبأحرف مدروسة كنت اخفي بينها تجاعيد قلبي، وأخرس أنين وجعي، كيف لي كتابة شيء مغاير وهو يعلم متى تصبح ملامح أحرفي كاذبة أو صادقة بين حرف وحرف؟ كيف لي الهرب من الأسطر الضيقة والركض بعيداً عن مرمى سطوته؟ لذلك سأحاول أن أكون شبه صادقة ونصف كاذبة، هكذا سأجعله يضيع بين الأنصاف حتى يجمعني بجسدٍ واحد مكتمل.

- ها أنا احشر الكلام في سياق بداية جديدة لا أعلم ماهيّتها، لأبعث له هذا البريد:

إلى رجُل الأحرف الحبلى والأقنية القاتمة، لا أعلم لما أشعر بأنك كذلك! أيمكن لأن هالتك الحالكة أصابتني بشيءٍ من العمى؟ أخبرني يا هذا كيف لك أن تشذب الذكرى دون الرجوع للتبرّك

بأضرحتها؟ من أين لكَ تلك الذاكرة؟ أتعلم بأنني منذ الأمد أجوب حول الأسئلة وأنا فارغة من الأجوبة! ألك أن تحقنني بالنسيان؟

بعثتها وأنا مؤمنة بأنني سأفتح بيننا الجدال العقيم على مصراعيه، لكنها رغبة أنثى كانت تحتضر وها هي بدأت تستردّ من أبجديته الحياة، كان لابدّ له أن يجود من أجلي ببعضٍ من الأحرف، والكثير من الفلسفة حتى أسترد عافيتي.

لم أصادف رجلاً مثله، حتى وافي لم يكن شاعراً ولا حتى محبّاً للأدب، كان جاهلاً بمغارات الأبجدية وكيف تكون قداسة الكلمات بين الأسطر، أما هذا الرجل فهو قادر على ملئي بجزيل اللغة من حيث يجهل.

بدأت ألغي فهمي المشروخ بأن الكاتبة قد تعشق من يلامس قلبها، بل الكاتبة تعشق وتدمن من يجاريها أدباً وثراءً لغوياً فاحشاً، تسعى لوجاهة الحب بالأحرف، يستهويها الصمت الطويل، والعناق بين الأسطر، هكذا جميع التفاصيل المحمومة تصبح أشد اثارة تحت اللغة. ياه !لقد أصبح يتكتّل بداخلي بألف منطقٍ ومنطق، وأنا لم أتعاطى مع رسائله، واكتفيت طيلة تلك الأشهر بالصمت طويل.

قطع أزيز أفكاري برسالته القادمة من أقصى الوجد، كاتباً فيها:

- «إلى طفلتي البعيدة القريبة؟ هكذا شعرت بأنكِ طفلتي الخائفة الراكضة من صهوة الخوف لذراعيّ تطالبيني بالسلام، لكِ بعضي وكلّي، تعالي إليّ لأخبرك كيف تصبح لأسئلتكِ أجوبة، وكيف نقشر علامات الإستفهام من بين المفردات، فلتنصتي جيداً واحذري أن تصابي في منتصف الكلام بدوخة الهوى! لا تعقدي حاجبيكِ ولا تجعلي علامات التعجّب ترسم على وجهك تجاعيد لا

أحبّها، ها أنا أخبرك بالكثير القليل الذي أختزله في ذاكرتي المعتّقة.

أولاً: كيف لنا أن ننسلخ من ذاكرتنا وكيف لنا أن نعبر تلك الاحداث بجرأةٍ وتهكّم؟ ألم نعش تفاصيلها، ألم نضحك حدّ السعال من جنونها؟

ذكّرتيني بعبارة لابراهيم نصرالله:

«لاهثاً أركض،

قاطعاً العمر بين سؤال وآخر،

باحثاً عن إجابة أستريح على عتباتها قليلاً لأواصل اسئلتي».

وقال في وقت آخر:

«هناك لحظة يجب أن تتوقّف فيها عن الهرب، لا يمكن أن تركُض إلى ما لا نهاية، لا يمكن أن تبقى بلا لسانٍ إلى الأبد».

واجهي ذاكرتكِ يا طفلتي حدّ البكاء، حدّ اللهث الطويل، لا تهربي منها ولا تدعيها تلتفّ حول مستقبلك أكثر، لا تطرقي أبواب الأسئلة كثيراً، ولا تنتظري الأجوبة الضمنية، لأننا دوماً عندما نرغب بشيء بشدة نجده يأتينا متمايلٌ مزهوٌّ بنفسه، لذلك لا تعرجي خلف المبهمات المفخّخة بالألم، أما بالنسبة لذاكرتي فهي صلدة تداولت الحُب وعقدت معي صفقة ذات انهيار حدّ الاكتواء ظلماً، ثم صحوت على اللا شيء، هكذا شعرت كأنني رجل من فراغٍ عائم، أطفو دون وجهة وأكتب بدون أحرف وأتحدّث بصمت، لا تتعجّبي من تناقضي فلم أعد أذكر شبابي، لم أعش سوى فرحتين وحب، وإغماءة من لقاءٍ أول وعناقٍ قصير، والباقي كبرت فجأة حدّ التجعّد، هكذا يا صغيرتي تلقّينا الذكريات الموبوءة فوق الأرصفة لنتسوّل الدفء والحب، والسلام، لذلك كوني أشجع مني وانقري فوق

الذاكرة بشجاعة.

تعالي اختبئي تحت كنف المواجهة وأخبريني ما الذي حل بقلبك؟

- قال السياب وهو يصف لكَ حال قلبي:

«أأمسيت أستحضر الذكريات وما كان بالأمس كلّ الحياة؟ أضاعت حياتي؟

أغابَ الغرام، أماتت على الأغنيات الشفاه؟.

قد تتوقّف الأحرف عنده وأكتفي هنا.

لم أعلم بأنه سيُجيبني بشيء لم أتوقّعه وكأنه يقفز بين أنفاسي ليتلقّفني بوتيرةٍ مربكة.

- بل ستتوقّف اللغة عند عبارة لوركا وهي كفيلة بذلك:

«نامي بلا افكار ولكن استيقظي حينَ تموت آخر قبلة من شفتي».

وكأن جولتنا ترفض الصمت، ترفض الإستسلام، شيءٌ معه يجعلني أشعر بكينونتي الضائعة، شيءٌ يمسح عن ملامحي الأسى، شيءٌ يخبرني بأن جرحي سيلتئم وشيءٌ ينبّهني بكارثة الحب الإفتراضي، لكن لا أريد أي مؤثّرات قد تضيف اليّ القلق، هكذا أريد أن أشرد بحقول المدى ممسكة بيده ولا شيء غير الخيال سيحضر بيننا.

حينها، ولأول مرة شعرت بأن هذا النزق الذي تورّطت فيه ما هو إلا البداية فقط، لذلك كان اهتمامه المكثّف لحرفي، لوجودي ولسبب غيابي الطويل يروقني جداً.

* * *

سأشرّع لقلبي الحُب من جديد، سأقطع له تذكرة لموعد غرامي من خلف الشاشات، سأجعله يتعثّر بين حرفٍ وشهقة، سنعلو ونعلو حتى نعانق قمم الغرام لنهبط بجسدٍ واحد وقلبٍ واحد، لن نلجأ لسدرة المنتهى ولن يشير لنا الفراق بأصبعه بأن نجثو له مرغمين، هذه المرة سأكون أذكى وأشهى وسأحافظ على زمام الحُب.

التف حول جيدي بكثير من التفاصيل، إملأني بك حدّ التكاثر والرقص بين أوردتي، اصحبني بين نفسٍ ونفس، واسكني كمدينةٍ شددت رحالك إليها بغرض الإستقرار، إفعلها من أجلي ولا تخذلني، كن أنت من أقف عنده هذه المرة، مرّر حبك بين ثنايا خوفي وتمتم لمسامعي بالأمان.

تقدّمتَ نحوي بخطواتٍ بطيئة كما زعمت، لكنها كانت تقتلع مني في كلّ رسالة بريدية السكون، أنت قادمٌ من المجهول حتى تدسّ فيّ الجنون والحمم الكلامية، لم أهوَ المشادة في اللغة إلا معك، تجيد يا مراد استفزاز حرفي الأنثوي، تجيد ابتكار التفاصيل والأحداث بيننا، كنت جاهلة بل ساذجة حين تجاهلتك يا أحاديّ الوجود، كنت حاقدة وخائفة من موريات الرجال وفسوقهم في الحب.

ها أنا بدأت أشفى من حب كان مائل القوام، ها أنا بدأت أحلّق كفراشة بين النوافذ الضوئية، وبدأت أحقّق ما أطمح له من نجاح، بدأ مراد يتكاثر ويتفشى بين ثقوب عالمي ليملأها بالإلهام المثير، بدأ ذلك الرجل يحصد معي الطموح وكأنه في الفرح والوجع أنا، لم يلبث حتى امتزج بي للحدّ الذي أصبح فيه يرتّب لي الفوضى العارمة التي بداخلي من عزلة، خوف، انتظار، حنين

ونحيب، إلى أهازيج من نبوءات الضحك وموسيقى من صمتٍ مثير، أصبح كقنديلِ ليلٍ يضيء لي عتمتي في الليالي الشائية، يبحث معي عن فجرٍ يشهق البياض، كنورس نتشبّث بأجنحته ونحلّق نحو اللا وعي، نعقد حول وميض السهر الإتفاقات ونتبادل عمق الأسرار، لينتهي بنا المطاف بوعدك الذي يحدّد من وجهته وجهتي إليك، تعدني بأنّ إيقاع قلبينا لن يكفّ عن تلاوة الألحان، ولن نهرع لممرات الحياة البائسة ما دمنا نتعالى ونتعالى فوق كلّ ضجرٍ وخذلان، لن ننشطر من القصيدة بخنوع، ولن نذوب كشمعةٍ ضاجعها الإحتراق، لن ننصهر طالما نحن نندلع بين كلّ وتيرةٍ صامتة بصراخٍ من تلافيف الهوى، لذلك قصمتني بالحب حين قلت: إششش، تنفّسي مني يا نورسيّة الحياة، وازفري الماضي بداخلي، لا تستحقّي الكدر لذلك سأجعلك دوماً في خدر.

المثير في علاقتنا أننا أخذنا من شرعية القدر وقتاً لخشوعنا للحُب، للسهر، وللأسئلة الجريئة والأسرار المفخّخة، شرط أن لا نعلن توبتنا على أي ذنبٍ سنقترفه، ما عدا ذنوبنا القديمة فنحن قد اغتسلنا منها مُسبقاً.

* * *

مرّت بي الأيام سريعاً من آخر مقال نشرته، وذلك البعيد القريب إلى الآن لم يبعث لي ماكنت أنتظره، هل أصابه الغرور؟ وهل ابتلع الطعم حقاً وبات يحسِبني أدمنته؟ وهل أنا فعلاً كذلك؟ لماذا جعلته يقرؤني هذه المرة بكلّ وضوحٍ وعري؟ وهل قرأني مرّة بغيرِ ذلك؟ لطالما كان يُقلّبني كأوراق الخريف بين أصابعه.

لم أتمالك دوخة الأسئلة والندم والإنتظار تلك، لابدّ أن أقوم

بحماقةٍ أكبر وأخطر، وقد تجرفني للهاوية، لكنني لابد أن أقوم بها قبل أن أصاب بنوبة الندم.

نقرتُ فوق الأحرف بارتباكٍ، وكتبت:

- إليكَ أيها البعيد الذي لا يمكن أن يصبح قريباً.

من طفلةٍ ناضجة وليست مشاكسة، ألا تحب السلام يا رجُل؟ أو قد تكون ثائراً ضد النساء أيضاَ! مُتأكدة بأنك قد قرأت ما نشرته قبل أيام، فكيف لك أن تفوّت فرصة كهذه بعدم التعقيب عليها؟ أم أخذك الغرور ككلّ الرجال؟ عموماً هو نزعةٌ وَصِفَةٌ تلتصقان بكم على مر العصور.

في النهاية وقبل البداية، ذلك النص كان ردّاً على جميع ماكنت تبعثه لي دفعةً واحدة، فأنا لا أتجاهل قارئاً يقرؤني عن كثب، وهذا أقلّ شيء أقدّمه له وأكتبه كما يرغب. «نورسية».

عندما كتبت لم أتجاهل قارئاً يقرؤني عن كثب، كنت أريد أن أشعر بالسلام الذي أربكه ذلك الغريب، كنت أريده أن يعلم بأن ذلك النص لم يكن سوى رد جميل لما يفعله في سبيل قراءتي.

لم أتوقّع بأن يأتيني الرد منه سريعاً، هكذا وكأنه على شفا الإنتظار، وكأنه كان واثقاً بأنني سأبعث له ما يرضي لهثه الطويل، وفي هذه الساعة المتأخرة من الليل بالذات، وكأننا أردنا الدخول إلى الحكايات الصامتة بغرابة الليل ودكنتهُ، حتى نضيئه برسائلنا الإلكترونية.

- إلى نورسيّة الهوى والطفلة الغاضبة:

لم أنتِ بهذا القدر من الإرتباك؟

لم أنتِ خائفة؟ لمَ تتنهّدي؟

إششش، إهدئي يا طفلة!

وفي النهاية وقبل البداية!!

أووووه هذا تصريح ضمنيّ منكِ، بأنه ستكون بيننا بداية يوماً ما، أو قد نكون بدأنا بالسير فيها فعلاً ولكن بخطى متردّدة!!

وبالنسبة للنهاياتِ، لا أعترف بالنهايات الراقصة على الذكريات، لذلك ستبقى البدايات مغرية بالنسبةِ لي.

لم أكن بحاجةِ ذلك النص، ولم أكن بحاجة ذلك النور الذي جعلني مضيئاً وعارياً أمام الأعين، لم أكن بحاجة لشيءٍ من كاتبة تثير حنق الرجال لتكتب نصّاً جديداً قد يفتح الغرابة على مصراعيها أمام قُرّائها.

وسيطرحون الأسئلة، لماذا غيّرت أسلوبها؟ ما السبب وهل وقعت....؟

لن أكملها لأنكِ ستدركين ما أقصده بين السطور، لذلك لم أقم بالرد، ليس من باب الغرور يا طفلة، بل لأنني لا أريدكِ أن تغيّري مجرى ما تطرحينه، من أجل الرد على غريبٍ رغم قربي منكِ.

اممم نعم قريب منكِ، فأنا بدأت بالسير والركض وحتى الرقص داخلِ عقلكِ الصغير، منذ أول رسالة إلكترونية بعثتها لكِ وتحديداً قبل خمسة أشهر.

يااااه، أشهر وأنا أبعث لكِ بشكلٍ مستمرّ ولم تكتبي لي سوى مرة واحدة، فأنا لن أحسب النص الذي نشرتيه من أجل الرد عليّ، بل سأكتفي بهذه الرسالة الخاصة فهي ملكي أنا وكنتِ تقصدينني بخصوصيتها من الحرف الأول وحتى الرمق الأخير منها، بعكس

ما جاء في ذلك النص الذي كان يخصّني وأصبح ملكاً للجميع، أعذري رجولةً تريد منكِ الخصوصية فهذا يرضيني أكثر.

إنها الرابعة فجراً، لا يليق بكاتبتي السهر، نامي يا صغيرة من أجل عينيكِ.

الغريب القريب لقلبكِ.

شهقة!!

كيفَ يجرؤ، كيف يجرؤ على دهس كبريائي بتلك الثقة؟

بعثتُ له رسالة أخرى وأنا متجرّدة من العقل، كان يكفيني بأني أصبحت تحت وطأة الدهشة حتى تفعل بي ما تفعله.

- من أي الرجالِ أنت؟؟

- من حُقبة أحاديي الوجود.

تجاهلتهُ حينها وأنا أشتعل غيظاً لا أعلم كيف حطّ على عالمي بتلك الطريقة المستفزّة وكيف أصبح بعدها يتقاسم معي الأحلام، الحياة، الأمنيات، السهر والقهوة وعشق النوارس أيضاً.

هه النوارس التي لم تحبّها يا وافي قط ولم تحبّها حتى من أجلي.

كيفَ أحببتك وأنت أقلّ علماً؟ أقلّ صبراً، حباً، صدقاً وأقلّ وفاءاً؟

كيف جرفت شموخي خلفك حتى بدأت بلعق ما يذكّرني بك وأنا أطلب منه أن يعيدك لي من أقصاك؟

فقط من بعد هذه المناورة الكلامية الفارهة بالغموض، والعنفوان قرّرت الإبتعاد عن مجهره، قرّرت الإختفاء قليلاً حتى أعيد ترتيب أفكاري، أنفاسي وأوراقي، فرجلٌ مثله يجيد إصابة

الهدف بفلسفته وجرأته، وامرأة مثلي بضعفها واحتمائها باللغة أمر غير كافٍ حتى تثير معركة الأدب من عمقها، وبانتصارٍ يحسب لصالحها، لذلك لابد من المساحات الفارغة من حرفي ومشاعري.

* * *

مضى على آخر نص نشرته ما يقارب الشهر، فهذه أول مرة لا أنشر شيئاً في هذه المدة، لا أعلم ما الذي أصابني، أشعر بأن عالمي وغموضي أصبحا على مرمى الوضوح من الجميع، هكذا بسهولة فُضِح أمري وحتى إن كان ذلك أمام قارئ واحد فقط، لماذا هو بالذات أصبح يقرؤني بتفان كبير؟ لماذا يهتمّ بنبش الأحرف، والركض خلف نواقيس الذكريات التي أحاول أن أتجرّد منها بأي صورةٍ كانت!

مع زحمة المشاعر بداخلي وغرابة ما أشعر بهِ، ومن بعد الفوضى التي إلى الآن لم أتجاوزها برؤية وافي في روما، وظهور هذا الرجل المجهول في بريدي في آخر شهر لي في إيطاليا وإلى الآن يرفض الخروج منه، صِدقاً هذا التزامن الغريب بين رؤية وافي واجتياح غريب الأطوار لي، أصبح هذا أمر يصيبني بالدهشة، أيكون هذا الغريب هو نجاتي من كلّ شوائب وافي؟ آه أصابني الصداع النصفي مرة أخرى وإلى الآن لم يهدأ هاتفي من اتصال مدير الصحيفة والكثير من الرسائل النصية تصلني عليهِ سواء من صديقاتي أو حتى من الإذاعة فأنا لابدّ لي أن أبدء في خوض التدريب الإذاعي فقريباً سأصبح مذيعة لبرنامج اجتماعي يناقش بعض مشاكل الشباب والكثير من المواضيع العاطفية من نصوص وقصائد، أخبروني بأنه سيكون معي مذيع يتقاسم معي الوقت

والأفكار فمن الصعب أن أحمل على عاتقي برنامج مدته ثلاث ساعات وأكون فيه بمفردي، منذ هذا الخبر وأنا خائفة من المذيع الذي سيشاطرني البرنامج، كيف ستكون أفكاره وكيف ستكون شخصيته وهل ستصبح بيننا كيمياء مثيرة تجعلنا نبدع على الهواء أم سأشعر بأنني مضطرة لمجاراته والقفز على كلّ ما يقوله حتى أثبت نفسي رغماً عنه، لكن أتمنى ان تكون روحه مهذّبة ومثقّفاً حتى نستطيع البدء بكلّ قوة.

شعرتُ لوهلة بأنه يتوجب عليّ أن أكفّ عن هذا الإختباء، ورغم الفوضى التي بداخل قلبي الدائخ حيرة يجب أن أنهض من جديد.

تنفّستُ الصعداء قدر المستطاع وأنا أجلب جهازي المحمول عن مكتبي، وبمجرّد أن رأتني سلحفاتي بدأت بالتخبّط ومحاولة تسلّق الحوض والوقوف بفرحة، هل لأنها جائعة؟ أم لأنها فعلاً اشتاقت لأوقاتي معها وأنا أتأمّلها بشرود؟ لا يهم، المهم أنها حقنتني بالحياة، وذكّرتني بأنني أحيا واقعاً لابد من مجاراته رغماً عن أنف الفتور، انزويت في أقصى الغرفة يميناً وتحديداً بجوار شرفتي التي تطلّ على الأحلام النائمة بين أزقّة حي السلامة في جدة.

هذه المدينة الصاخبة التي لا ينام لها عين أو قلب، لم تكن جدة مدينة أسكنها وتسكنني فقط، بل كانت كلّ ملامحي، قلقي، وشغفي بالحياة وبالطموح، تماماً كظهورها متحدّيةً للمدن وللدول بأنها الأفضل، كانت لنا ذات النزعة وذات الغضب والقلق من الفشل أمام أول تحدٍ قد يواجه قلاعنا المؤصدة، كنا كمدينة في

وسطها مدينة فمدينة أصغر منها ثم بداخلها لا تجد سوى الجراح، وبعض من الذكريات المهترئة، أكنت أعبرها أم كانت تعبرني، في كلّ سطر وفي كلّ ذكرى تلوح لي من بحرها، من هوائها المتقلّب سريعاً؟ لطالما كانت تدهشني أجواؤها ومازالت تفعل بي كذلك.

جدة قد تكون المدينة الوحيدة في المملكة التي تستطيع أن تبدّل في اليوم الواحد طقسها بطقس، وكأنها تنزع ثيابها الفاخرة لترتدي ثياباً اكثر أناقة، فتكون بحلّتها الطبيعية والبسيطة، لكنها في اليوم الواحد لها أكثر من وجه، وأكثر من جسد وسماء مختلفة، ليتني أصبح مثلها أستطيع نزع ذاكرتي بذاكرة ملوّنة اخرى، مودّعة سادية اللون القاتم الذي تمدّد وتفشّى في ماضيّ السابق.

جدة كيف لكِ أن تبتسمي في كلّ مرة باكية تصيب طرقاتك، أعماقك، إشاراتك وحدود بحارك بالأذى؟ كيف لِك أن تستبدلي مزاجك بطقوس تأسر ساكنيكِ، من أين لكِ قدرة خلق الفرح رغم السيول والذنب الذي اقترف ضدك؟ ما زلتِ أنثى جامحة تسير بعنفوانٍ يثير شهية الجميع في معرفة سرّك، ومن بينهم أنا يا شبيهتي، لم أر بكائكِ إلا في الليال العجاف، وحين بكيتِ ذلك اليوم ابتلعتيننا معكِ، استطعتِ أن تثأري من الجميع، وأن تعلني الحداد لأيام ولأسابيع، كانت هي الأوجع عليكِ وعلينا، لامسنا نحيبك حدّ الفزع والموت، أيمكنكِ أن تتحوّلي في أطوارك الجديدة لامرأة مجعّدة بالشر؟ ألكِ القدرة على دهس أحلام من استوطنكِ وشدّ رحاله إليكِ؟ أيمكنك إدارة ظهرك بوجه العالمين، لتعلني عن قيام الطوفان بأحشائكِ؟

جميع تلك الأسئلة وأكثر منها جعلتنا نطرق خلفها ألف قلق

وخوف، حتى أدهشتِنا من بعدها بأيام بأن ذاكرتكِ أصبحت أكثر فتوّة ورغبة في الحياة، وكأنكِ لم تُغرقي أحياءكِ، وشعبك، فبكلّ سادية طقوسك نفضتِ عنكِ المصائب، لتعلني عن يومٍ آخر بأجواءٍ من باريس! وليالٍ من فيينّا وجزيل الحب من روما، وفتنة دبلن، هكذا مزجتِ في رحمكِ كلّ الدول لتلدي أياماً تمحو تلك الفجيعة من ذاكرتنا، ونجحتِ مرةً أخرى في ذلك.

أعتقد بأن سبب قوتك، هو هزالة قوامكِ، وإثارة الحياة بين أقنيتك وشوارعك، حتى المنازل المترامية على أطرافك أكثر حبّا، رغم رداءة ألوانها، إلا إنها انصبغت بمجدك وهذا الأهم.

لكن في شارعنا هذا، الجميع ينام مبكراً، ماعدا العشاق الذين تضيء نوافذهم حباً.

أووه ما بالي!! فقد حان الوقت للخروج من واقعي والدخول لعالمي الإفتراضي، لأُبهة نجاحي وأحلامي المعلّقة خلف الأسطر، كفى إهمالاً يا سُكّر وعودي أقوى لقرّائك، لن أدع ذلك المجهول القابع خلف بريدي يتمكّن مني.

حاولت تهدئة جموح قلقي الذي كان يخبرني بأنني سأجد منه الكثير من الرسائل البريدية.

وها أنا أنقر فوق جهازي لأدخل كلمة المرور والبريد، لأصبح على شفا الدهشة!!

عشر رسائل منه!!

وسبعون من القراء!!

وقفت تلك الليلة يا مراد أمام كلّ رسالة منك، وأنا أشعر بخوفٍ يجوس بي، أخذتني القوة من سكرتي لأشرّع الفضول والقلق

على أول رسالة بعثتها لي، حسب التاريخ الموضّح أمامي وتحديداً في:

2013-3-15

لأقرأ العنوان «إلى النورسيّة».

- ما بال نصّك تأخّر هذه المرة؟ ما بال الأحرف لا تلفظك في وقت نشر عامودكِ الأسبوعيّ كما هو مفترض والمتعارف عليه؟ أم تغيّر يوم زاويتكِ؟

أو هل انتقلت بكِ الأحلام لصحيفةٍ أخرى؟

الغريب الذي ما زال يبحث عنكِ!

وكانت الرسالة الثانية «إلى الغائبة».

وهذا الأسبوع الثاني ولم تكتبي أيضاً وحتى محرّكات البحث لا تجلبكِ لي، لو انتقلتِ لصحيفة أخرى كنت لابدّ سأجد نصّكِ فيها، أو سيشي بكِ محرّك البحث، لكن ضرب توقعاتي طولُ اختفائك.

أين أنتِ يا طفلة؟؟

الغريب ما زال يبحث عنكِ.

وغير هذه الرسالتين كانت بقية الرسائل مُعلقة تنتظر قراءتها بعمق، لكن الرسالة قبل الأخيرة منك يا مراد عقدت بداخلي مشاعر مخيفة، ولا أعلم كيف سيكون وقع الرسالة الأخيرة عليّ، طالما جعلتني هذه الرسالة مصلوبة أمام الدهشة!

«إلى النورسيّة الهاربة».

هذا هو الأسبوع الرابع أي أنه شهر كامل وأنتِ ما زلتِ تجيدين الإختباء ببراعة! أخبريني بماذا تبرعين أيضاً غير الإختباء؟

أي كاتبةٍ أنتِ؟ وأي مغرورة أنتِ؟

ما هذه القوة التي تقتلعين بها جذوة الإهتمام؟! ألم تعتادي على محبّة القراء لكِ؟ أم أنكِ جبانة وضعيفة من المواجهة؟

أأخبركِ بسرّ؟ أنا أعلم أنّكِ تجوبين أرصفة الأحلام بشقّ الأنفس، أنا أعلم بأنكِ تشعرين بالهوان وبالخوف جداً وتبحثين عن قشّة تشطب لكِ مرارة هذه الأيام بمهارة، لذلك اكتفيتِ بالركض خلف مضمار الغياب وحيدة، لكن وحدتكِ هذه ليست ملكك،

أتفهمين؟؟

أنتِ بإحساسكِ، بقلمكِ ملكٌ للقرّاء الذين اعتادوا على قراءتكِ في صباح كلّ خميس مع القهوة والكعك المحلّى، اعتادوا أن تضربي أخماسهم بأسداسهم بفتنة تثيرهم، لذلك عودي إليهم قبل أن ينطفئ فتيل اهتمامهم، لكن لن ينطفئ قنديل اشتعل بداخلي من أجلك.

الغائب الذي سيعيدكِ لمجدك.

* * *

لا أعلم لمَ أخترته من بين الكُتّاب كي ينتصفني، لكنني أردت مباغتة الحب باختياري المسبق، لن أسمح له هذه المرة أن يختار لي رجلي، سأقوم بذلك بمفردي وبمعاونة قلبي الذائب خلف قصة تجرّدت من النهاية الفاخرة.

سأقوم بمخاطرة كبرى وقد أقتل منذ بدايتها وأتبخّر، لكن لابدّ لي من المجازفة حتى أنصهر كتابياً بتوهّج آخر، أنا على يقين من أنه سيرفع سقف الكتابة لديّ وسيشاطرني لعبة اللغة، ألم يكن حريصاً على قراءتي حرفاً بحرف وتحليليّاً طيلة ذلك الوقت، إذاً

سأجعل تلك المسافات الشاسعة بيننا تقترب محمّلة معها بحقولِ الرمّان والتوليب، ستواجهنا تحدّيات عظمى، ولابدّ لي من تهيئة المحيط من حولي حتى نكون في أتم استعداد للمنازلة الكتابية.

لن أقبل برجلٍ يهوى الصمت بين الأحرف، لن أقبل برجل لا يهوى المخاطرة، هذه المرة سأحوّله لشيء لن يسعه أن يتعرّف على نفسه فيهِ إلا بين الأسطرِ فقط.

وها أنا بدأت أنجح في تحريك التفاصيل لصالحي، لكني على يقين بأنه سينقلب ضدي قريباً، فقط لأنني رأيته صامداً عند عتبة بريدي، رغم الجفاف والسكون المخيف، إلا انه كان يشعل الإنارات الخافتة كلّ ليلة، ألا يستحقّ هذا الرجل أن أضرب له مع القدر فرصة حبٍ افتراضية لا ينساها أو لا أنساها أو لن ننساها سوياً؟!! لذلك لم أختره سدى.

لن نخسر سوى أن نملأ تلك المساحات الشاسعة من البياض بألوانٍ لم نتخيّلها يوماً، سوى أن نرتاد تفاصيل المكان في لا مكان لنا إلا بين الأسطر، وأن نغري الوقت لصالحنا، في وقتٍ لا يعترف الزمن بحبّنا، فنحن العشاق الافتراضيون، كبقيّة الحمقى خلف الشاشات، لكننا تواطأنا مع الأدب حتى نرتدي الثقافة كلغةٍ تجمع عاشقين في مدينةٍ من ضوء افتراضي.

تماماً كما كتبتها أحلام مستغانمي على لسانِ بطلتها الورقيّة وهي دائخة بالحب في (فوضى الحواس).

«كيف يمكن لامرأةٍ أن تقاوم رجلاً ثملاً، بهذا القدر من الكبرياء؟».

لذلك لا أريد مصافحة ماضيه بشيء، ولا أريده أن يحاول

النبش تحت مسمّى الحب عن ماضيّ، لن أكشف الستار، ولن أحاول تعريته من غموضه، من الأفضل أن أحافظ على أبهة الغرام الإفتراضي، حتى لا يختلط بالحب الواقعي بشيءٍ من الفتور والسأم العاطفيّ.

لم يُكلّفني ذلك سوى أشهرٍ، حتى وجدتني ألتفّ حول غمارِ تفاصيلٍ، لا أعلم ماهيّتها بدأبٍ غريب، للحدّ الذي أختارهُ هو من بين حشد الكُتّاب، فقط ليكون رجُلي للأبدية العقيمة.

سرعان ما أخذتُه لدائرتي، حتى أصبحَ كاتباً بين جملةٍ ورسالة، أو يُمكن أنه كان على علم بما أخطّط له وتركني أُشكّلُه كيفما أريد، دونَ أي اعتراضٍ منه؟ فبعض الرجال يرتدونَ أقنعة الوداعة والإهتمام الشاهق فقط حتى ينسابوا بين المشاعر بذكاءٍ وخفة، لينقضّوا سريعاً حول جثث الحمقاوات بمهزلةٍ عاطفيّة تتجمّل لها الذكريات، لذلك لم يكن يهمّني إن أعلن انقلابهُ أم لا، المهم أن يكونَ مطيعاً في هذه الفترة.

* * *

أما رسالتك الأخيرة وتحديداً كما موضح أمامي أنك بعثتها عند الساعة الثالثة فجراً ليلة البارحة، لمَ شعرت بضعفك فيها؟ لماذا تحاول أن تقتحمني بطريقةٍ لذيذة وجريئة جداً؟ ما سرُّك يا رجُل الأحلام والغمام؟

فآخر رسالة منك كان لها وقع مميّز ومختلف على قلبي، الذي بدأ يتشرب مشاعر لم يعهدها، بدأت يا رجُل تزحف حول عالمي وتتلوّن كالحرباء بألف لونٍ ولون، حدّ أنك وضعتني بين قاب الدهشة وقاب الإرتباك.

فتحت تلك الرسالة في ذاك اليوم البارد، رغم اعتدال طقس جدة في ذلك الفصل من السنة، إلا إني كنتُ أشهق حدّ التجمّد، فأطرافي تيبّست قلقاً عند قراءة أول كلمة من رسالتك!.

إلى سُكّريتي:

- أرجوكِ لا تتعجّبي من العنوان السابق ولا تندهشي من ياء الملكية، فأنا قد عنيتُها في حين جهلكِ بها، وها هي الآن قد انقشع عنها الضباب

فجزيل الشوق إليكِ بدأ يفقد صبره، رغم أنّ صفة الصبر لا تتجزأ مني، لكني بدأت أسقط من الهاوية خوفاً، لا أريد قراءتك لكن ابعثي لي على الأقل (نقطة) تتوسّط صفحة قاحلة من البياض، لا يهمّ المهمّ أن تُهدهدي لي خوفي عليكِ، حتى أستطيع أن أعيد جمع شتاتي من جديد.

أم يروقُ لكِ رؤية الرجال وهم يتساقطون كأوراقِ الخريف أمامكِ؟!

أخ منكِ، صدّقيني يا طفلة فأنا قد نضجت في هذا الغياب، وأعترف بأنكِ قد تكونين أصبحتِ أكبر سنّاً، وأكثر فتنة، لكن إن كان سكونكِ سببه لهثي المستمر خلف نصوصكِ ومقالاتكِ، سأعدكِ أن أكتفي بعودتكِ وأرحل حينها صامتاً، كما كنتُ أفعل قبل التواصل معكِ.

فقط عودي وسأختفي أنا.

دعينا نتبادل الأدوار قليلاً، ألا تعتقدي بأنها لعبة جميلة؟! وقد تروق لكِ، فأنتِ سيدة الغياب وهذا هو اسمكِ الجديد.

صدّقيني إن لم تعودي خلال أسبوع سأتصرّف سريعاً، وسأجد

طريقة تصلني بكِ عوضاً عن هذه النافذة الخرساء.

لأنكِ أسرفتِ بالغياب، وجرّدتِ خلفكِ ألف سؤالٍ وقلق.!

الغائب الذي سيصل إليك، إن لم تعودي إلى مجدكِ المنتظر.

* * *

يااه الغائب الذي سيصل إليكِ!!

لذيذةٌ جداً هـذه العبارة، بكلّ ذلك الزخم انسكبت داخل قلبي مباشرة، حينها يا مراد لا أعلم ماذا أصابني تحديداً، فهذه هي الربكة الأولى والدهشة الأولى والشهقة التي تسبق تلاحق الجنون.

ما زلـتُ أشـعر بغرابة مـا بعثتـه، ما زلـت أنتفـض شـوقاً لكلّ بدايـة جمعتني بك، إلى الآن أتهجّى اشـتعال الغرام الـذي حقنته في أحلامي اليابسة بجلل.

لا أعلم كيف ركلتُ كلّ ذاك الغموض والإنزواء خلف الغياب المبجّل بسـكوني، فقـط لأرد عليّـك على حيـنِ غرة، لـم أخف من ذلك التحـدي أو التهديد المثير حتى أردّ عليك، بـل لرغبة خالجتني بضراوة مخيفة، أن أرفع من سقف جريمة الأدب بيننا.

لذلك كتبتُ لك:

- «إلى الغائب الذي يهوى التحدي:

ما كلّ هذا الإهتمام يا رجُل؟

وما هذه الوتيرة التي تتصاعد بين أحرفك بحيرة؟ ألا تعتقد بأنّ هذا الإقتحام اللغويّ، قـد يُعتبر تبجّحاً على خلـوةِ كاتبة، قَطعت لها الحياة فترة راحة؟!

أو قد تكون استراحة محارب؟ لماذا تتكتّل وتتبخّر خلف أزيز الأبجدية؟

على كلّ حال لا عليك فهي مجرد مقالات، تأخذ مني حفنة كبيرة من الإحساس، العتب، السهر والألم، فقط حتى تقرأه باستمتاعٍ طاعن، لذلك ألا يحقّ لي الإختفاء قليلاً؟

أم أني امرأة من حديد؟ كلّ ما عليها هو الصمود أمام انهيارات المشاعر!

فخلف بهو الأبجدية نبتدع الحكايا لنتألم، لنحبّ ولنفرح ولننتظر، أخبرني أي الحكايا تشدّك؟

فأنا لا أكتب إلا الموجع منها، ليس لشيء، فقط لأنها ستبقى بالنسبةِ لي هي الأصدق.

لذلك أنا بحاجة إلى الكثير من الألم حتى أكتب، فأنا ما زلت على قيد الأنفاس، لا داعي لاقتحامك عالمي بهذه الذروة المربكة.

وعلى شاكلة المقالات سأعود قريباً لذات الصحيفة، وبمقالٍ جديد، لذلك لا تخشى عليّ من أسنة الغياب فقد أعود أقوى.

«نورسية الحرف».

* * *

منذ تكرار تلك الرسائل البريدية بشكل عشوائي، حتى لبثت تأخذ مجراها بوتيرةٍ ثابتة كل يوم، وكأنها تُخبرنا بأن وقت الغرام لا يشرّع أبوابه الا بعد منتصف الليل، لكم أن تسهروا ولكم أن تتركوه وحيداً، يأخذنا اليوم برمّته بين دراسةٍ وأعمال كثيرة، فنلتقي دون موعد مسبق عند عتبة منتصف الشوق، وكما أطلقَ عليه مسبقاً بأنه وقت العفاريت، ليذوب بنا الظلام، وتنقشع مدينة الهوى في مراوغتنا الكلامية، وبين لغتنا الكسولة المتمدّدة من أقصى الأبجدية للمنتهى، في هذا الوقت نتبادل الكثير من القصائد، النصوص وعمق

الفلسفة والموسيقى، وكان لياني النصيب الأعظم في حبنا وشغفنا، كما كان لزمفير ذلك هو وموسيقاه الحالمة بآلتهِ الشهيرة بان فلوت، فكان صوت البيانو والبان فلوت يرنو بين حرفٍ وأخر، نصمت لنستمع ثم نكتب للولع، لشقوق الأحلام ولرقص الغرام، فيباغت السكون وينسلّ بين أفكاري ليخبرني:

- بأن الزمن قد أصبحَ راقداً على ضفة الأمنيات، فلتتمنّي الآن شيئاً قبل أن يستقيم الصباح، وتترنّح النوارس فوق سمائنا البيضاء.

ما عساي أن أتمنّى؟ وأنت أتيتني فوق كلّ الأمنيات، حتى تجعلني أبتسم، وحتى تجعلني أتوكّأ من عمرك عمراً لي، ومن لغتك لغة دافئة لنا، هذه هي المرة الأولى، التي أشعر بها بأن هنالك ما يستحق الكتابة، وبأن هنالك ما يستحق النضال الطويل، أنت تلقّفتني من التيه، وكأن القدر تمتم لك بذلك فجئت راكضاً تنقر أبواب بريدي، بدونِ كلل، لمدةِ أشهرٍ طويلة من السير الشائك، كنت تغنّي للحب بمفردك حتى أنا ما كنت أقرؤك، بل كنت أتعمد ذلك، لا أعلم ما القسوة التي انسكبت فوق قلبي حينها، حتى تجاهلتك؟! رغم أنك كنت تحدو خلف نصوصي كرجلٍ واثق بأنني سأكون أنثاك، لم تشعر قط بأنك على أعتابِ سفر، وأنك مجرّد مقيم بين سكان بريدها، ولم أقرأ يوماً بأنك على متن غربة، وبأن الانتظار بلغ منك مبلغه، لذلك ستكتفي بكلّ هذا الصد وستكتفي من زمن الرسائل الضوئية وقد حان وقت غيابك عني.

أخبرني هل يوجد مثلك في هذا الزمان؟ لا تولي ظهرك للسؤال وتصمت ولا تحملني من على نعش الأمكنة الخالية من

ثرثرة حرفك، فأنت تعلم ما أجهله، لذلك سأعيد السؤالِ عليك ولتكن سخياً بالوضوح، هل يوجد مثلك في هذا الزمان؟

- وإن وجد مثلي بل أفضل مني، هل ستتركينني في وحشة الطريق أبحث عنكِ بين مفترق الطرق؟ أنتِ تحملينني فوق قوافل الأسئلة، حتى تنفضني الأجوبة فارغاً من كلّ شيء، فأنا يا طفلة لا يشاطرني رجل بأفكاري وشخصي وتاريخي، فالأشباهُ كُثر، كنت أعتقد بأنني أثيرك بتوحّدي وتفرّدي، لكن لا أجد معنى لسؤالكِ، سوى سؤال آخر يلتصق بهِ!

هل تغريكِ الأشباه؟

- فأنا أنقش لكَ الأسئلة، فوق خشب الأحلام، وبين وابلٍ من هوى، وماضٍ من ركام فقط حتى أصل إليك دونَ فزع، الأشباه مُرهقة بل مُستهلكة، لم أطرح سؤالاً كهذا عليكَ، ليس لأنك لا تغريني، بل لأنك تجيد الغواية جداً، بين الأقنية الضيّقة والمساحات الشاسعة، لذلك سألتك، لم أعهد حباً يجرفني نحو الألق كحبك، ولم أرغب يوماً بشيءٍ أكثر من جزيل هذا الهيام، رغم المسافات التي بيننا والملامح التي لا أراها، لكنني أتخيّلها بل أعيشها، وأرسمها، أنا أشعر بقربك، بصدقك، بزهدك وبنبل الرجل الذي ينطق اسمي من داخلك، حبنا قطعته معك كضربٍ من الجنون، ولن أندم عليه.

يااااه بينما كنتُ أراقص ذلك الهوى الإفتراضيّ، أرتدي قميص وافي وانا ممتلئة بالبكاء، ولم أع فداحة الأمر إلا عندما استيقظت من دوخة الخيال، يااااه يا وافي ها أنا أخونك وأنت ملتصق بجسدي في قطعةٍ من قماش، ها أنا أثأر لكبريائي وأنا لم أسع لأن

اصل لهذه المرحلة المرهقة من المشاعر، أتعي ما معنى أن أفكّر بعلاقة تربطني برجلٍ غيرك وأنا أرتديك؟!!

عموماً نحن خونةِ الذكريات، أنت خنتني وأنت كنت على قيد هوسكَ بي، وأنا خنتكَ وأنا على قاب ذكراك، ألا تعتقد بأنها معادلة مُنصفة، رغم اختلاف التزامن بين خيانتك وخيانتي لك! لكن لا بأس ها أنا أدهس كلّ ذاك الغبن والوهن برقصةِ النسيان، لا بأس فأنا الأن ما عدتُ أعرج لاهثة خلف تفاصيلك المحمومة، ما عدت أغنّيكَ ببكاء، ولا أستحضركَ بقرفصاء الذاكرة، فثقافة الغياب علّمتني بأن المشاعر المنزوعة من تلابيب الهوى لابدّ من إحيائها بحبٍ أعظم، بمناورةٍ كبرى، وبانخطافٍ غريب، وجميع تلك المشاعر المتأججة والثائرة حقنني بها مراد، لا أخفيكَ سراً فأنا كنت أعقد صفقة غبيّة مع القدر، لكن تلك الصفقة باتت واقعاً استسلمتُ لها برضاي المهر به.

لأنني أصبحت بحاجةٍ لنقاهة طويلة منك، وللإبتعاد عن هذه المهزلة العاطفية، ها أنا أحمل دفتري الأسود بكلّ خوفٍ وأسى، هذا الدفتر هو الشاهد الوحيد على غيابنا الفضائحيّ، على ذكرياتنا المحدّبة وعلى عويل الحنين، فهذا الدفتر هو كارثتنا العظمى، وثراؤنا الراحل مع النسيان، أتعلم لمَ؟ لأن هذه الأوراق ستجلد مشاعري من أقصاها بكَ، ستجعلني أنتفض لذكرى وحنين لقائنا الأول ولجنونك المترف، ولكلّ زخم المشاعر التي اجتحتها من حيث لا أعلم، فقط عند قراءتها والبكاء الطويل عليكَ وعليها سأنتهي منك وللأمد، أعدك.

كلّ ما أحتاجه هو شجاعة تحرّضني على مواصلة التنكيلِ

بك، على السير فوق تفاصيلك القديمة بحزنٍ عميق، فأنا على كلّ الأحوال سأشيّع جنازتكَ بما يليق برجُلي السابق، ولابدّ لي من التظاهر بفقدانك، بضياعي وبجزعي عليك، لابدّ من أن أتقمصّ ملامح الوحشة من ملامح ذكرياتنا الكثيرة، لابدّ من أن يحيطني السواد من جهاتي كلّها، ولابدّ أن أعبث مع أماكننا، تفاصيلنا، رسائلنا وحتى أكواب قهوتنا وساعاتنا المتأخرة بشيءٍ من البكاء، نعم سأبكيك لآخرِ مرة، سأتعاطاك بقلبٍ معطوب، وأعانقك بأطرافٍ مبتورة، سأشفق على نفسي وأنا أتحسس ملامحك الميتة، سأصرخ بوجهك وأطالبك أن تنهض من ديمومة الغيب، أن تعود بحجّةٍ كاذبة، سأعدك بأنني حينها سأتظاهر بتصديقك وأبتسم كما كنت أفعل طيلة سنواتي الساذجة معك، لكن بكلّ جفاف وبرود ستكون مشاعرك ناعسة نحو المنتهى، نحو اللا وجود، والعدم، فأنت ميت، ميت يا وافي، هذه حقيقتك التي لابدّ أن تتقبّلها برحابة الراحلين، العابرين والمشرّدين، لن تعود، ولن تأتيني مرةً أخرى، فتلك الأبواب المخلوعة التي كانت تنتظرك قد أصلحتها، فما عاد إكسير الوجد يجلبكَ لي، لذلك سترحل عني الآن، وتحديداً من بعدِ قراءتي لبدايتنا السحيقة، بحماقة المشاعر سأضرم نيران ذكراك، فقط حتى أرقص حولها بهمجيّة الفقد كما يجب.

بكلّ فزع بدأت بقراءة مشاعري الثائرة بعد ذلك اللقاء، وكيف لك من مصادفتين ألقتهما الحياة علينا بعبثيّة، قرّرت الإرتباط بي، عرضت عليّ الأبدية دون أن تلقي لبالي أي اكتراث، كنتَ على ثقة حينها بأنني سأقبل بك بغرابةِ المنطق، والمكان الذي كنا فيه، كنت تعرض عليّ الزواج ونحنُ في إحدى مكتباتِ دبي!! ما هذه

الغرابة والحماقة التي دفعتكَ مرةً بأن تكون في المقعد الملاصق لي داخلِ طائرةٍ عدد مقاعدها ضعف عدد ركابها، ولم يشأ الحُب إلاّ أن تكون بجواري؟ والمرة الثانية في المؤتمر الأدبي الذي أتتني فيهِ دعوة خاصة له، بحكم أني كاتبة وقريبة من الفضاء الإعلامي، لكن لم أعلم بأي صفة كنت أنتَ تتسكع هناكَ بين الحضور؟ وبأي وجاهة كنت ترمقني مبتسماً! ولم تتعجّب حتى من مصادفتنا، بل كلّ ما كنت تجيده حينها أنك تراقبني وتترقّبني لسرٍ أجهله، للغةٍ دائخة كنتَ تختزلني، فتلك النظرة الزاخرة بعقدة حاجبيك أراهما الآن بين الأوراق، ها هو عطرك يلتفّ حولي بحنان، وافي هل أنت هنا؟ لا تصمت، أخبرني بأنك مشتاق، أحتاج أن تدلق صوتك فوق مسامعي، أن تكونَ قريباً حدّ الأنفاس، أشعر بك، ها أنت جئت إليّ حتى تحقنني بجزيل حبك، حنينك وخوفكَ، لطالما كان الصمت لغتنا، لكن ارتباك الأطراف وحنان النظرات كانا كفيلين حتى تمسح الأسى عن مشاعرنا، كان حبّنا يطفو بنا إلى اللا وعي وإلى اللا منطق، حبّنا كان قاتماً، فتيّاً ومتجدداً، كنا نستطيع أن نطيل عمر حبنا أكثر، أن ننشطر من الغرام لنعود بكارثة عشقية أقوى، أن نتلو دستور الجنون كأولِ مرة، لكن لا تقلق فجميعنا نزلاء للحب، فجميعنا سنغادر حضارة الغرام يوماً بقلبٍ مثقوب وبذكرى هشّة، وها نحن غادرناها نحو اللا عودة، فأنا أختزل لك تعاسةً خالصة، وذاكرة موبوءة، بكلّ التفاصيل المبتورة.

يحدث أن أدلّك على موضع الخيبة بالكثير من لحظات الترقب، وبالقليل من النسيان حتى لا أقف في هوة تفاصيلك مشدوهة بالحنين، يحدث أن أسير فوق طريقك الشائك بجمالٍ

صارخ، بعطرٍ تربكك رائحته، بنظرةٍ تسحق رجولتك وبضحكةٍ تدهس غرورك، ويحدث أن ترى أنوثتي بهزةٍ عاطفية.

فَأَدْرانُ روحِكَ تحوم حول الغيهب، تُكبّلني بالكثيرِ منك، تشاطرني معك، تنسفني تحت عجلة التوق وتتطيّر معي من الحنين، لطالما كنتُ أخشى وقع اجتياحه، وحماقة كارثته على الوجد، ذلك الحنين الغاضب، المتعسّف والشاهق بكلّ حالاتِ الإشتياق، يلجُمني بمشاعرٍ كانت تشهقك حضوراً وتزفركَ قلقاً من رحيلك، من قسوة ساديّتك ومن فوضى مزاجيّتك، ما زلت تعتصر الوجع فيّ، ما زال لكَ متّسع بداخلي يراقصك بين حياتين، بين وجعين وبين غيابين، ما زالت المشاعر تتبرّك بوقتٍ كان وقتنا، وحياة كانت لنا، وفضاء كان لنوارس جنوننا، ومساحة كانت لشهوة تطرّفنا في خلق الكثير من سديم العدم، ما زلت عاتياً بي، ترفض الرحيل وتخشى البقاء، ما عدتُ قادرة على مصارعة وحشيّة التفاصيل المعقّدة أكثر، وما عدتُ قادرة على السير في خضمّ كلّ هذا الوهن بمفردي، لابدّ من دوامة عاطفيّة كبرى تقتلع جذوة تشبّثك بالروح من عمقها، لابدّ لمراد أن يدرك بأن وجعي قاتم، وبأنه مغلوبٌ على ذاكرتي، لابدّ له أن يبددّ أصفاد الأنفاس ليحيل بيني وبين أشواك الماضي العتيق الكثير من الجنون، وبالكثير من ترف اللغة، لابدّ له أن يكون عالماً من الرجال، أن يتنزّه عن عبثيّتهم وأن لا يخضع لعوالمهم، لابدّ له أن يكون فوق الأبجدية، فوق التصّور، وفوق الوقوع، لابدّ له أن يبقيني على قيد الشهقةِ الأولى، والربكة المثيرة، طيلة عمرنا الإفتراضيّ، أن يراقصني بالأحرف، ويُقبّلني بالتمتمات، ويضاجعني بالصمتِ الملوّن، أن يثيرني بالبياض، بالحياد والتطرّف، حتى أبقى شهيّة،

طفولية، وشقيّة، حتى يبقى النبض بيني وبينه يترنّم بشيءٍ من الغرابة والحداثة، عليه أن يعلم بأن المشاعر المكرّرة والحُب الكربونيّ يقتلان تداعيات العناق بجزيل السأم، لذلك أحتاج لجنونه أكثر من رزانته وعقله، لن يفيدنا الترويّ بشيء، بل إنه سوف يعرقلنا في الضفة الموازية من البداية، سينتهك حُرمانية الذنوب اللذيذة بالضمير المتثائب، لذلك لابدّ أن ندع عين واقعنا راقدة تحت أنقاض اللا وعي، حتى نرى بعينِ الهوس كلّ الهيام المخضّب نظرةً بنظرة.

قبل المصادفة

الغياب الذي يطأ الحب عنوة ، ما هو إلا
بداية لحكايةٍ لن تنسى

لم أكن أنثى حالمة كما قلت لي فقط، بل لأنه دائماً هنالك متّسعٌ للأحلام، للقفز، للخروجِ عن كلّ هذه الأعراف المعلّبة، دوماً هنالك فجوة نتّسع منها لنتمدّد، لنتمطّى، لنتفشّى ونظهر، دوماً هنالك ثقب ما نستطيع من خلالهِ تهريب أحلامنا، أفكارنا ومشاعرنا دون أن نتعرّض للمساءلة أو حتى للقذفِ بالعهر أو بالخطيئة، وثقبي كان الكتابة، وحلمي تفشّى بين الأسطر دون أن أكتفي بذلك، ولن أفعل؛ لذلك كانت خطيئتي بعينك هي هوسي بالقلم، وكانت محبرتي بعتمتها وطقوسها الدامية أمامك كمسرحية مضحكة بل كمرضٍ متفشّ في سائرِ أوردتي ولابدّ من بترِ العضو المصاب بسرعة عاجلة، أكنت تنوي قطع أصابعي؟ أم يدي؟ أم أنك كنت تنوي سدّ فجوة الإلهام التي تأتيني من الغيب؟

فقط لأنك فشلت في منعي، في قصمي، في تكبيلي وقمعي، كانت تتشكّل طقوسي أمامك بغرابة تدهشك، لذلك كنتَ تشعر بأني تحوّلت لمشعوذة ترقد فوق عالمٍ تستحضره من الجن، لم تكن لتسمح أن تتسع مشاعرك لحرفي، ولم أكن أحتمل أن أتقلص أكثر أو حتى أنشطر وأنكمش بين البين، دائماً كنا نقف في المنتصف، ودائماً كنت مأخوذة منك بحلمِ اليقظة المباغت، شاردة بالمنطق، شاردة بأبجديتي المعلّقة بين مداد مشاعري، شاردة بحبِ رجُلي الورقي، وهذه هي بداية الخيانة التي لا تغتفر أمام كلّ هذه الحشود

الورقيّة، بل أمامك أنت بالذات.

لذلك أصبحتُ خائنة بملءِ القلم، ولم يكن لولعي ولا لجسارتي المتدفّقة بين فخاخِ اللغة أن تغريك، رغم اجتهادي، وانصياعي لإرضائك بأكثر القصائد توهّجاً، بأكثر النصوصِ المتلبّسة باسمك، بجنونك، بساديّتك وبأغانيك المروّعة، لم ترض ولن ترضى، كلّ ذلك الإحتشاد النفسي أثار حنقي، فزعي، وحرفي، كان لابدّ من الفرار، من اجترار الكتابة نحو العدم والمخاطرة بحبنا، نحو اللا شيء، كنتُ أنا واللغة أمامك، وكنت أنت وشرقيّتك الكامنة أمامي، كان لابدّ من تهجئة الحب، من ترتيبه، من وضع التفاصيل بين التفاصيل بحداثة، بخلق، بتطرّف، لن أحتمل وجع هذا اليتم العاطفي أكثر، ولن أحتمل سؤالك المقزّز الذي يحوم حول توقّفي عن الرقص بين الأسطر وأن أقوم بعملية اختيار طارئة بينك وبين لغتي المثخنة بوجعي.

كيف لرجلٍ أشبه بالمستحيل أن يُخيّرني بينه وبيني، ألم تعلم بأن الكتابة هي أنا؟ لذلك كنت وما زلت أتغذّى من مشاعري المحمومة، أنا يا رجُل الخذلان أحبّ وجعي، أحبّ أن أتحسّس بلل وجهي، أحبّ احتراق عينّي، أحبّ خشوع أناي، أحبّ هذا الصدع الداخلي، أحبّ أن أزيل قشور خيبتي بحذر، أحبّ معاقبة قلبي بمازوشية مثيرة، أحبّ أن أتلوّن بين عوالمٍ لا أعرفها وأن أقاسم الغرام مع رجالي الورقيين، أحبّ أن أكون أكثر من امرأة، وأكثر من طفلة، وأكثر من عجوزٍ مجعّدة وناشفة، أحب أن أربّت على تحدّب ظهر خوفي بالكثير من السلام، لذلك كن أنت سلامي، توهّجي ولغتي العرجاء، كن ملهمي قبل الرحيل، قبل مرحلة التفريغ

الكتابيّ، وقبل ان تنأى بنفسكَ عني، كن أنت جحيمي الذي أصبو إليه بخطيئةٍ كبرى، كن توبتي وغفراني، كن العدم.

كم ينبغي علينا أن نبتسم أمامَ المشاعرِ الغيّبيّة بجذل؟ وكم من العمُر أصبحَ ممتدّاً مع جناحِ الليل، آسناً رغماً عنهُ؟! لذلك قد نلتقي على ضفاف المشاعرِ المواربة ذات صباح، لكن إلى الآن ما زال يتلبّسُني القنوط، إلى الآن ما زلتُ أجهل رجلاً مثلك كيف يبكي فوقَ ركبتيّ بحبٍ ونشوة؟ كيف ينهمرُ الدمع من محاجرِ عينيكَ بكلّ قداسةٍ وخشوع؟ كيف لك أن تتصوّف أمامي بهذا النزق؟ أخبرني حالاً لمَ وضعتني على مشجب قلبكَ وأنت تُسافر بي بكلّ جنونٍ وسطوة؟ لمَ ما زلت تنساب وتتسربل بين لحظاتِ الترقّب بشاعريةٍ عظمى؟ ولمَ عليّ أن أتكدّس وأنحشِر معكَ في زاويةٍ ضيقة من الخيبة؟ لمَ كان حُبّنا فعلَ جنون؟ ولمَ توقّفنا ذات لهفة عن الحياة بنا؟ ألهذا الحدّ كان مخاضُ عشقنا متعسّراً؟ لذلكَ أتى بحالةٍ مُدميّة!

أنتَ ما زلتَ لا تعي رغم السكتةِ العاطفية التي أصابتكَ قبلي، بأنه من المستحيل عليّ أن أتخلى عن مجد قلمي لأجلِ الحُب، ولأنكَ حاولتَ أن تضيّقَ عليّ الحصار باسم التوّحدِ عشقاً، فقد نجحتُ بعيداً عنكَ، لطالما كان وجودُ الرجُل في حياتي أمراً عارضاً وليس ثابتاً، لا أعلم لمَ أنت بالذات استطعت أن تُسقطني في الهوة رغمَ أنف الدهشة؟ لمَ أنت بكلّ غرابتكَ وشرقيّتكَ المفرطة بين ليلةٍ وضحاها أصبحتَ رجُلي، بكلّ إجلال ومناوشاتٍ كبرى، أعطيتَ لعلاقتنا بعداً درامياً كان بعيداً عن تواطؤ الورق!

بكلّ اختصار وبإجابةٍ مُقتضبة، أخبرتكَ قبلَ الحصاد، بأني باسمِ البقاء، وباسمِ الحياةِ القادمة، ومن أجلِ عقيدةِ الحُبِ الخالصة،

اخترتُ الطموحَ، المستقبل والأمور القادمة بِوَجل، اخترتُ أن أعيشكَ بالفراقِ أكثر، أن أُعانقكَ في مواسمِ الحنين بمرارةٍ ووحشة، اخترتكَ أن تبقى في عينيّ فتيّاً للأمد، بعيداً عن هذا الحب الضال، وبعيداً عن المشاعرِ المكبّلة بالتملّكِ الموجع، لذلكَ أتاني سؤالك المجحف لجنوننا مفجعاً ومفزعاً، ببرودة الإحتضار سألتني:

- الآن أريدُ منكِ إجابةً فوريّة لهذا الأمر الطارئ باختيارٍ واحد لا إسهابَ فيهِ ولا تراجعَ عنه «أنا أم طموحكِ»؟

لا أعلم لمَ أخذتني بسطوتك نحو النهايات الحامضة، والقراراتِ المتعسّفة؟ ما كُلّ هذا الحنق الذي أصابكَ دفعةً واحدة يا رجُل؟ هل هو بسبب نجاحي المفرط أمام فشلك، أم بسبب فصل الغيرة الذكورية التي تضرب طموح المرأة بعرض حائط الأنا؟ ما هذه النعرة الشرقيّة التي أصابتكَ فجأة؟ حدّ إقحامي بين قابين وأدنى من الخيبة! أتُخيّرني بينكَ وبين نجاحي المتبلور حول حالتي الكتابيّة بكلّ قسوةِ الرجال وظلم الجبابرة! ألهذا الحدّ لا يعني لك مستقبلي شيئاً؟ فقط جُلّ ما تريدهُ هو أن تحشرني في عالمكَ لتستعبدني مدى الدهر، أهذا هو الحب يا وافي؟ ألم تكن معي منذ البداية وحتى من قبل البداية كنت تقرؤني بعينِ عاشق؟ ما الذي تغيّرَ فجأة؟ لتسخى بنا!! لقد عثتَ بنا ذنباً لن تمحيهِ السنين.

* * *

حقيقةً لا أعلم ما قصّتي مع الكائنات الأخرى، لم تلبث في غرفتي الأسماك بكلّ فتنتها وألوانها المحرّضة على تأمّل حركتها السريعة والتفاتاتها الدائرية في منتصف ذلك الحوض الكبير حتى تموت، جمال حضورها المتناغم مع غرفتي ورحيلها المفجع مع

وجعي، أمر يصيبني بالأسى، حتى قطّتي لوزة بعتها لصديقتي نايا، تلك القطة التي تركض بعمر علاقتي مع وافي، تلك الصغيرة البيضاء التي كبرت عند فراقنا الأخير، تخلّيتُ عنها كما تخلّى هو عنّي، أكنتُ أنتقم منه فيها؟ أشتاقها، أحتاج لصوت موائها، لنظرتها الجائعة ولالتصاقها بقدمي، أحببتها كما أحببته وأكثر، وكيف لي أن لا أفعل وهي قاسمتني الوقت، السهر والمكالمات الليلية، البكاء وشهقات الأمل، لا بأس على كلّ حال ها أنا جلبت لغرفتي ولي سلحفاة صغيرة تعلّمني الصبر وأعلّمها اللا شيء، ولأني أحرص على البقاء بكلّ قوة أنثوية تسري في أوردتي، هذا المخلوق المنكفئ تحت درقتِهِ الصلبة سيعلّمني كيف يكون الصبر أخاذاً، يكفي أن يكون دمه بارداً حتى يتعايش مع بيئته، ألم يضرب به المثل سابقاً وكيف تغلّب على الأرنب العدّاء بقوة إصراره وعزيمته! إذاً ستعلّمني الكثير بمجرّد تأمّلها وهي تطفو في حوضها بكلّ سكونٍ عاصف.

كان لابدّ لي الخروج من قوقعة الذكريات، للحدّ الذي أتمنى فيه أن أقلب الغرفة رأساً على عقب، وأن لا أبقي فيها ولا أذر، هنا كنت أبكي، وفوق السرير الوثير كنتُ أعوم بالحلم، وفوق مكتبي كنت بكلّ شقاوة أكتبه، وهذه النافذة المطلة على الماضي كنتُ أتسابق لرؤيته واقفاً، ضاحكاً وملوّحاً لي في الخفاء، وهذه الصورة المأطّرة بعمرنا القديم كم أتمنّى حرقها، كلّ شيءٍ هنا له، لم يكن وافي عادياً حتى أحبّه، فهو يعلم كيف يصبح دخول العظماء من بابِ الدهشة مؤثّراً، ويعلم أيضاً كيف يحوّل تلك الكاتبة من علوّها اللغوي إلى طفلة لا تفقه في أمور الحب سوى الجذل، لذلك كان اجتياحه لقلبي ليس بالأمر المعقّد، ودخوله لحصني بكلّ هداياه

ووسائده ورائحة عطوره وحتى بعض ثيابه المرشوشة باشتياقه ليس صعباً، فقط لأنه بشرقيّة الرجال وجنونهم كان يسير على نهج التملّك حدّ التفرّد.

* * *

كان لابدّ لي من مخرجٍ يُنسيني الطرقات، المقاهي، الأوقات، وحتى بعض الوجوه، كان لابدّ لي من السفر بعيداً عن جدة المكتظّة بكلّ ملامح جنوننا وشغفنا بالحياةِ والحب، لم يكن أمامي سوى أن أحقّق ما كنت أتمنّاه من المراهقة المنصرمة وحتى الآن في زيارة روما ومدرج الكولوسيوم، فهذه كانت أمنيتنا المشتركة أن نذهب لها بشهرٍ من عسل وحبّ ونشوة، وها أنا قررت الذهاب لها بمفردي، لا أعلم لمَ هي بالذات؟ هنالك شعور قوي يحرّضني على دهس كلّ ما كنا نرغب في الحصول عليهِ بارتباطنا عنوة، شعور التمرّد على تفاصيلنا الشيّقة يشعرني بالسلام، فأنا يطربني كلّ ما كان يتغنّى بنا وأصبح يبكي علينا، كما صفعني بها إميل سيوران في عبارته:

- "الألم يجعلك تعيش في تفاصيله، لحظةٌ لحظة فلا حاجة الى التساؤل عما إذا كان موجوداً بالنسبة إليك، إنه ينزلق على الآخرين، على الذين لا يتألمون، لذلك يمكن القول أنهم لا يعيشون في الزمن وربما لم يعيشوا فيه قط".

لذلك أصبح لابدّ من الهرب، ولابدّ من التمعنّ في هذه الحالة المرهقة من الأوجاع الدامغة، ثلاثة أشهر كفيلة بأن تؤثّث لي أنفاسي من جديد، هنالك سأولد بلا ذاكرة، وبلا ماضي يذكر، هنالك سأكون كما أرغب لا كما ترغب ذكراه، والداي تفهّما حاجتي الملحّة للسفر بقدر ما كانا يعنيهما أن أقف من جديد بلا

وجعٍ أو ملامحٍ تخفي خلفها ساعاتٍ طويلة من البكاء، كما كان لابدّ أن أنهي ما تبقّى من روايتي بذهنٍ خالٍ من تباريحِ الحنين، أاوه وأيضاً هنالك الإذاعة وبدايتي الجديدة بعد ثلاثة أشهر، لذلك عليّ العوم نحو شاطئ الحياة بسلام.

في عمرٍ ما، سنظلُّ نبحث عن مرفأ يأوينا، عن زمنٍ يعتنقنا ويعتقنا، عن وقتٍ يعترف بنا، وعن وجهةٍ نشدُّ رحالنا إليها، لذلك سنصادف الكثير من الهاربين، المشرّدين، العابرين، المكلومين، والسعداء، سنصادف الدراويش والنساء الثرثارات، سنصادف المراهقين والناضجين، سنصادف شهداء الحب وأبطال الحكايات النائمة، سنصادف الجميع في مطارات الرحيل، سنرحل معهم، وسننتظر رحلتنا بينهم، سنعبر الكثير من الأوطان، من الحدود ومن اللحظات العائمة على متنِ طائرة خاطفة، هناك سنظلُّ معلّقين بين سماءِ الذاكرة، وبين أرضِ المشاعر، هناك سيكون الفراق موحشاً، وستكون البداية عاصفةً، سنتعلّم بين محطاتِ الإنتظار والإقلاع:

- بأن الكثير من الأمور تُطوى، وأخرى تبدأ، بأن الكثير يبقى فينا، والقليل يرحل منّا.

نحن هنا أمام هذا الكم الهائل من الطائرات المنتظرة مسافريها لا شيء، نحن مجرد رقمٍ يعبر الخرائط بجنائزيّةٍ لا تذكر.

لذلك قد نعيد دورة الحب في وطنٍ نجهله، مع تفاصيل لا نتوقّعها ومع أشخاصٍ لا نعلم عنهم شيئاً، قد يحدث ذلك بكلّ غرابة لم تجتاحنا قط، نحنُ قرّرنا السفر لننسى، لكننا سنحبّ، سنغرم وسنعيد لمشاعرنا روحها الفتيّة، سنظلّ يافعين طالما قلبنا ينبض، لا نحتاج إلا لنفحةِ ذاك التوق حتى نسعد، وحتى لا نصاب بشيخوخةِ

الذكريات.

الكثير ينتظرنا في زمنٍ ما، والكثير سيأخذنا إلى كلّ الإستفهامات المفخّخة بجذلٍ وحبور، فنحنُ لا يسعنا سوى المضي قدماً، ولا يمكننا سوى أن نتمطى من قبابِ الذاكرة بشهقةِ أمل.

لذلك لا يتوجّب علينا أن نكشط سطح الجرح قبل السفر أو حتى بعده، فلنترك هذه المهمة الفدائية للأقدار وللأحداثِ التي نجهل وقوعها، فلنكتفِ بالإبتسام، ولنصعد الطائرة بملامح بشوشة، فنحنُ لا نعلم من سنصادف في المقعد المجاور لنا.

فقط علينا أن ننسلّ من موسم الحداد ببياضٍ نجهله، علينا أن نغنّي للحياة وللنوارس أغنياتٍ لم نسمعها، علينا السير بين زحام الوجوه بملامحٍ ملوّنة، علينا أن لا نظهر عورة وجعنا للعالمين، علينا البكاء بصمت، والصراخ بصمت، والكتابة بصمت، والرحيل أيضاً بصمت، علينا أن نشرّع للصمتِ عمراً مضى وعمراً سيأتي، فنحنُ سيلزمنا الكثير لنصمت، وهذا هو عزاؤنا الوحيد أمام كلّ هذه الحرائق التي تضرم بداخلنا.

علينا أن نولد من جديد، أن نخلق ذاكرة من الفراغ، أن نرقص للماضي، علينا أن نبتسم بطفولةٍ، بمراهقة، وبشيخوخة، علينا أن نكون لا نحن، حيثُ يتوجبّ علينا أن نكون نحنُ، علينا التحرّش بكلّ الأمورِ الهامدة، حتى لا نخشى مهابة الموت التي تتربّص بنا على حين غرّة منّا، علينا أن نطفو فوق سطح الأشياء، علينا الحذر من الغرق ومن العوم نحو النهاية، علينا أن ننتصف في كلّ التفاصيل حتى نبقى ونحيا.

علينا أن لا ننفك من عقالِنا، وأن لا ندع وحشة الذكريات بكلّ

توقها تجرفنا للوراء، فنحنُ سنحافظ على زمام الأمور، وسنحبو نحو المستقبل بجذلٍ لم نتوقّعه، فقط علينا تمرين مشاعرنا على العيش بمفردها.

جميعنا نتمنى أن نهاجر إلى أقاصي جغرافيا الفرح، تاركين خلفنا كلّ هذا الغياب الفضائحي بكلّ جسارة، فهذا هو موسم الرحيل والسفر، موسم القطيعة والنسيان، موسم اللاعودة والمشاعر الغيبيّة، موسم المواجهة الإصطدامية بالذاكرة، سننجح في اجتياز هذه التفاصيل الغابرة رغماً عنّا وبالجملة، ليس أمامنا سوى هذا المنفذ، وعلينا عبوره بحذر، علينا أن نعيد ترتيب أنفاسنا، أن نحقن أوردتنا بالكثير من أمصالِ الأمل، أن لا نقف مطوّلاً أمام العدم، أن لا نهرم ونحن مازلنا نتنفس الصعداء.

* * *

ولأنني أصبحتُ بعيدة جداً عن والدتي بسبب مرضي بالعزلة الذي تفشى فيّ فجأة، كان لابدّ لي أن أعود لرائحتها، لأحاديثها الهادئة، أن أعانقها بفرائحيّة، بطفولة، وبمشاكسة، أحبّها عندما تعيدُ لي ترتيب فوضاي بدعائها، بحنانها، وبقلقها، أحبُ أن أراني في عينِ أمومتها كلّما ضاقت بي الحياة وجعاً، وكلّما سقطتُ في الهوة أجدها تتلقفني باهتمامها، كنتُ وما زلتُ أشعر باكتمالي فقط بين ذراعيها، والدي كان حاضراً معنا بقدرِ غيابه المتكرّر وراء أعماله التي لا تنتهي، لكن أبوّته وحرصه الدائم على تفاصيلنا الدقيقة وخوفه على والدتي وعليّ، كان هذا الأمر كافياً بأن يشعرني بالسلام.

لم تكن راضية عنك يا وافي منذ البداية، أيعودُ السبب لحدس

الأمومة المفرط بها؟ أم كنت كذلك فعلاً؟ أم لأني كنتُ مأخوذة بك حدّ اليباب! لذلك لم أرى ما كان يتوجب عليّ رؤيته فيك! ياه كم كانت تلك اللحظات شفّافة وواضحة لوالدتي منذ الربكةِ الأولى، لطالما كنتُ في مواجهة ضارية معها بسببك، ولطالما كانت تنهالُ عليّ بأحلامها وكوابيسها المقترنة بمصيرٍ مأساويّ معك، لطالما كانت تحذّرني، ترجوني أن أبتعد، أن أرحل أو حتى أسافر عنك، كانت تُخيفني بقدر ما كنتُ أتشبّث بكَ بسذاجة، وها هي الآن على صواب بينما كنت أنت على كذب، كانت تلك الليالي مشؤومة بكلّ جنائزيّتها وغبنها العاطفي، لذلك لا أريد لهذه القطيعة أن تمتدّ، لذلك لا أريد إحزان والدتي أكثر فلطالما قدّرت وحدتي، بُعدي، وانشطاري عن كلّ مظاهر العائلة من بعدك، كانت تعلم بأن هذا الحدث العشقي المنهار، لن يمرّ على خير.

لذلك كان يتوجبّ عليّ الهرب نحو الأوراق، نحو الإحتراق، نحو البكاء ونحو الخلود، لذلكَ فقط تركتني بصمتي المطبق أتلوى خلف الأسطر وأنصهر دون أن تُعاتبني أو حتى لتثبتَ لي صحة حديثها، أحترم بل أقدّس هذه النزعة العميقة في والدتي، هذه المرأة الصبورة والسامقة خلف أذكارها واستغفارها، المثقّفة بالإيمان، والقوية بحجتها وبيانها.

لم يكن غرق أخي إلا انكساراً لنا، لم يكن رحيله إلا موتاً لنا جميعاً بل غرقاً لي، لم يكن فقدانه بشكلٍ خاطف إلا قدراً، لم يكن فقدانه ليجتاح أحلامنا حتى ولو بالخطأ، لم أرها تجزع أو تسخط أو حتى تنتحب بكلّ أمومتها الراحلة معه، بل كانت تبكي بصمتٍ شاهق، تدعو له بحنانٍ موجع، تتصدّق عليه بكرمٍ مبتهل، لم يزدها

فقدانه ورحيله إلا إيماناً وخشوعاً، في مأتم الفراق دوماً ننضج رغماً عنا، وها أنا نضجت بعد رحيل تيم ضعف عمـري، فهرمت من بعد رحيلك ضعف أضعافهِ حـدّ التجعّد، كيف لـي أن أطمس ذكرى تيم بداخلـي دون أن أبكـي، أحتـرق أو حتى أتخبّـط، ابتلعه البحـر بنهمٍ وجوع، أم كان عرضةً لالتهام النوارس بشراسةٍ ضارية؟

تلك الليلة المشـرحّة بداخلِ الوجع، تلك الساعة الغيبوبة على الفراق، تلـك الحادثة الحارقـة، وتلك الأنفـاس الهامدة عـن الحياة، كلّ تلك المواقـف المكتظة بأقاصي البـكاء كيف يمكنني مفارقتها؟ كيف يمكننـي أن أجتاز عصارة المشـاعر بسـكون؟ كيف لـي يا تيم أن أكمل من حيثُ مـا تركتني؟ من حيث ما عانقتني بوداعٍ ودعوة؟ كيف لـي أن أعيدك مـن المـوت لتحيـا؟ أكانَ ضرورياً أن تغامر بنا من أجلِ رحلةِ صيدٍ بائسـة؟ ما المتعة الآن في تلك المقامرة الطارئة التي فعلتها مع رفاقكِ عنوة؟ ما النتيجة الفارقة التي كسبتها من تلك الليلة؟ أكان صيدكم وفيراً؟ أكانت ساعة رحيلك عن الحياة موجعة؟ أكنـت تصـرخ بأسـمائنا؟ ألفظتنـا مـع أنفاسـك الأخيرة؟ هـل أغرق الموج وصيّتك؟ أم تركتهـا مُعلّقَة بين البحرِ والسـماء؟ يا الله فأنا لم أعد أحتمل هذه الوحـدة الخانقة، لم اعد أحتمل بـكاء التفاصيل من حولي، أحتـاج لوالدتـي، أحتاجُ لطـراوة كلماتهـا، وبشاشـتها، ها أنا أعانقهـا بقلبٍ معطـوب وكأنها المرة الاولى التي أشـمُّ فيهـا رائحتها الحنونة، وهـا أنا أبكـي وانتفض فقـداً أمامهـا، لا أريد السـقوط، لا أريد أن أعطي لمشـاعري أمامها بعـداً يُخيفها، لا أحتمـل أن أخيفها أو أصيبها بالهلع والفزع، فهي لا تسـتحق أن أُثقلهـا بأحزاني الملبّدة وحتـى وإن كانـت بسـبب اشـتياقي المـروّع لتيـم ولـك، لا أريد أن

أحقنها بالمزيدِ من الأفكار المشوّشة عن ضياعي، لذلك أتاني صوتها في منتصف النحيبِ حانياً، مُسالماً وعميقاً:

- البكاء يا صغيرتي يُريحنا من تكتّل المشاعر المترسّبة فينا، لذلك إبكي بقدرِ وجعكِ، إبكي حتى تعودي للحياةِ طاهرة من الشوائب، وبعيدة عن كلّ العقد المضطربة، إبكي لتجدي نفسكِ، لتعانقيها، لتمنحيها السلام، ولتخافي عليها من أشباه الحب، إبكي يا سُكّريّتي حتى تُفلسي من ماضيكِ المزدحم بكلّ الذكريات، لكن لا تعودي حيثُ ما كنتِ بعد البكاء، إجعلي رحيلكِ شامخاً، آسراً وأنيقاً، ولا ترتادي الأمور القديمة بذريعة الحنين، صدّقيني ستمكثين فوق سطح الأشياءِ طويلاً، لكن دون جدوى.

* * *

لم اختر أن أتواجد في روما إلا نهاية فصل الخريف تزامناً مع بداية قارسة للشتاء، هذان الفصلان يحرّضان المشاعر على الرقص بحرّيةٍ بين تساقط الأوجاع وتجمّد الإنتظار، هذان الفصلان سيكونان قصاصي حدّ البكاء ثم النسيان، لطالما كان الشتاء وما زال يجيد العبث بمشاعري، لكن شتاء جدة لا يضاهي عذوبة وجماليّة تجمّد أفق روما، هنا سيعلّمني الشتاء، كيف لي أن أجعل من ذكرياتك حطباً قابلاً للإشتعال لتدفئتي.

ها أنا هنا في مدينةٍ تنبض بالغرام والحب، لطالما كانت روما بكلّ أرصفتها ومطاعمها وحتى متاحفها واجهة لكلّ حديثي الزواج، هنا يلتقي جميع العشاق بلا دراية وهنا أيضاً يتفرقون كما أتوا، كما يتكاثر بها الهاربون من الهوى، والمحكومون باسم الذكرى، تماماً مثلي، لم أكن أتخيّل أن أسير بين طرقاتها وأن أقف أمام (نافورة

تريفولي) وألقي بقطعٍ نقدية بذريعة أن قد تصدُق الأسطورة معي، هنالك دوماً شيئ بداخلنا يحرّضنا على تجربة كلّ ما هو غريب ومثير لمشاعرنا، كهذه البحيرة الحبلى بملايين الأمنيات، الرغبات، الذكريات والأوجاع، يا لها من امرأة متعدّدة المشاعر ومنتفخة الرحم، إلى متى ستظل هكذا؟ ألن تجهض أجنّة الأحلام من رحم الجنون؟ ألن تلد صغارها بقدرةٍ إلهية فتترك للأغبياء قطعهم النقدية التي لن تعيد لهم حبيباً ولن تشفع لهم ذنوبهم ؟ من يحاسبها على مسايرتها للّصوص، لقطّاع الحب ولخونةِ الوعود؟ من يراقبها فجراً؟ ومن يسدل على تماثيلها ثياباً تسترهم في فصلِ تجمّد المشاعر؟ ألهذا الحدّ قد نتعاطف مع بقايا أماكن اجتاحها الكثيرون غيرنا بأسى وحنان؟ يااااه كم من صورةٍ يا ترى أخذت لحبيبينِ هنا؟ وكم قُبلة ولدت بداية قصتها هنا؟ وكم من صفعةِ فراق رُسمت على وجه الدهشة؟ هذا المكان مثير للكتابة، للتأمّل، للمراقبة، للبكاء، للإشتياق، للثورة، وللهروب، هذا المكان بكلّ زخمه وضجيجهِ العاطفي يشعرني بالسكينة، فهو مدعاةٌ للإبتسام رغم كلّ المشاعر الغيبية المؤلمة.

ليس الحب من يأخذ ذلك الحيّز:

بل قيامة ذكراهم المتشبّثة فينا هي من تعصفُ بنا، حتى تعطي لتفاصيلهم مساحةً عظمى لتتفشّى بداخلنا فتفتكنا، لكن إن تعمّقنا في الحب، هذا الشعور القادم لنا من حكايا السهر، وثرثرة الذكريات، فهو يرحل معهم فوراً، تماماً كما حضر بكلّ نزقهِ واجتياحه.

إذاً ما الذي يذكّرنا فيهم غير تفاصيلهم الجانحة؟ المكتظة بالأماكن، الرسائل، الساعات، الأغنيات والروائح! ما الذي يجعلنا

نعقد المراهنات، والأحلام بهم؟ وما الذي يُقحمنا باستمرار في مواجهةٍ ضارية مع خذلانهم؟ لذلك نجتّثُ من قصاصِ ماضينا الكثير من الأوجاع، فقط حتى نعلّقها كأمصالٍ لكائناتنا الحبريّة بأبعادٍ نجهلها، لذلك كلّما تقدّمت خطوة أعود لاستجداء التفاصيل المعمرّة بداخلي، أخاف أن أبتعد مني أو تبتعد هي عني، لذلك ما زالت خطواتي المضطربة تخيفني.

* * *

لمَ بعض الفصول تأتينا مباغتة للّهفة، حانقة على كلّ الذكريات أو ممطرة برائحة الحنين؟ لمَ علينا أن نتجوّل تحت غضبها بصبرٍ أكثر وبتظاهرٍ أحمق؟ كلّ ذاك الإحتقان يجبرنا على دهس مشاعرنا رغماً عنَا، لكن هنا بين أزقة روما وأشجارها المتدلّية بشحوبها الشتائي من الحكايا القديمة، لم أكن بحاجةٍ للمزيد من الأقنعة، لم أكن أحتاج إلا إليّ فقط.

على الجهة الموازية من الفتنة سأخطو نحو ساحة إسبانيا حيث يكمن الإزدحام والسعادة، حيث تنجب الحياة الحب بوفرة، لن أظلّ أسير طويلاً، ولن أحاول جاهدة أن أبتسم، كلّ ما عليّ فعلهُ هو الجلوس فوق الدرج المتماثل أمام نافورة ديللا باركاتشا مشدوهة في ملامح هذا الكم الهائل من الوجوه المتسارعة أمامي، سأحاول جاهدةً أن أقرأهم، أن أضعهم تحت عينِ المجهر، وأن أختبرهم، فأنا المنزوية فوق بردِ الذكريات، فأصبحوا الآن يشاطرونني ألمي، كلّ من هم حولي الآن، لم يكن عليّ الإلتفات حينها، لكنني التفت، فعلتها وأدرت وجهي يميناً، لأجد ملامح امرأة هزمتها الأيام تتأملني بشحوبٍ غريب، وكأنها قرأتني كما كنتُ أفعل مع الكلّ، لم أبتسم

كما لم تفعل هي، فقط تبادلنا النظرات بكثيرٍ من الوجع وبالكثير من الصمت البائس، لم يكن عليّ حينها أن أبكي، كما لم يكن عليّ أن أفعل أموراً عدة وفعلتها في النهاية، لم أتوقّع أنها ستغادر عزلتها لتأتي لمواساتي، لتعانقني، ولتربّت فوق كتفي بحنان.

لذلك ستبقى هذه المواساة هي من مهام العابرين، الذين دوماً يحقنوننا بالأمل ثم يغادروننا بصمت، دون خذلان أو حتى وجع، في لحظةِ عناقٍ منتفض، سألتني بلكنتها المثيرة وهي تحاول أن تتحدّث باللغةِ الإنجليزية بطلاقة، لكن لغتها الأم تأبى الإنصياع لذلك:

- هل هو الحب؟

دوماً ستبقى شبهة الحب هي علامتنا الفارقة والواضحة جداً على ملامحنا، لذلك ماذا عسايّ أن أقول غير ذلك،؟ لا أعلم كيف تداركت السؤال وعدتُ للوراءِ قليلاً ثم تكبّدت عناء الإبتسامة وقلت:

- لا شيء غير الحب قادرٌ على حرقنا بهذه الطريقة.

- ماذا عن الوطن؟

- هو سيبقى ملاذنا، مهما ابتعدنا عنه أو حتى مهما نكلّ هو بنا.

- ملامحك...

- عربية؟

- نعم، فالحب لديكم دوماً ينتهي بسبب ذلك.

- أتقصدين بسبب عاداتنا وشرقيّتنا؟

- نعم بالضبط.

- صدّقيني ليس بالضرورة، وحتى هنا تحديداً أنتِ تشعرين بخيبةٍ ما، ولابدّ أنكِ تتوجّعين بسبب الحب أيضاً.

- صحيح، لذلك نحن الآن وحيدتانِ أمام هذا الجمع الغفير

من العشاق.

- إنها سخرية الحب، ولا شيء غير ذلك.

- لا بأس، الحياة في كل الأحوال ستمضي، أليس كذلك!

- نعم بالطبع ستركض، لكن نحن من سنبقى واقفين مطوّلاً عند أقصى الحكاية، بالمناسبة ما هو اسمكِ؟

- كارلا، ماذا عنكِ.

- سُكّر وهو يحمل نفس المعنى لكلمة sugar باللغة الإنجليزية.

- جميل جداً.

- بل تعيس جداً.

- لكنكِ تستطيعين جعله حلواً كملامحكِ.

- لسنا دوماً بتلك القدرة الخارقة على تغيير بعض التفاصيل المورقة في حياتنا، لكن بقدر الإمكان نحاول التعايش معها بسلام، صدقاً أشكركِ كارلا على كلّ شيء.

- بل الشكر لكِ على منحي فرصة سماعكِ والتخفيف عنكِ، بالمناسبة لابدّ أن نلتقي مرة أخرى فلديّ الكثير لكي أقولهُ لكِ، هل ستتركين روما قريباً؟

- صدّقيني سأكون سعيدة بذلك، لا سأمكث بضعة أيام أخرى أيضاً، إذاً سيكون لدينا متسع من الوقت لنتحدّث يا كارلا.

- جميل جميل، حسناً هذا رقمي حدّثيني متى سمح لكِ وقتكِ بذلك، سأكون بانتظارك صديقتي.

- و هو كذلك.

* * *

كانت تمطر برجفاتٍ متعاقبة، بوفرة مهذبة، وبجماليّة فاخرة، كان المطر ينساب بين مساماتنا بلهفةٍ غريبة، كنت أشعر بتحريض الغيوم المباغت علينا بالحب، على دفعنا للتجوّل، للركض وللقفز بحركاتٍ بهلوانية مدهشة ليس بالضرورة أن نعي سببها، كنت أرغب في خوض غمار العودة نحو المراهقة بل الطفولة ، بل أن أعيش ما أنا عليه بمشاعرٍ فتيّة، أن أتحرّر من ترسّبات الماضي بخفّة قدريّة، أن أكون كروحِ كارلا الصبيّة، التي مهما مزّقها الإنتظار، ما زالت تنأى بنفسها تحت عذوبة الشتاء بابتسامةٍ ممتدة لأقاصي الحياة، كانت تتراءى أمامي الطرقات المبتلة بفتنتها القاتمة كلوحةٍ فنيّة، جمعت في منتصفها ملامح وجوه العالمين البائسة والعاشقة في آنٍ واحد بإطار مقدّس، بل كانت كحدثٍ سنويّ لا يمكنه أن يتكرر في العام المقبل بنفسِ جماليّة الحضور وبنفس الشغب، روما الأم، الرحم الذي من الصعب أن يجهض قصصهِ الغرامية دون معجزة تخلّد التفاصيل في شقوق الذاكرة، أخبريني أيتها السماء الشاهدة على بكاءِ روحي، أخبريني أيتها الأزقّة المترامية خلف جنحِ الظلام، أخبريني يا أشجارِ السرو المتضاجعة بين جنباتِ الفتنة، كيف لي أن لا أكترث بهذا الحزن البشري العارم والمتفشّي بين أوردتي بابتسامةٍ منكسرة؟ كيف لي التظاهر بها رغم كلّ التمرينات الفاشلة في خلقها من العدم؟ من أين آتي بابتسامة طارئة تعيد لي الطمأنينة الداخلية!!

رغم تموّجات الحنين ورغم فداحة الذكرى، لم يتوجب عليّ حينها أن أمضي بقيّة أيامي في التضرعّ للماضي، كان لابدّ أن أقابل كارلا، أن ألتصق بروحها الشابة وأن أحاول قدر الإمكان أن أقترب من شغفها بالحياة، قد تنتقل لي عدوى الإبتسام دون أن أدرك

ذلك، لم يكن عليّ حينها إلا مهاتفتها حتى أصافح أملها بالمشاعر، وبالحب المتجدد، جاءني صوتها ناعماً بلكنتهِ الإيطالية المترفة، بثقتهِ المفرطة بالجميع رغم الخيبة التي تجرّ بعدها عدداً مهولاً من الخيبات.

- هذه أنا سُكّر.

- هل تصدّقينني إن أخبرتكِ أني كنتُ بانتظارِ اتصالكِ.

- أعتذر على تأخّري، لكن فلتعلمي يا صديقتي بأنني ترددتُ كثيراً في مهاتفتكِ، لم أرغب أن أثقلكِ بوجعي منذ اللقاء الأول، لكنني الآن أنا على شفا الإحتضار، هل يمكنكِ أن تنقذيني من هلعي الثائر؟

- لا عليكِ، لن تثقلي كاهلي بل أنا من سأفعل ذلك معكِ، فكلانا يا سُكر مثقلتان بضعف الأسى وبضعف الحرائق، وليسَ علينا في هذه الحالة الحرجة من الوجع سوى أن نبدأ بتشريح الألم من عمق أعماقه بحذر، وهذه مهمة العابرين الفدائيّة، نعم التقينا ونحن متصالبتا الأعين، لكننا لم نعد كذلك فهنالك بداخلنا طوفان سيجرفنا نحو حتمية النهاية إن لم نسرع في إنقاذ أنفسنا، ولا يمكننا فعل ذلك طالما نحن بمفردنا، لذلك وجودك بالنسبة لي ضروريّ كما وجودي لكِ، أتعلمين لمَ؟ لأننا ننتمي لأعراقٍ مختلفة، كما لأننا حديثتا المعرفة بوجعنا، كما أنه لا يوجد بيننا أي ذكرى قد تربطنا بالصمت أو القلق حيال الإفصاح بحزننا لبعضنا، لذلك سعيدة بأنكِ الغريبة العربية الأولى التي ستلامس وجعي عن قرب، دون أن أحاول ستر عورة قلبي لها.

- دعينا نلتقي الليلة أمام هيجان المشاعر في المكان والساعة

التي تلائمك، فقط أخبريني بالعنوان في رسالة نصية، لأنني من الصعب أن أستدل على المكان دون أن يكونَ مكتوباً على شاشة هاتفي.

- حسناً الليلة عند التاسعة، أمام مدرج الكولوسيوم، وسأبعث لكِ تحديداً المكان.

- في انتظاركِ.

- كوني بخير حتى تلك الساعة.

أبحث عن شغبٍ لا يأبه لترسباتِ الذكرى، عن روحٍ تتزامن معها فجاجة الأقدار، أبحث عن تاريخ يستحيل أن تتقاطع معه هذه المرة، سأحاول معالجة صدعي قدر الإمكان، رغم كلّ الأسى العالق بالأنفاس، سأشهق الصعداء رغماً عني وعنك وعنّا.

أبحث عن قضيةٍ تهتمّ بتدجين الأحزان ومحاصرتها، أبحث عن نفسي بين هذا الكلّ من اليتم الفاحش، أبحث عنك رغماً عن ضجيج البكاء المتوقّد.

هنا بقدرِ المستطاع سأتعلّم كيف أقف على الحياد، وكيف أستطيع الخلاص من أحراش الظلمة، هنا في مدينتا الراقدة خلف الحكايا العتيقة سأقشّر ذاكرتي، جلدي، مشاعري وخيبتي، هنا سألتئم يا وافي، هنا سأحيا بميلادٍ تجهله، وهنا سأجعل من روزنامتي تحيا.

بينما الساعات تمضي هنا بمرحلةٍ مرهقة أمام المساء، كانت حينها الأقدار تحمل لي مفاجأة ستعطي لوجعي بعداً دراميا، لم تنتظر الحياة أن تلتئم نُدبي الدامغة بملاقاة كارلا حتى غرّرت بي قبل ذلك، من الغريب حقاً أن تجمعك بلادٌ لا تمتّ لكَ بصلة سوى أنك مجرد عابرٍ فيها بأصدقاءٍ لا تتوقّع مصادفتهم في هذا

المكان من العالم، من الموجع أن أهرب من ظلال وافي، من خنوعي لذكرياته ومن كلّ الأماكن التي عقدت معه صفقة ضدي، فأجد صديقه المقرب أمامي هنا، يامن الرجل الذي طالما كان ضد تصرّفات وافي وطيشه، وكلّ عبثيّته المقزّزة بنضجٍ أكبر بكثير من سنه، يامن بهدوئه وطموحه وكلّ نجاحاته المتكررة في عالم التصوير والطبيعة كان عكس وافي الذي لا يعيش من أجل شيء، والذي لا يطمح لأي أمر، مما كان يجعله رجلاً أجوفاً وفارغاً، كان يامن شاهداً على كلّ أحداث صدعنا المنهارة، كانَ الناصح، الأب، الداعي، والحانق على وافي، لذلك الآن أقف مشدوهة برؤيته هنا! وفي هذ الفصل الأخير من تمزّق المشاعر، إذاً كيف لروما الكبيرة أن تصبح صغيرة لهذا الحدّ؟ ولمَ اختار هو هذا المطعم بالذات الذي كنتُ أسابق الوقت فيه لرؤية كارلا؟ ولمَ كان على بعد طاولتين مني فقط؟ حاولت التظاهر بأنني لم أره، بينما كان هو يمعن النظر مرة واثنتين وثلاث حتى لوّح لي بيديه وهو يصرخ:

- سكّر هل عرفتني؟

لم يكن لي خيار من هذا المأزق سوى أن أبتسم له بإيماءةٍ تدل بأنني عرفته، لم يكتف بتلك التلويحة فقط، بل نهض من على طاولته وحملَ معه حقيبة كاميرته ليجلس على الكرسي المقابل لي تماماً بملامحٍ تبتسم.

الجميل في يامن بأنه لم يتورط مع حماقات الحب قط، لم تتمكن منه أي أنثى، رغم أنه كثير الأسفار والتنقلات، رغم أنه يملك من الوسامة ما يصيب أي امرأة للخنوعِ له، كان يمكنه بعينيه العسليتين وبعقدة حاجبيه، وبذقنه المهمل المثير، وبكلّ عروق

بده النافرة ببروزها، أن يكون سيّد العلاقات والمزايدات النسائيّة المتجددة، لكنه علمَ كيف يضع أمام قلبهِ الحدود الشائكة بينه وبين لنحاتِ الغرام، هذا الرجُل الذي كان وافي كثير الكلام عليه، كان بصيبه في كلّ مرة بمقتل، كان يخبرني بأنه قد يكون معقّداً، أو أن تكون له تجربة عاطفيّة سيئة ولا يمكنه أن يتجاوزها إلى الآن، لذلك من الصعب أن يشهق الحب مرةً أخرى، أو لأنه رجل بارد، وأخيراً وليسَ آخراً من سيل الإتهامات الجائرة بحقّ يامن، اعترف لي بأنه رجُل له مبادئ واضحة، يملك حدوداً ومناطق محظورة لا يمكنه أن يدهسها تحت أي ظرفٍ كان، وللأمانة أحببت هذه الرجولة الطاغية في يامن وهذه النظرة الثاقبة للمستقبل، كم كنت أتمنى أن يتأثر وافي به ولو بصورةٍ مصغّرة منه، لكنها بقيت مجرد أمنية، وها هو الآن أمامي بجذلٍ يتحدث ويسألني بهدوء:

- هل أنتِ هاربة من شيء؟

هذا السؤال بالذات جعلني أضحك بصورة هستيرية لم أكن أتوقّعها، لتظهر علامات التعجّب على وجهه، ثم تداركت مأساتي وقلت:

- وهل لابدّ لنا أن نهرب حتى نأتي إلى وطنٍ آخر؟

- بالطبع لا، لكنه الشتاء يا سُكّر.

- وماذا في ذلك؟

- ليسَ فصلاً للسياحة، وليسَ وقتاً مناسباً للإستجمام.

- و من قال ذلك؟ بحكم مزاجيّتي وبحكم جنوني المختلف عن سائر العالمين، اخترت السفر في هذا الوقت، فقط حتى أعانق الشتاء بوحده، لكن ماذا عنك؟

- أنا هنا لأحضر دورة المحترفين الفوتوغرافيين، وأيضاً لأنه فصل مثير للتصوير، وسيأتي صديقي خلال هذه الأيام ليطرد عني الضجر.

- جميل جداً، وهذا الأمر مدعاةٌ للفخر.

- وافي بعد غد سيكون في روما.

حتى روما والشتاء تتآمرانِ ضدي، وحتى عبثيّة الأقدار كانت لصالحكَ هذه المرة وفي كلّ مرة، ما قصّتك يا رجُل معي؟ ألهذا الحدّ يستحيل عليّ نسيانك؟ أو ألهذا الحدّ أصبحَ إجهاضك من رحم المنطق محرماً عليّ؟ إذاً لماذا تضعني الحياة دوماً في مواجهةٍ اصطدامية معك، ولماذا تجمعني بكَ المصادفات بجغرافيّةٍ أجهلها؟ ما هذا الخوف الذي يتفشى في أوردتي؟ وما هذه الرعشة التي تتملّك أطرافي؟ سأسقط هنا وعلى مرأى من الضعف! صدقاً لا أستطيع الرؤية بوضوح، الطرقات، الوجوه وحتى الأماكن المزدحمة المواربة مني أراها بصعوبة، ها أنت من جديد تقطع عني أنفاسي، وتقرع طبول نبضي من جديد، ها أنت تتملّكني بكلّ سهولة، وها أنا أتحوّل لطفلةٍ وديعة فقط لأنك هنا، وفي مكانٍ ما حولي، وكلّ ما عليّ فعله هو التظاهر بالصلابة وعدم الإكتراث، وهل سأحتمل رؤية ملامحك الحادة دون أن أمرّر يدي عليها؟ ياه كم هذا الإختبار العاطفي أصبحَ موجعا.

عندما قال لي بأنه سيكون بعد يومين هنا، لم يجد مني ردّاً، سوى أني جعلته يراني وأنا أهرب من أمامه، ومن المطعم نحو العدم واللامكان، تاركة ورائي كلّ محاولات النسيان والأمل بذلك.

قالتها أحلام مستغانمي في ذاكرة الجسد

«هنالك مدن لم تُخلق لتزورها بمفردك، لتتجوّل وتنام وتقوم فيها، وتتناول الفطور وحيداً، هنالك مدن جميلة كذكرى، قريبة كدمعة، موجعة كحسرة».

وكانت روما منذ خططنا الأولى، خارطة لمهبط وحي حبّنا وارتباطنا، كنا نعتدّ بجنوننا للحدّ الذي سرنا في شوارعها وعبرنا أقنيتها المظلمة في الخيال، وها نحن نشهق الحنين بدورة معاكسة للحب، ها نحن حقّقنا أمنيتنا التي كانت على كفِ عفريت لكننا هذه المرّة وحيدان، فارغان، مشردان من كلّ الامور التي كانت تربطنا بروما، لم نعد من أطفالها ولا حتى من عشاقها الحالمين، ها نحن نجوب جنونها بمشاعرٍ خامدة، وبأنفاسٍ هامدة سنتبرّك بذكرياتنا القديمة فيها التي كانت من الأساس مجرّد أخيلة اجتمعنا فيها ذات احتواء.

بطراوة الذكريات وبالقرب من تخبّط الأفكار، ها هو صوت نايا يتردّد على مسامعي، وها أنا أعيد فجيعتك وخيانتك لي، حتى لا تنكلّ بي حينما أراك، فقط حتى أستطيع مواجهتك بقسوة، لأنني على يقين بأنك ستحاول استمالة قلبي من جديد، وأنا أعلم بأنك قادر على فعل أشد من ذلك، خصوصاً وأنا هي الساذجة بحبّكَ منذ اللهفةِ الأولى.

أليست كلّ الطرق تؤدي إلى روما «Tutte le strade portano a Roma»، بل أصبحت كلّ الوجهات تؤدي لذكراك.

ما زلت أذكر تلك الليلة الدائخة، وكيف اتّصلتْ بصوتٍ مرتبك وهي تحادثني بطريقةٍ تخفي ورائها كارثة عاطفية ستعصف بي وتقصف، حينها أخبرتها بأن طريقة الكر والفر التي تحادثني بها

لا تلائمها، وأن تخبرني بمَا تريده، ويا ليتها لم تخبرني ولم تتواجد هناك من على مرأى طاولتين وخيانة، يا ليتها لم تكن شاهدة على غدر وافي لي، يا ليت الأقدار حينها باعدتها عن ذلك المقهى وجعلتني أعيش ما تبقّى من ذلك الحب المنتهي بضعة أشهر أخرى، ففي جميع الأحوال كانت علاقتنا على شفير الهاوية وفي مهب الريح كنتُ سألقي به، لكنه تدارك الوضع سريعاً، ولم ينتظر أن ينتهي حبنا العظيم والصبور، حتى يلجأ لأخرى، وهو يعرج بتفاصيلنا المعلّقة على مرمى الخذلان، ما زالَ صوتها يرنو إلى الآن فوق مسامعي وهي تقول:

- سُكّر واافي هنا.
- هنا أين؟
- في المقهى.
- جميل، وما المشكلة؟!
- هل أنتِ غبيّة، هذا القسم مخصّص للعوائل فقط.
- .....
- سُكّر واافي الحقير يخونكِ مع أخرى، الآن سأصوّرهُ لكِ لتتأكدي من قولي.

لم أحتمل حينها المزيد، فأغلقت هاتفي نهائياً عن كلّ الأمور الموجعة والمفزعة، كنت أنتظر منه أي شيء، ما عدا الخيانة، للأسف يخونني ونحن في أرذل العمر العاطفي، بلا أدنى احترام لمشاعري المرهقة المتفائلة على أملٍ قد يعيدنا من حيثُ كنا، فتلك الكارثة العشقية والتبجّح في كلّ تفاصيلنا، لا يعني لي سوى أنه دهسني قبل الحب، وقبل الذكرى القديمة والجنون الأول، لا يعني

لي سوى أنه وأَدَني وأنا بالحياة، لذلك كان لابدّ لي أن أبتعد مع ما تبقّى لي من فتات الكبرياء والأمل.

الآن فهمت ماذا كان يعني سؤاله المفخخ الذي خيّرني بينه وبين طموحي! فقط عندما اخترت ذاتي، إبتعد لأيام ثم لأشهر كما ابتعدت أنا، لكنه في تلك الفترة كان يلهث خلف النساء ويلهو، بينما أمضي أنا ما تبقّى من عمري في البكاء وندب شغفيْ بالنجاح الذي سيكون سبباً في فراقي عن رجُلي.

كان يبحث عن أخرى بل أخريات يملأن عليه فراغه الكبير، فهو رجُل اللا وقت واللا مكان، يأخذ من كلّ نزوةٍ ما يسدُّ جوعه في الليالي العجاف، لم أكن غبية على الإطلاق فأنا صفعت ساديّته للتملّك بأنوثةٍ مفرطة، لم يستطع المقاومة ولم يلبث حولي محاولاً فرض حصاره بشتى الذرائع العاطفية، فهو أدرك هذه المرة بأن لا مناص له من نجاحي عليه، وككلّ مرة كنت أصيبه بالدهشة، لذلك تركني بكلّ طموحي وذهب يحبو نحو الخيانة بكلّ قذارة.

لم يكن لديّ الوقت حينها للإلتفات أو البكاء الطويل عليهِ أو عليّ أو حتى علينا، لم يكن أمامي سوى أن أدع جراحي تنزف بمفردها وأحاول السير بقامةٍ لن ينقصم ظهرها من شدة الوجع، كان عليّ التظاهر بالقوة وأنا أكشط من فوق الوجع الخيبة، كان عليّ الكتابة للنساءِ الجائعات، اليتيمات، الحمقاوات، الوحيدات، المشرّدات، المخدوعات والعظيمات حتى، كان عليّ معانقتهن جميعاً من بين الأسطر بكلّ نحيبٍ وحب، لم يكن يسعني ولا حتى ليسعفني الوقت للتنكيلِ بهِ أمام مرأى من نسائه، لذلك كان طريقي محفوفاً دوماً بكلّ ذكرياتهِ المريرة.

لذلك من الصعب أن أكون مثل زوجة دزرائيلي، وأرضى بأن يكون لرجُلي أكثر من علاقة وأكثر من امرأة تملأ له مشاعره وفراشهِ، من الصعب أن أصفّق لرصيده النسائي الذي يتضاعف بعد كلّ غارة عاطفية ثم أصفه أمام الملأ بأنه عظيم، قالت عبارتها الشهيرة وهي دائخة ومولعة بزوجها:

«اخترت من كلّ الطيور نسراً عظيماً، فكيف يكون نسراً إن لم يطر، ولا يمزّق ملابسك بمخالبه ولا يهدّدك بمنقاره، وكيف نحاسبه على أنه يعيش في القمم، وأن رائحة الدم تفوح من ريشه الطويل الجميل؟».

هذا الرجل كان رئيس الوزراء البريطاني، الذي تقلّد مناصب عدّة وتسلّق السياسة بفضل الأيادي الناعمة وأرصدتهِ النسائيّة المتجمهرة حوله، حيثُ قال لأصدقائه بعد وصفهم له بأنه كان مجرّد انتهازيّ وحقير واستغلاليّ:

«دلّوني على طريقة أخرى لكي ينجح أي سياسي؟ لذلك تحدّث دائماً إلى المرأة في أي مكان، ولا تكفّ عن الحديث إليها ومعها وعنها، سوف تكون حديث المدينة، سوف يتضايق منك الرجال، إستعن بالمرأة أيضاً، سوف يكون لك نفوذ، لا تحاسب نفسك على كلّ ما تقوله للمرأة، ولا تكن حساساً، قل ما شئت في أي وقت، لا تخف فالمرأة تريد أن تسمع الكثير عنها وعن غيرها وعنك ومنك».

فأنا لا أستطيع التصفيق على هذه المهزلة العاطفيّة حتى وإن كانت باسم الحب، فالحب بالنسبةِ لي لا يقبل المناصفة أو المساومة، فهو اللحظة الفارقة لأفكاري، لمشاعري، لعالمي، ولبقائي

على قيدِ الدهشة.

فأنا لم أتخلّص منه إلا في روما.

* * *

- إحكي لي عنه، فقط لِتُخرجي زفير الليالي الحالكة عنكِ.

- و هل سينجح الأمر؟

- لا تنتظري نجاحه، بقدر ما تنتظري السكينة.

- وماذا أفعل بجثّة الوقت؟ وبغبار التفاصيل المتراكمة فوق قلبي؟

- لا عليك سأعيد تأثيثه لكِ من جديد، وسنختار الألوان سويّة، لكن كوني على علم بأنه سيكون لي في قلبكِ مساحة مقدّسة، بعد كلّ هذا الجهد.

- هذا أقل ما تستحقه إن نجحت في تأثيث وترتيب فوضاي.

- إذن إتفقنا، هيّا احكي لي بكلّ فوضوية وعبثية وبدون أي ترتيبٍ قد يجهدك في استحضار التفاصيل، ففي كلّ الأحوال سأكون معكِ هناك، وتحديداً كظل كان يرافقك منذ البداية.

- لا أحب أن أعطي البدايات بعداً دراماياً بقدر ما يستهويني أن أخلّدها بلحظتها المتأججة والمفعمة بالتوق والنشوة والشهوة، هكذا بكلّ بساطتها أكتبها، وبكلّ لحظاتها العابرة وبنزقها أدوّنها بين تفاصيل التفاصيل، تختلف الحكايات بقدر ما تختلف الشخوص فيها، لكننا نتقاطع كلّنا عند أعتاب الجنون أو الغباء، فمن بينهما تكتمل دورة الحب بكلّ طقوسها الطبيعية، لكن طقوسي مع وافي كانت تميل للغرابة والحداثة.

كان رجلاً مختلفاً، أو قد يكون كذلك بالنسبةِ لقلبي فقط،

فقد كان به من العيوب والأخطاء التي لا تغتفر، لكنّي باسم الحب غفرتها له ككلّ الحمقاوات، وهذا الأمر المعتاد والذي أصبح روتينياً ومتكرّراً بصورة كربونية وليس فيه من الغرابةِ شيء، لكن أن ينقلب حاله من السيء للأسوأ ثم من الأسوأ للأفضل بلا نهاية، هذا الأمر هو الذي جرفني للهاوية وللوجع بلا هوادة.

لذلك أصبح ذلك الحب الذي طبع ندبته فوق قلبينا غريباً، حتى الآن لا أعلم كيف في كلّ مرة كنا ننتهي من حيث نبدأ، ونبدأ من حيث نرحل، ثم نعود من حيث نجهل؟ قد يكون خضوعي المستمر له منذ بداية انفجار حبي الصارخ، أعطاه الحق الكامل للبّ قلبي من حيث أُهزم وأضعف، فشعوري بالهوان الذي كان يخلّفه غيابه المقصود كان يؤلمني، كنت في كلّ مرة أعود إلى ادراجي وأطفىء حرائق ثورتي بمفردي، فقط حتى لا يبتعد عني، فقط حتى لا يتركني وحيدة، غريبة وضائعة.

كان هو الرجل الوحيد القادر على إضحاكي بصورة هستيرية وإبكائي بضعف تلك الصورة المأطّرة بهِ، كنت قبله فتيّة بطموحي ونجاحي وعقلي، لا أعلم كيف استعبدني من لفحةِ حب؟ لم أكن أحاول في بدء الأمر أن أعترض إزاء أي قرار يأخذه لمستقبلي، كنتُ كبقية الغبيّات سعيدة بإدارتهِ شؤون حياتي وتفاصيلي الدقيقة، لكنه بتلك الطريقة الصريحة كان يُطوّق تحرّكاتي، أحلامي، وحتى كتاباتي بهِ، كان يضعني تحت مجهر عينهِ على الدوام.

كنتُ كتلك الطفلة السعيدة التي ليس عليها أن تقلق على حياتها القادمة، بل كان عليها أن تركض وأن تضحك بِنَهم، وليس عليها على الإطلاق أن تفكّر بعقلها لأن ذلك الأمر يعتبر رفاهية

مطلقة لمن لم يجتاحهم الحب بعد، وأنا امرأة عاشقة من رأسها حتى أخمص قدميها، لذلك كنتُ أركل عقلي وكلّ تلك الأمور الواضحة للعيان فأغمض عينَ واقعي عنها، حتى أترك لعينِ الحب الحياة، لم يكتف هناك فحسب بل شيئاً فشيئاً أصبح يضيق عليّ الحصار، أصبح شعور الذل فيّ يتصاعد، وأصبحت مجبرة على حبه، ومجبرة أكثر على السير معه بكلّ امتعاض وسأم، هل كرهته حينها؟ أم بعدها؟ أم الآن؟ لم أذكر حقيقةً متى كرهته بالتحديد، فهذا الشعور الوحيد الذي كنت بحاجة لأن أشعر به حتى أبتعد، حتى أختفي، وحتى أقولَ له إلى الجحيم أنت وذكرياتك، لكن لم أستطع أن أكرهه، بل بدأت أحبّه ضعف ذلك الحب، وكأن صورة الجلاد التي ارتسمت فوق ملامحي وبين حياتي، بدأت تغريني وتثيرني!

أحببته بملامحه القاسية بخوف ما كان عليه، حاولت في سنة خطوبتنا الاولى أن أفصل ما كنا عليه قبل الخطوبة وما بعدها، وبدأت أقنع عقلي بأن الرجال وبطبيعة الحال حتى النساء، قد يتبدّلون بعد الإرتباط بطبيعة الحياة والظروف وكلّ ما يثقل عاتقنا، ونجحت في استيهاماتي الساذجة، وأعطيته دوراً لا يناسبه.

حاولت أن أثبت له بأن لا شيء يستحقّ الشك وكلّ هذه الغيرة المفرطة، ففي نهاية الأمر أنا كاتبة، وهو أحبّني لذلك وكان شاهداً على كلّ نجاحاتي، لِمَ انقلبَ رأساً على عقب، فقط بعدما ارتبطنا؟ بل تحديداً قبل موعد عقد قراننا؟ أهو لإرضاء رجولته؟ أم ليتأكد بأنه ما زال يتحكّم بزمام الأمور، وبأنه ما زال يتملّكني؟

لذلك كانَ يحاول قمعي واضطهادي كلّما سنحت الفرصة

أمامه؟ حينها كلّ شيء بدأ بالإنفلات والخروج عن السيطرة، بل عن سيطرته بالذات، لم يعد قادراً على ردعي، لأنني ببساطة قد نضجت ألف مرة قبل فوات الأوان وقبل أن يتمّ زواجنا، أدركت حقيقتي التي أنا مقبلة عليها، بأن دور المرأة الناسكة لزوجها ومنزلها فقط والمجرّدة عن كلّ ما يربطها بذاتها وأحلامها وخيالها الكتابيّ لا يناسبني، لا يناسبني أن أرتبط برجلٍ لا يغريه عقلي، تفكيري، وكلّ ما أطمح له وكلّ ما أنجزته وما سأنجزه، لا يغريه إلا كيف سأكون معه في الفراش وكيف سأعلّم أطفالنا، وكيف سأدير منزلنا وكلّ تلك الأمور الرتيبة والتي تصيبني بالغثيان والدوار ولا تلائمني.

أنا امرأة تعتدّ بعاطفتها الضمنية كثيراً، لذلك لم يكن من اللائق لقلبي أن أغرم برجلٍ لغته قاطعة، فأنا لم أشعر بالهوان قط إلا معه، لذلك يصعب عليّ الصمود طويلاً أمام ذكراه وحبّه الضال وأمام كلّ تلك الأحداث الموجعة دون أن أسقط، أهرب وأرحل بفجيعةٍ وأسى.

- هذا الوحم العاطفيَ، وكلّ هذا التملّك التي قد يوضع تحت مسمى «السادية» هو أمر يحدث للكثير من العشاق بكلّ أسف، حبهم الذي بات يتضخّم ويتفشّى بين الأوردة ولم يعودوا يستطيعونَ في مرحلةٍ ما كبح جماحه، وفصل الحب عن كلّ الأمور الدنيوية والتي لابد أن تحدث حتى يتحقق التكافؤ العاطفي، وهذا ما يقع في فخّه الرجال وتكون ضحيته النساء غالباً.

الرجل عندما يعشق يتصوّر بأن من يحب لا تريد من الحياة سواه هو فقط، لذلك لابدّ لها من وجهة نظره أن تتخلى عن عقلها، طموحها، أحلامها وصديقاتها المقربات،حتى وإن اضطر الى

تحريضها عليهم، بل يبعدها عن كلّ ما يربطها بالعالم الخارجي، فقط لتثبت لنفسها قبل أن تثبت له بأنها وفية وممتنّة لكلّ حبّه ولارتباطهما، وهذا الخطأ شاركت به النساء أيضاً، لأنهن بهذه الصورة الراضخة وضّحن للرجال بأن أمر طموحهنّ وأحلامهنّ ما هي إلا أمور عارضة وغير مهمّة لذاتهن، وفي الحقيقة هي عكس ذلك تماماً، لذلك على الرجُل أن يعطي لأنثاه كلّ الحق في العيش لتحقيق ذاتها كما ستعيش لحبّه، فهذه الحياة لن تستمر بالحب فقط، هنالك فكر، ثقافة، واجبات دنيوية، وأيضاً ذات تصرخ لإثباتها والعلوّ بها، تحت سقف الحب فإما أن نصبح عظماء أو أغبياء، وأغلبنا يتحوّل للشق الثاني منها.

- يااااه وكأنكَ عشتَ معي تلك اللحظة بكلّ مرارتها وفزعها.

- ألم أقل لكِ مسبقاً أني سأكون كظلٍ لكِ من أقصى البداية وحتى النهاية؟

- أمركَ غريب.

- و هذا مدعاةٌ للفخر.

-أشعر بأنك كنت تشاطرني الماضي، كنت ترمقني باهتمام، كنت ترشف وجعي، سهري وانتظاري، بدأب!!

- من فرط الشغف والحب، قد نشعر بأننا تقاطعنا ذات احتواء مع من نحب في زمنٍ مضى، قد نشعر بشدة قربهم وتلاحمهم العاطفي بنا، وبأننا عشنا معهم خلف اللا وقت، واللا مكان، هنالك وتحديداً حيث لا نحن، فقط مشاعرنا ترقص بدوننا، تغنّي وتضحك منّا دون علمنا.

فلسفة الأرواح والعدم الذي ضاجعناعلى حين غرّة منا، فلسفة

معقّدة قد لا نعيها إلا عندما نشعر بمثل هذا الشعور الذي تشعرين به معي وفي ذات الوقت أبادلك ضعفه، لأنني أراك منذ الحرف الأول والقراءة الأولى التي أوقعتني بك، رأيتك عارية امامي، مجرّدة من ثياب مثاليّتك الفضفاضة، مثيرة، شهيّة بتناقضاتك، بأوجاعكِ، وبغبار الذاكرة الذي تفشّى فيكِ، فهمتكِ دونَ أن أسمعكِ، شعرت بك دون أن أعانقكِ، انتفاضتكِ وربكة القلم وفمك المزموم بعصبيّة بعد كلّ قراءة قد تستفزّك كنت أشعر بها، هذا التخاطر وتوارد الأفكار بيننا دون أن تدري جعلني أقيم عليكِ جنوني، وأرابط عند بريدك دون أمل ودون غاية تذكر، فقط كنت بحاجة أن تشعري بأن هنالك ما يستحق أن يعاش، وبأن الذاكرة مهما كانت مقيّدة قد نطلق سراحها فقط إن أردنا نحن.

* * *

من بعد انصهار تلك الحالة العشقية بمحاذاةِ الفجيعة، لم يكن أمامي سوى كارلا، سوى البكاء أمامها بطفولة، بمراهقة، سوى أن أستنجدها لمساعدتي، للوقوفِ معي، ولنجدتي من الوقوع في البؤس العاطفي أكثر، لا أعلم ما أنا آيلة إليهِ بعد هذا، لكن كلّ ما أعلمه هو أن أعيد ترتيب أنفاسي بهدوءٍ لا أعلم كيف سأحظى بهِ الآن، لذلك سرتُ مطوّلاً بين الأزقة والمقاهي، بين المطاعم العريقة وبين الكنائس، سرتُ بينَ خيبتي وبكائي بحبّ معتّق، سرتُ أكثر بكثير من تعبي المنصرم كمشرّدةٍ تبحث عن الدفء، عن كسرةِ خبز، سرتُ للماضي بمستقبل نحيل يكادُ يُقصم ويُبتر، سرتُ نحو لقاءِ كارلا أخيراً بملامحٍ رثة وأفكارٍ ضبابية، وبتلك النظرة المشوّشة عانقتها بشحوب، بغرابة وببرودٍ انتفضت بسببهِ أطرافي، عبرَني

صوتها كالرياحِ الموسمية المباغتة:

- ما كلّ هذه الوفرة من جلدِ الذات يا سُكّر؟ ما بها ملامحكِ، صوتكِ ونظراتكِ الضائعة بين الوجود؟ نعم اتفقنا على أن نتحدث مطولاً عنّا، لكن لم أكن أتوقع بأنكِ قد تسابقين البكاء باحتضارٍ خالص!! أخبريني الآن ما الذي قادكِ إلى هذه الحالة الحرجة من الضياع؟ أخبريني قبل أن تصاب التفاصيل بالعثة.

شددتُ يدها بقوةِ جزعي وبأنفاسٍ متقطعة أجبتها:

- إنه هنا أو بمعنى أدقّ سيأتي، سيأتي يا كارلا، أنا على ثقة بأن الأقدار ستجعلنا على مقربةٍ من التوق، أنا على يقين بأنني سأقع في كمين المصادفات رغماً عني، ستتصلّب نظراتنا وسأكون حافية من المشاعر، بل سأكون مكتظة بها، لا أعلم، هل تفهمينني؟ هنالك تداعيات كثيرة تكبّلني كما أنها تجيد محاصرتي وخنقي، لا أستطيع تحمّل لغم الحياةِ أكثر، لا أعلم لِمَ سيأتي في الوقت الذي أحاول فيهِ نفض غبار الماضي عن قلبي؟ لِمَ عليّ الركض دائماً نحوهُ دونَ أن أدركَ ذلك؟ أتفهمين ما أشعر بهِ يا صديقتي؟

- قد يكونُ هذا خيراً لكما، قد يكون كذلكَ فعلاً يا سكّر، بعض المواجهات العاطفية المتأخرة ما هي إلا بداية لنهاية حتميّة، بل ما هي إلا بداية للنسيان، لا تنظري لها من زاوية ضيّقة، أنتِ تركتِ خلفكِ وطنكِ المتكاثر بهِ، لتهربي ولتأتي إلى هنا، وحيدة وغريبة، وانظري ماذا خبأت لكِ الحياة من مفاجآتها الكارثية، بأنه هو أيضاً سيترك وطنكما وسيأتي إلى ذات الأرض التي تحاولين تنفسّ الصعداءَ فيها بسكون! أرأيتِ بأن لا مناصَ لكِ من الإختباءِ أكثر؟

- نعم، نعم أدرك ذلك، كما أني أعي حجم هذه المخاطرة الإصطدامية، وبأن لا فرار لي منها، لكن أخشى علينا من إضرام الحرائق بين ذاكرتنا أكثر، أخشى أن يكونَ فراقنا منزوعاً من الحياة،أخشى من أن تدفنني الحياة أمامه بغبنٍ وخنوع، أخشى الكثير والكثير ولا مجال أمامي لذلك، يومان وسيأتي،احتضاران ثم تأتي بعدها الموتة الكبرى، لا عليكِ، سأتحسّن، أنا أثق بذلك، لن تتحطم آمالي أكثر، ولن أتخاذل في السير نحو ما أصبو إليه بخيبةٍ أخرى، سأكتفي بهذا القدر من الوجع، لأقف، لأنهض ولأنجز جميع الأمور التي عليّ إكمالها، لذلك لابدّ لي من مواجهته إن جمعتنا الأقدار قريباً دونَ تردّد.

- هذا ما كنت أنوي سماعه، لكن لم أعلم لماذا تهربينَ منه؟ ولماذا افترقتما؟ وكيف علمتِ بأنه سيأتي لروما وتحديداً بعدَ يومين من الآن؟

- ألم تقولي لي سابقاً بأننا بحاجةٍ للغرباء حتى ننفض أمامهم الأحزان دون حذر أو حتى قلق، ليسَ من الضروري يا صديقتي أن نتحدّث في عمق التفاصيل حتى لا يؤذي فتات الرماد عينيكِ، من الجميل أن لا نشرّح رحم الذاكرة أكثر، حتى لا تصبح الذكريات عارية أكثر مما هي عليه، لكن ماذا عنكِ؟

- لا أعلم من أين أبدأ أو كيف ستتشكّل البدايات لأخبركِ عنه وعني، لكن قبل أن أحشر الكلام أمامكِ، لابدّ أن تتدحرج الأحرف في فمي، بل يجب أن ألوكها كثيراً حتى تأتيكِ بهيئةٍ بعيدة كلّ البعد عن قبحها الداخلي، لكني لا أجيد تحمّل أن تتمطى الأنفاس بداخلي أكثر، فهو مصاب بالسرطان، كما أنني كنت وما

زلت عاشقة لرجلٍ معتدّ ببطولته الطويلة ضد الموت، عاشقة لرجلٍ يبارز الحياة بابتسامةٍ ممتدّة لأقاصي الأمل، لذلك عليّ الضحك أمامه طويلاً، كما عليّ القفز والرقص والغناء والتظاهر بعدم الخوف، بعدم القلق،بعدم الفزع خلف أي سعالٍ يصيبه أو بعد أي علاجٍ يتعرّض له، أو حتى أمام أي تغيّر يحدث لبشرتهِ، لشعره، لجسده الضئيل ولكلّ ملامح الفرح التي بدأت تستسلم للشحوبِ شيئاً فشيئاً، عليّ حقنه دوماً بجزيل الحب، بجزيل التفاؤل، لذلك وجدتني ذاك اليوم طاعنة باليأس، خامدة وناشفة، فهذه الأيام العجاف أصبحت لا تضاهي وجعي، فهي دوماً قادرة على وخزي من حيث أسقط، ورغم كلّ هذا عليّ الوقوف بقوامٍ لا يعرف معنى الإنحناء للنهاية، فقط من أجلهِ هو، بتُ أركض نحو المستحيل حتى لا أخسره في لحظةِ بكاء، أرأيتِ بأن وجعكِ أخفّ وطأة من وجعي يا سُكّر، لذلك أخبرتكِ بأنه لا يتوجّب عليكِ رؤية مصيركِ العاطفي من زاوية مقنّنة، بل دعي نظرتك تتّسع بل تتعالى نحو الأفق بالكثير من الأمل، لا تتسارعي الى التهكمِ دوماً، بل خذي من المصائر المباغتة ما يدفعكِ للمضيّ قدماً دون أن تتوقفي أمامَ محطة الراحلينَ كثيراً.

هل لأننا من أحزابِ البكاء باتت الحياة تختبرنا كثيراً! بل تُقلّبنا بين نهاياتها كالرحى؟ لا أعلم كيف أنمّق عبارتي، بل كيف أبهرج الأحرف المتخاذلة أمامَ صدغ كارلا، لا أعلم كيف تصبح بل تكون المواساة وهي على شفا الموت! لا أعلم ما يجب عليّ قوله أو ما يجب عليّ عدم التفوّه بهِ في هذه اللحظة الطارئة من وجل الحب، لم أستطع سوى أن أعانقها بدموعٍ تحترق خلفها المشاعر، فبعض

المواساة تأتي على هيئةِ عناق، أفضل بكثير من دوخةِ الكلمات الباكية.

* * *

«لا ترفل بتفاصيلنا الصغيرة، ولا ترمق الذكرى بأسى، فنحن ما عدنا صالحين للقاء».

لم أسر في طرقات روما إلا في مرحلةٍ متأخرة من اليأس، من الهروب ومن الوحدة والضعف، لم يكن في نيتي أن أذهب لشارع دل كورسو في ذلك الوقت المتأخر من ليلٍ ممطر وقارس الحنين، لذلك لا أعلم لِمَ قادتني خطواتي المضطربة لأن أجوب حولَ مطاعمهِ المزدحمة؟ أن ألقي ابتسامة ازدراء على كلّ العشاق والمنكوبين عاطفياً، ولا أعلم لِمَ اخترت أن أنكفئ على خوفي فوق ذاك الكرسيّ الخشبي وأبكي في منتصفهِ علناً؟ وكأن السماء حينها كانت تبكي من أجلي أو تبكي معي! لم أحتم من دمعها بمظلة، ولم أرغب بأن أتظاهر بالنشوة، هذه فرصتي للصراخ، للنحيب وللضحك بجنون وبكلّ حرية، هنا لا أحد سيمنعني من ممارسة إنسانيتي الصامدة بقلق، لا أحد سيربّت فوق قلبي المنتفض عشقاً بجسارة، ولا أحد يستطيع أن يجبرني على النهوض حيث يقبع حزني، فهذه فرصتي بمحاكاة موريات وجعي الأخرس تحت المطر، وبين المطر، لم أتكهن مطلقاً بأن الأجواء الشتوية بهطولها المتدفّق، قد تكونَ ضرباً من مصادفة واجتياح، لطالما كان هطول التوق يغرّر بي حدّ التناثر، لذلك لم يكن في الحسبان ما كان وما سيكون، لا أعلم كيفَ جاءتني بكَ الطرقات، الشتاء، والأجواء الممطرة عاتياً،دافئاً وجانحاً؟، لا أعلم لمَ أنت الآن تقف أمامي حانياً وضعيفاً؟ ولماذا

ما زالت متوقدة بك، رغم كلّ شيء؟ ولِمَ ما زلتُ أنزفكَ حباً؟

لم يكن من السهل عليّ، أن نلتقي تحت بكاء السماء، أو بين بكاء قلبينا، لم يكن من السهل أن أراكَ أمام رعشةِ اللقاء وبعد غليانِ المشاعر، لم أتصوّر أن تكون هنا، على بعدِ دمعة مني، وعلى قربِ شهقة، ما يفصلني عنك هذه المرّة ليست الحدود المكانيّة، بل جغرافيّة الخيبة الفاخرة هي من تبعدني عن ذراعيك، صدرك، وأنفاسك، ومن كان يتخيّل أن نلتقي على أرصفة روما وتحديداً في منتصف شارعنا المفضّل؟ أهي الأقدار بكلّ عبثيّتها وسطوتها؟ أم بكلّ حنانها وأمومتها؟ لا أعلم ما الحكمة من هذا الفزع، لكن لن يكون سوى نذير شؤم.

حينها وبنظرة خائفة سقطت من عينكَ دمعة راكضة، فاقتربتَ من هلعي، من رجفاتي المتعاقبة، ومن حواسي المعطّلة، أخبرتني بالكثير والكثير مما تضمره، حاولت أن أبعد عينّي عنك، أن لا أشهقك بكلّ ذلك الوضوح الفضائحيّ، وأن لا أبكيكَ بصورةٍ صارخة، لم أستطع، كلّ قواي المنصرمة خارت أمامك في لحظةٍ دامية.

هذه الملحمة العاطفية التي تشدّنا للحديث، للمعانقة، للشتم، للمشادة الكلاميّة، وللصراخِ بخيبة، ما كانت لتجعلنا نمرّ بمحاذاة نبضيْنا بسلام، لذلك أتيتني وأنت عاقد حاجبيك كما أحبّ، لكنك هذه المرّة كنتَ خائفاً، ومتوتراً وهزيلاً، ملامحكَ كانت باردة وزرقاء أهو بسبب الطقس؟ أم بسبب غيابنا الآسن؟ لقد هرِمنا في أشهرٍ بسيطة، ألهذا الحدّ أخذ منا الحب ما أخذه مع الغياب وتركنا مفلسين من كلّ زحام المشاعر؟

حينها اقتربت بصوتك من سطحِ ضياعي وبكائي، وتمتمتَ بصوتٍ متقطّع وبأنفاسٍ هامدة.

- هل أنتِ بخير؟

يااااه كم من الأسئلة الإعتياديّة قد تأتينا ثقيلة بكلّ جنائزيّة وغرابة، للحدّ الذي يلقي بنا في خضمّ المواجهة بكلّ فجيعة، كيفَ سأجيبكَ وأنا بداخلي مدنٌ تحتضر وشعبٌ ينتحر؟ كيف سأخبركَ بأن كلّ الخير قد رحلَ معك، ولم أعش سوى الوحشةِ من بعدك بكلّ شر؟ كيف سأتظاهر باللا شيء وأنتَ كنتَ وما زلتَ كلّ شيء!

لم يكن أمامي سوى أن ألقي الغارات الغاضبة عليك، فأنا بكلّ حب ما زلتُ أترنح بخيانتك وخذلانك، ما زلتُ امرأة مغدورة في عينِ الحب، على أقلّ تقدير، وأحتاجُ للكثير حتى أشفى منك، لذلك ببحةٍ متضرّعة للمطر قلتُ لك:

- كنتُ كذلك قبلَ أن أراك.

- صدّقيني فهذا خارجٌ عن حدودنا، الأقدار جمعتنا قبل الزمان أو حتى المكان.

- لم أعد أصدّقك، وهذه المصادفة ما هي إلا آخر فصل من فصولِ دورة الحُب، وختامها أصبح مثلجاً وشتوياً.

- قد تكون هي البداية.

- بل شهقة النهاية.

- لستِ أنتِ من يقرّر ذلك، ولستِ أنتِ المسؤولة عن طمسها وإبادتها، الأقدار هي من ستتكفّل بسير تفاصيلنا.

- من الجميل أن أجدك ما زلتَ مناضلاً ومؤمناً بالقدر، لكنّك

لم تأسف على خيانتكَ وإيلامي عنوة.

- اللحظات القادمة ستزيل الستار عن كلّ الأمور التي كانت موجعة، ومهما حاولتُ تبرير ما وقع لن يكونَ إلا محاولة استجداء بائسة لمشاعركِ، وأنتِ لستِ بحاجة لها.

- من المؤسف أنك ما زلتَ تقف أمامي والقذارة تتلبّسكَ.

- و من المؤسف أن تخدشي لقاءنا الدائخ بارتطام مدويّ.

- لم أتوقع على الإطلاق أن تكونَ بهذهِ الجرأة، وأن تأخذك الخيانة مأخذ الثقة بنفسك، ألهذا الحدّ رصيدك النسائيّ مزدحم؟ ولا يسدُّ جوعك امرأة واحدة؟ ماذا كنت تنتظر مني أن أخذك بين ذراعيّ؟ أم أن أصفّق لك أمامَ تجمهرِ الغرباء والعابرين؟ أم أنفض غبار التفاصيل القديمة بكلّ حبورٍ وجذل؟ فقط لأنكَ أمامي! وفقط لأن الحياة جمعتني بكَ في مدينتنا المثيرة، لذلك يتوجب عليّ أن أصافحك بل أن أُقبلّك حباً وإشتهاء! أم يتوجب عليّ أن أمسك بيدك وأشير بإصبعك بأن هذا الشارع كم سرنا فيه بالخيال، وذاك المطعم كم تمنيّنا أن نتذوق فيهِ البيتزا، أم أرصفة روما وأزقتها المثيرة للعناق والحب كم ركضنا فيها بين الصور! أخبرني ما الذي كنتَ تتوقعه مني؟

- لم أتوقّع كلّ ذاك الزخم المكتظّ بالحب، فأنا أعلم بأن المسافات بيننا قد تباعدت، لكنها إلى الآن ما زالت تجمعنا وتُقرّبنا رغماً عنّا، وهذا عزائي الوحيد أمام كلّ رتوش الفراق والخذلان، لكن فلتعلمي بأن الأمر لم يكن كما تصوّرتِ أو خُيّل لكِ، فقط كلّ ما أريدهُ أن لا تبتعدي عني وأنتِ تقبريني بالحياة، دعيني أعيشُ فيكِ بذكرى بريئة، تَرفّعي أنتِ عن كلّ سوءاتي وتغاضي عن خطيئتي التي

لا تُغتفر لكن حاولي ذلك، أنا أعلم بأن ما أطلبهُ كثير، لكني أعلم بأن سُكرَيّتي لن تجعلنا ننشطر من الحياة ومن بعضنا دون أن نتمنى الخير لكلينا.

- من أجلِ مدمعي، ومن أجلِ كلّ الذكرياتِ الطاعنة بكِ، أقولها لك، أنا الآن أصبحت متصالحة مع نفسي ومعك، ومع كلّ الليالي الآسنة ومع كلّ التفاصيل التي شبت فوق صدري الحرائق، لذلك ها أنا أصافح نهايتي الحامضة بك على مضض، لكن لا أريد من الأقدار أن تجعلك تحوم حولي مرةً أخرى، حتى وإن كانت مصادفة عابرة، لذلك دعنا نسابق الأيام القادمة في مضمارِ الغياب بدأب.

- لكِ ذلك، لكن كما قلتُ لكِ، بأن الأقدار هي من ستقرر ذلك عنّا، الآن خذي هذه المظلة فأنا لا أحتمل أن تطأي الشوارع وأنتِ على بلل، كوني بخير.

لستُ بذلك البؤس العاطفيّ الذي تتوقّعه حينما تركتني خلف جادّةِ الحُب أتسكّع بمفردي، لستُ بذلك الغبن الذي قد تتخيّله حينما شهرت خيانتك أمامي، ولستُ بذلك الضعف الذي تتصوّره يا رجُل، لستُ بذلك الوهن الذي يجبرني بحماقة نساء العالمين على أن آتيكَ عاشقة، ضائعة وحافية من ملامح الحياة، لستُ سوى امرأة تجيد الإنصهار جيداً خلف قرفصاء الغياب بإثارةٍ أكبر، وبذكاءٍ يُربكك.

ذكرياتنا أصبحت من رماد، حينما أشحتَ عني تفاصيلك، حنانك وأكاذيبك اللذيذة، نعم كانت لذيذة، بكلّ وجعها وغدرها كانت تُسقطني في هوة غرامك أكثر، صدّقني لا شيء أقسى على

الأنثى سوى أن ترى رجلها وهو يحترف الكذب، يتفنّن بالوعود، ويُتقن مهارة الغواية على كلّ النساء بقذارةٍ لا تتحمّلها، لكنها للأسف تبقى على قيد ذلك الإرتباط باسم الحُب.

أنا لن أنتظر أكثر، ولن أكون مثلهن، لأنني مختلفة جذرياً عنهن، لذلك ها أنا أترفّع عن كلّ هذا الزخم الموجع، عن كلّ المشاعر المهترئة، وعن كلّ ألغام الهوى بأناقةٍ ستجعلُكَ يوماً ما تحترق من شدة الإشتياق، ستجعلُكَ تعرج بين أروقةِ الذكرى بكلّ حنين، ستجعلُكَ تائباً، مُتقشفاً، وزاهداً لتفاصيلنا المحمومة.

فأنا يا رجُل الإكاذيب امرأة فاخرة، فاخرة جداً بقلبها، بقلمها، بمشاعرها، وبجنونها، فأنتَ لم تكُن سوى خطيئة سأتوب عنها بكلّ خشوع.

* * *

فارقتنا الحياة ونحنُ بملء الحُب، وها نحنُ نلتقي بعد غياب ونيف، كعاشقين، مجنونين، وطفلين، ها نحن نشهق الهوى بكلّ تطرّف وعنفوان، لكن ما عادَ لقاؤنا يستجدي من الحياة رحمة، ما عاد حُبنا يتسوّل من القدر عمراً أكثر، وها أنت أتيتَ مودعاً، راحلاً ومسافراً، لوطنٍ أجهله، ولبلدٍ لن يطولهُ خيالي، بعد أيام ستعلن هجرتك بقلبٍ متهكّم، بذكرياتٍ مقفرة وبأحلامٍ طريّة، سعيدة من أجلك وحزينة عليّ، فقط أخبرني من غيركَ سيكونَ حولي، يراقبني ويترقّبني؟ من غيرك قادر على جعلي حبلى بملايين الضحكات؟ ومن غيرك قادر على التشكّل بهيئةِ حياةٍ تسعدني؟ فلتعلم قبل السفر وقبل الرحيل الكارثيّ، بأن طفلتك سيعانقها اليُتم فورَ صعودك الطائرة، فورَ غيابكَ خلف الضباب، كلّ تلك الدموع بعشوائيتها

وهمجيتها المنهمرة من قباب الفجيعة، تخبرك بأني أحبك، فلتكن يا رجُل الأمنيات والضحكات المُلوّنة بخير، كن بخير فقط من أجلي، فأنا أعلم جيداً من أجلي ماذا فعلت، لذلك أحبّك حتى الفخر، وعلى شاكلة الهوس، سأمرض بكَ طويلاً لتشفى أنتَ منّي.ملهمٌ أنتَ حدّ الحب.

لذلك شكراً على اللحظةِ الأولى، الكلمةِ الأولى والغيابِ الأول، شكراً لأنك كنتَ وما زلتَ رجُل الحكايات القديمة، وصاحب التفاصيل المحمومة، وطفل اللهفةِ الذائبة، شكراً لأنك رجُلي، والتفاتتي، شكراً لأنكَ كنتَ وجعي الآسن، وشكراً لأنك ما زلت تشعر بي حدّ البكاء والعذابِ حنيناً، وشكراً لأنك هنا حولي، تقرؤني بقلبٍ خائف وبعينٍ تدمع، شكراً، لأنك كنتَ «أنا» ذات حب.

وتماماً كما ترفعّ طاغور عن النهاية سأترفّع عنك بحكمته التي أصابتني في مقتلِ اللحظة الأخيرة.

مهلاً يا قلبي، ليكن وقت الفراق عذباً.

لا تدعه يصبح موتاً بل تتمّة، ولينقلب الألم إلى أغنيات.

لتكن آخر لمسةٍ من يديك رقيقة كزهرة الليل.

توقّفي أيتها النهاية الرائعة لحظة، واذكري في صمت كلماتك الأخيرة.

إنني أنحني لك وأرفع سراجي لأنير لك الطريق.

قبل الفزع

الكتابة في الوقت الغائر بالعتمة ، تماماً
كمن يسير فوقَ سطح الجرح بحذر

ما كنتُ أريده حقاً هو أن تحترم عزلتي، وحدتي، وهروبي، أن تحترم تلك الفكرة الراقصة بداخلِ عقلي، أن تحترم النص الذي ما زال يتلعثم في فمي، أن تحترم فجاجة صمتي، أن تحترم مزاجيّتي الوليدة، أن تحترم صوتي الغائر بين القصائد، أن تحترم لغتي العارية، أن تحترمني بقليلي وكثيري، كنتُ أتمنى أن تحترمني في عمرٍ شهق أنفاسه الأخيرة ورحل مودّعاً، كنتُ أتمنى أن تحترمني قبل اللقاء الأعرج، وقبل المصادفة اللامعة بالأكاذيب، وقبل النهاية الحامضة، كنتُ أتمنى أن نمضي بين صقيع الأحداث بجنونٍ أكبر، كنت أتمنى أن نتحوّل لشجرةٍ مقدّسة، لدعوةٍ بيضاء، لقضيّةٍ منتهية، لكرنفالٍ بائس، لرسائلٍ محروقة، لقبيلةٍ بربرية، لكتبٍ لا تُقرأ، ولصورٍ محظورة، كنت أتمنى أن نشير لقلبِ المشكلة بصراخٍ عظيم ثم نركلها ونضحك، ننسى ونركض كمجنونين،مراهقين وطفلين، كان بإمكاننا أن نرتكب الكثير من الذنوب الصغيرة ثم ببراءة نتوب عنها كلّها، كان بإمكاننا أن نلغي، نطرح، نمحي وننسف جميع التفاصيل الكربونية للعشاق، أن نميل للحداثة، للخلق ولجماليّة التفاصيل الغير معتادة، لكنك قررت في النهاية أو قبل النهاية ببضعِ شهقات، أن تكون مسخاً مكرّراً من كلّ العلاقات.

أم أخافتك فكرة التوحدّ، فكرة النبوءة الأولى! والرجُل المعتّد بثورته العاطفيّة، أخافتك فكرة عصيان التقاليد المبتورة، والتضحية

الكبرى، أخافتك فكرة الزهد والإكتفاء بامرأة واحدة طيلة عمرك المهترئ!، فعلاً فهذه الفكرة الأحاديّة لا تناسب رجلاً اعتاد على اللهث الطويل خلف الروائح النسائيّة، لا يناسبه الحصار أمام زاوية ضيقة لا يمكنه الفرار منها، لا يناسبه أن يشعر بالبطالة العاطفية في وقتِ غليان مشاعره، لا يناسبه سوى أن يتلوّى في وحلِ العابرات، الضائعات والساذجاتِ مثله.

أنا امرأة أنهكتها الأساطير الحالمة، وفلسفة الوجود، وتلكَ الأنا التي تحدّثني في الوقتِ العائم من الوجع، تخيفني تلك النبرة المكسورة التي تبثها فيّ في كلّ لحظةِ خوف، تخبرني بأنها تحبّني وبأنها ستبقى أنا، ولن يشوبها أي قُبح، ما زلتُ أسمعها بداخلي تعدني وهي تبكي، وتغني، أهيَ أنا؟ أم أنا هي؟ أهي الروح؟ أم صوتُ الضمير؟

لم أعد أخشى مهابة الإحتضار بالحياة، لكن بتُ أخافُ عليها وأقلق، كيف لي أن أتجرّد منها! أو أهرب، أو حتى أنكرها وأنشطر عنها؟ كيف لي أن أعيشَ بها موتاً وجزعاً؟ وهي الباقية معي رغم ذنوبي، حماقتي، تهكّمي، خنوعي، وانصياعي المكبّل للحب؟ كيف لي أن لا أجعلها تأخذ من جسدي ملاذاً لها؟

وكيفَ لي أن أعاملها بازدراء وهي التي كانت تحوم بداخلي بسكينة وسلام؟ أحبّكِ يا أنا، أحبكِ حدّ الأسف والضياع، أحبّكِ بكلّ جنون وأكثر من جنوني على الوقوف أمام الحياد والمناطق المحظورة، فقط ظلّي أنا، كوني معي وحولي، فأنا أحتاجكِ ضعف حاجتكِ لي، لذلك علينا النهوض من جديد، هل تسمعيني؟ أجيبيني أرجوكِ؟ هل ما زلتِ تشهقين الوجود منّي؟ أم أخذكِ العدم في

لحظة خاطفة؟ يا الله لا أحتمل صمتكِ بداخلي، لا أحتمل أن أشعر بأنني خاوية وفارغة، وبأن الروح التي تركض بأوردتي لا تتواصل معي، أو لا تفهم لغتي المضطربة، فقط قولي لي بأنكِ هنا، وستري ماذا سأفعل من أجلكِ، سأحميكِ، سأصارع موت العاطفة كي أكسبكِ، أعدكِ لا شيء سيحيل بيني وبينكِ هذه المرّة، فقط اهمسي لي أو اصرخي، لا يهمّ المهمّ أن تُحلّقي بي نحو حياةٍ أجهلها، نحو فلسفةٍ لا أفهمها ونحوكِ أنتِ، دعيني أقترب منكِ أكثر أو اقتربي أنتِ، دعينا نتبادل الأدوار أو لنكن جسدين بروحٍ واحدة، لطالما كنا كذلك، أتذكرين! تنبيهكِ لي، عندما صرختِ بداخلي لأولِ مرّة وجعلتني أنتفض خوفاً عندما قلتِ:

- حاولي الإبتعاد يا سُكّر عن هذا الوحم العاطفي، فلن يجلب لكِ سوى الإنزلاق نحو الدرك الأسفل من الخيبة، حينها فقط يا نصفي الظاهر للحياة ستخسرينني وستخسرين طموحكِ الذي يُبقيكِ فتيّة، طازجة، شهيّة في أعينِ الآمال، لا تدعي ذاك الرجُل الأهوج يُبقيكِ للحرق، وللترمّدِ بالأوهام، لن تجني منه سوى الفتات، نعم نحبّينه كما أحبّه معكِ وبكِ، فأنتِ تجبريني في كل الأحوال على عشقهِ بكلّ تفاصيلكِ المزدحمة معه، لكن لطالما كنتُ معكِ في أتفه الأمور وأعظمها لكن هذه المرّة هي أوجعها، انهضي من سباتكِ يا سيدة الأنام، فلا وقت لديكِ ولديّ لنضيّعه، هذه المرة سأجبركِ على السير بطريقٍ كان من المفترض أن لا تنحرفي عنه ولو باسمِ الحب، لِمَ لم تجعلي الحب هو من يشقّ طريقه حتى يصلكِ؟

لم أعد أحتمل أن أراكِ تمثليني بضعفكِ وحنانكِ الساذج، أنتِ كاتبة، أنتِ تكتبينني، تُخلدينني، تعطينني الحياة بكلِ لذّة وزخم،

تجعلينني أعبر بكِ ومعكِ حياتٍ كثيرة، تجعلينا نقتنص من زحام المشاعر أسوأها وأكملها، لذلك لن أدعكِ تلغينني من بين الاوراق بهذه السهولة.

حينها ولأولِ مرّة لم أعد قادرة على السير ولا حتى الإلتفات، أخفتني بل أرعبتني، لم أعد قادرة على التفكير أو حتى التحدّث، انتابني شعورٌ غريب بأني أصبحتُ محتلّة، وأنتِ من أحتلّني، لأولِ مرّة أسمع صوتكِ بل صوت الأنا النائمة بداخلي بكلّ وضوح وبشكل صريح، لم أستطع أن أدع هذا الحدث العظيم وهذه المعجزة أن تمرّ بسلام، كنتُ أشعر بكِ بل أشعرُ بنفسي معكِ، لذلك جاءت أحرفي متقطّعة وبتمتمةٍ خائفة قلتُ لكِ:

- هل أنتِ بداخلي حقاً؟ هل أنتِ أنا؟ ولأنكِ كذلك، هذه المرّة لن أرى فكوني أنتِ عيني وأخبريني ماذا ترين في كهفٍ مظلمٍ ورطب؟ ماذا يتوجّب عليّ أن أفعله حتى أنجح، حتى أتماثل للشفاء، للنسيان وللقوة، لا أعلم هل أنتِ هنا، أقصد هل أنتِ فعلاً تسمعينني؟ أم أنكِ جنيّة وجاءني بكِ كفُ عفريت! لم أعد قادرة على رؤية الصواب من الخطأ، وهذا المؤسف في الأمر والمحزن، أن تختلط أمامي الوجوه، المشاعر، والأماكن، أنا أصبحت أعيش بجوفٍ فوضى عارمة، وفي كلّ لحظة عمريّة منصرمة أغرق، أنقذيني فأنا أخشى من القاع، من عتمته، من وحشته، ومن كآبته، وعلى سبيل الكآبة هل هذه التفاهات التي تفوّهت بها تعتبر حقاً كآبة؟ أو هل هو انفصام في شخصيتي، أو قد تكونين أنتِ بدايةً لحالة مرضيّة، لمَ لم أفكر بذلك من قبل، أنا فعلاً مريضة!!

يا الله ما هذا الوجع المضاعف الذي يعصرني بفزع؟

لذلك ها أنا أقف من جديد، أبحر بقاربي المثقوب نحو الهاوية، ونحو المجهول بقلبٍ يشهق الخيبة، لكن لا بأس لابدّ من بدايةٍ مضيئة تنبثق من منتصف الظلام الحالك، وتلك البداية كانت بنجاح كتابي الأول وبمراد، ثم بدخولي للإذاعة، كلّ تلك الأحداث المتتابعة أتتني دفعةً واحدة من وجع عظيم، ومن مشاعر هامدة، فقط حتى أُعيد دوزنة الحياة لأوردتي من جديد، وفقط حتى أعيد إحياء التاريخ لروزنامتي النائمة، هناك خلف اللا وقت ينتظرني مراد بملحمة راقصة، ومن بينِ المشاعرِ الغائمة سنمطر أنا وهو على هيئةِ قصيدة.

* * *

- أكتبي
- عن ماذا؟
- أكتبيني.
- أنت نصٌ أحاول الإجتهاد في كتابته.
- أأتعبتكِ؟
- بل كنتَ وما زلت تلهمني.
- لكن ما عدت كذلك.
- ولمَ تقول هكذا؟
- لأن كاتبتي لها ثلاثة أيام تصارع الأحرف دونَ جدوى!
- بل أتحاشاها.
- لماذا؟
- أصبحت أخشى الإصطدام بها.
- أتذكّركِ اللغة به؟

- .....

- قوليها.

- في الحزنِ فقط.

- ألم تكن أصدق المشاعر هي التعيسة منها؟ وهذا ما قلته لي في أقصى البداية!

- يقولون ذلك.

- بل هي كذلك، ما زالَ مُلتصقاً بعمقكِ، وما زلتِ تجاهدين أن يجهضه رحم الحب، لكن دون جدوى تذكر.

- كيفَ لنا أن نتملّص من شقوقِ الذاكرة بدونِ بكاء؟

- بل كيف لنا أن لا نفعل وجرثومة البكاء ملتصقة بأطرافِ أعيننا؟

- أتحاول أن تخبرني بأن لا نهاية لنا من هزيعِ الذكرى؟

- أي ذكرى منها يا سُكّريّتي؟ فنحن ما نعيشه الآن وعلى بعد نافذتين ضوئيّتين،سيصبح ذكرى أيضاً، فحياتنا القادمة بكلّ تفاصيلها وريتمها السريع، ما هي إلا تراكمات مترسّبة من لحظاتٍ عشناها! لذلك نحنُ لا نستطيع نسيان ما كان، لكن نستطيع تغيير ما سيكون.

- أحياناً أشعر بأنك تتحرّش بذاكرتي عنوة، فقط لتذكّرني بهِ.

- لا مناص من ماضٍ أتاني بكِ.

- عظيمٌ أنت.

- بل عظيمٌ بكِ، وبكلّ ماضيكِ وحاضرك ومستقبلكِ، لكن أخبريني هل قرأتِ رواية (ألف) لباولو كويلو؟

- أخبرني أنتَ أولاً، هل تؤمن بالألِف؟

- أرى ملامح التأثر ظاهرة عليكِ من بعدِ قراءتها؟

ـ الأمر أبعد من ذلك يا مراد، لم أكن أتوقّع بأنني قد أصطدم بهذه الأفكار الروحية دفعة واحدة، والسبب هو هذه الرواية، الأمر معقّد حقاً، بل إنه خطير، نحنُ نجوب حيواتٍ كثيرة في الأحلام، وعند استحضار تلك الطاقة الكامنة بداخلنا، نحن نبتعد عنّا نحو عالمٍ نجهله، لكننا نعود في نهاية المطاف مذهولين بالكامل.

ـ نعم أؤمن بالعالم الموازي لنا، وأؤمن أيضاً بطواف الأرواح حول عوالم نجهلها، وذلك قد يحدث عندما نكونُ نياماً لأننا صدقاً نرى أنفسنا في أزمنةٍ اخرى بين الأحلام، وتلك حقيقة لا نستطيع أن نعيها بسهولة، لذلك سُميّت بالموتةِ الصغرى، لأن الروح تعودُ إلينا من بعد خروجها منّا، وأيضاً هنالك علم يدعى بالتخاطر، والذي قد يحدث في آنٍ واحد، على سبيل المثال: قد تفكّرينَ بي في وقتٍ معيّن أو في زمنٍ محدّد، فيحدث أن أفكّرَ بكِ أيضاً في ذلك الوقت ثم أتّصلُ بكِ، أو آتي إليكِ، فهنا قد تشعرين بتلك المعجزة الخفيّة، هنا قد تصرخين من الدهشة، وهنا أيضاً تتعانق أرواحنا فوقَ بُعدٍ لا ندركه لكننا نستشعرهُ في تلك اللحظة الخاطفة، وهذا هو الألِف الذي تحدّث عنه باولو كويلو في روايته.

ـ و هنالك أمر آخر أيضاً، تحدّث عنه باولو، وهو أننا قد نشعر بأننا مأخوذون من أنفسنا فقط لأننا قد نرى أنفسنا في أشخاصٍ غيرنا، بمعنى أننا قد ندخل إلى ذلك الألِف الروحيّ، فور التقائنا بشخصٍ قد نشعر بأننا قد التقينا به في زمنٍ ما أو في خطيئةٍ قديمة، قد نشعر بأننا مخطوفون نحوهم بدونِ أي سببٍ يذكر، فقط لأننا شعرنا بالسلام معهم لكننا في ذات الوقت نشعر بأنهم ليسوا مجرّد عابرين والسلام، بل نعرفهم من عالمٍ آخر لا نذكره، لذلك

ما زلتُ أشعر بأننا قد التقينا في كارثةٍ ما، أو في ذنبٍ قديم، تماماً كحالةِ الديجافو التي أشعر بها معك، فأنا على يقين بأنّ حرصك على أن أقرأ هذه الرواية لم يكن إلا لسببٍ ما.

- قد يكون كذلك يا سُكّر.

لا أعلم ما يدور في قرارةِ مشاعرهِ ولمَ كانَ وما زالَ يحاول أن يكشط موضع الألم بالكثيرِ من الحُب!! ولا أعلم أيضاً لأي نوعٍ من الرجالِ ينتمي، لكنه كما قال لي ذات بداية بأنه من حقبة «أحاديو الوجود» لذلك هو ينفرد بكلّ أتونه وطقوسه، فيغدقني من صخب جنونهِ كما يرغب، لكن إلى الآن أتمنى أن أعلم كيف يفكّرُ الرجال، بل كيفَ يفكّر هو بالذات؟ ولمَ يواجهني بالماضي بل بوافي تحديداً، دونَ إقطاعيّة أو حتى قلق من تلك المصادمة الكتابية، التي قد ينشأ عنها حطامٌ قلبيّ؟ ألهذا الحدّ يثق بحبي له الذي ما زالَ مراهقاً بعد؟ ألهذا الحدّ من النضج يُلقيني أمام فوهة الحنين دونَ إجباري على نسيان حبي الأول بسطوةِ الرجال وشكّهم؟

لمَ في كلّ مرة يحاول أن يثبت لي بأنه مختلف دونَ جهدٍ أو صعوبة، وكأنه يريد إخباري بأنه مقيمٌ داخلي بإقامةٍ شرعيّة؟ وأنّ ذلك الحب الضال الذي ما زال يعربد بداخلي ويثمل، لم يكن سوى عابر غرام ورحل، أنا أعلم جيداً بأن مراد مدرك كلّ الإدراك بأن مخاطرته المستمرة في تعريضي لرتوش الذكرى الأولى والتضحية الأولى، ما هي إلا جزءٌ كبيرٌ من محاولة اغتيال وافي فيّ، وهذا الأمر عائد لذكاء مراد وصبره الطويل على جزعي وحدادي، الذي لابدّ في نهاية الأمر سيكون غنيمة له ستعادل ضعف حبي لوافي، فقط لأنه يعلم جيداً كيف يحاصر قلب كاتبة بتواطؤٍ عشقيّ،

وكيف له أن يلهمها، وهو يدلفُ بها نحو فخاخ الذكريات.

* * *

- لجميع من توحدّت قلوبهم يوماً بالحُب، ثم خَلّفت من بعدها أطناناً من الذكرى المتيّبسة حول مقصلة الفراق،أن يقوموا بإرسال تجربتهم لنا باختصارٍ شديد، على شاكلة خاطرة أو حتى قصيدة أو عبارة شرط أن تكون من تأليفكم الشخصي، وليست لأحد الأدباء أو كلمات لأغنية موجعة.

- أتّفق معك يا أيهم فهذه التجربة جميلة جداً لتفريغ تكتّلات الحكايا القديمة، على هيئة نص وبأحرفٍ موجزة نستطيع اختصار قرفصاء ذلك الوهن دفعةً واحدة، أنا وزميلي أيهم لا نتمنى لكم الخذلان أو النهايات الحامضة لكن تلك النهايات تغتالُنا بغتة.

- و قبل أن نقرأ رسائلكم أنا وسُكّر، والليل معنا سيطول، سنذهب من ضفاف الذكرى إلى تفاصيل الأغنيات لنبدأها بأغنية ذكرى «مافيني شي».

أنا وأيهم مُتفقان دوماً على أن الساعة الأولى من برنامجنا، ستكون الأغنيات من اختياره الشخصي وبنكهة مزاجه سيلوّن تلك الساعة، حتى يستطيع كلّ منا مجاراة الآخر، والساعة الأخرى ستكون لي، والأخيرة مناصفة بيني وبينه، هكذا يتمّ تقسيم كلّ شيء، ما عدا المواضيع والفقرات التي نريد طرحها تكون بإعدادٍ مشترك، وبصفة مستمرة نجري عدة تجارب صوتيّة، قبل موعد الحلقة بأيام،فقط حتى نصبح ثنائيا محبوبا للمستمعين عبر أثير الإذاعة، وفعلاً نجحنا أنا وأيهم بهذا، حتى اعتاد المستمعون علينا سوياً وهذا كان يسعدني جداً.

لكن لم أتوقّع أن يبدأها بأقوى الأغاني، قسوة، كبرياء، عتاب وسخرية من الوجع، يااااه يا أيهم أيعقل أن تقتلني قبل أن أتنفّس الحياة؟ أيعقل أن تبدأ ملحمتنا المحمومة بأغنية وجعي، والتي جعلتني أشهق وافي حنيناً وخيبة بين موسيقاها، وكأن كلّ نوتة موسيقية تلاصقت بالأخرى كانت تتعالى بحُزني و بضعفي حتى تُسقطني بدأبٍ مُقفر.

ها هي ذكرى بنبرتها الشاهقة تُسقطني حول كبريائها عندما غنّت:

«ما فيني شي
حبيبي لا تقلق عليّ
جرح في طرف إصبعي بيطيب ويمكن يختفي، لما يدك تلمس يدي».

ثم أردفتها بنبرة ساخرة:-

«ضحّكتني
لو تشوف جروح قلبي وش تقول
لو تشوف همومي وثقال الحمول
لو تحّس بظما روحي لفرحة»

هنا بالذات أصبحت أتلوى ألماً وأنا حافية الملامح، تائهة خلف نتوءات اللحن القديم، فقط عندما يصدح صوت ذكرى:

«اللي شفته في حياتي مو قليل
لا تغرّك ضحكتي حزني أصيل»

حينها أمطرت عيناي عند سماعها لم أتمالك رقص الوجع أمامي بتلك القسوة، لحظتها لأول مرة أشعر بتوتّر أيهم أمامي، وهو

بتلعثم بدهشة لم أتوقّعها ليقول:

- أعتذر يا سكّر إن اخترت أغنية تذكّرك بشيء، لكن رغم ما مضى أو ما اصطدم بذاكرتكِ بنشازٍ مريب، حاولي أن تتمالكي نفسك، فبعد قليل سنعود للمستمعين، ومن المفترض أن تبدأي أنتِ مباشرة من بعد الأغنية.

- أيهم أرجوك ضع فاصلاً أو موجزاً لأي أخبار أو أي شيء، لا أستطيع التحدّث، أعطني دقائق إضافية أخرى، فقط حتى أعيد دوزنة مشاعري، فيبدو لي أن هذه الليلة لن تمرّ بسلام، ستكون ساعات مفخّخة برتوش الماضي، سواء عليّ أو على الجميع، فجميعنا سنتألم مع كلّ أغنية يا أيهم.

- لا بأس سأحاول إطالة الفاصل قليلاً، لكن أنظري لزخم هذه الرسائل وهذه النصوص التي تصلنا، أخرسي وجعكِ إن أردتِ النجاح، فلابد أن تدهسي ذكراكِ، وأن تضربي بالمعول جسد الماضي الذي يحاول معانقتكِ في أبهة مجدكِ.

- لا تقلق فهذا الخراب الجميل رغم قسوته وعنفه سيبقى أخّاذاً، لذلك سأعود لمجدي كما قلت فهذه الليلة لابد أن لا أستسلم للهزات العاطفية وخصوصاً الآن.

حينها سارع أيهم بوضع فاصل لمدة دقيقتين، فقمت باستغلال فقر الدقائق لمناداة زمان حتى يأتيني بكوبي المفضل من شاي الأعشاب، حتى أستطيع التحدّث بنبرة مُكلّلة بالثقة، وسأحرص الليلة على أن أتحرّش بالذاكرة قدر المستطاع، ألم يقولوا بأن النجاح سببه ركلاتٌ كثيرة من الوجع!!

ها أنا أتجسّد بوجعي وأتبارك بهِ حتى يملأني بالنجاح من

حيث أجهل، لم أعِ حينها كيف انتهت الحلقة، وكيف عدت من نحيبي بقوةٍ أجهلها، وكيف نجحت لأول مرة في التمثيل على الجميع بمهارة، حينها أدركت بأن عملي معه لم يكن سوى نجاحٍ آخر يضيف لذاتي الكثير، تعلّمتُ منه كيف أجعل المستمعين لصوتي من العالم الآخر يصدّقون كذبي، يتوحدّون معي وينشطرون خلف وجعي، تعلّمتُ منه كيف تصبح الكتابة عملاً كاملاً، تبدأ من فكرة ثم محاور وشيئاً فشيئاً تتضح معالمها لتصبح إعداداً لحلقة كاملة، وبهذه الطريقة الطازجة والمتتابعة في تسلسلها الدارمي تكون جاهزّة للبث الإذاعي، لكن قبل ذلك هنالك خطوة مهمة وهي الحدّ الفاصل بين النجاح والإخفاق، أن نربّي ردات فعلنا إزاء أي حدث طارئ، أن نركل عند مدخل الاستديو كلّ الذكريات، فقط حتى ندخل لقلوبهم دونَ ذاكرة، دون ماضٍ، ودونَ حاضر وحتى مستقبل، أن ننسى كلّياً من نكون وكيف يجب أن نكون، فقط ندع صوتنا يجوب البلاد، بلغة المنكوبين، المحزونين والمفجوعين، أن ندلق عليهم الأوهام العاطفية، أن نربّت فوق قلوبهم بحبٍ نحن نفتقده، لكن ألسنا في مسرحية درامية ونحنُ أبطالها؟ لا بأس فلنتقمص تلك الأدوار حدّ الزخم العشقي، وها نحن نغدق الجميع من الحب الزائد بداخلنا، ومن شدة وفرتهِ وطفرته نغنّي لهم بملء مشاعرنا، ببساطة كان لابد أن نقوم بذلك لجميع المستمعين بتلك الدرجة من النضج أو الثقافة أو حتى الإحترام، لذلك لابد أن نقف خلف اللا متوقع قبل أن يصبح أكيداً.

لكن كيفَ لرجلٍ مثله تسير من حوله الجاذبية وتتجمهر أمامه حشودٌ من المعجبات، ولا يملك في رصيده النسائيّ سوى أنثى

واحدة فقط، وهي للأسف قد رحلت عنه، وبقيت ذكراها بداخلهِ منطوية!! هذا الأمر بذاته سبّب لي دهشة غريبة، خصوصاً ونحنُ في زمن التفاخر العاطفيّ، وكأننا في مزايدة مقزّزة، الرجُل الذي تتضاعف حساباته العاطفية وتتضخم قائمته النسائية، يصبح أمام العالمين مستفحل الرجولة بأسطورةٍ تخلّده في قلوب الحمقاوات للأمد، لكن هذا الرجُل أراه مختلفاً، نبرته الرخيمة وملامحه الهادئة، وتلك النظرة المنجلية خلف عوالمٍ من الحزن الخامد، تشي بجرحٍ أبى أن يندمل، يفضحه طموحه الدؤوب، وكثرة الضغوط التي تنقر فوق رأسه.

لا يُخفى عليّ هذا الهروب من ضوضاء المشاعر، إلى ضجة الحياة بأعمالها، وتسارعها المستمر، تماماً كما كنتُ أفعل قبل أن ألتقي بمراد، كان هروبي الموجع، اللذيذ، والخانق، لم أكن أنام إلا من شدة الصداع ودوار الحياة في عينيّ، ها أنا أرى الوجه الآخر مني في أيهم، هذا الرجل الذي يقفز فوق شقوق الذاكرة بكبرياء الرجال، وبحصانةٍ من عنفوانه يُشّهر النسيان بحبورٍ طاغ.

* * *

في هذه الحلقة التي لا أعلم كيف بدأت بي لتنتهي، لم أتوقّع أن يدقّ ناقوس الحب علناً، وأن تعلن قيامة مشاعرك بهذه الطريقة المفخّخة من الحب، قرأت رسالتك بارتباكٍ ونشوة، لطالما ردّدتُ قصائدك وكلّ رسائلك بيني وبين وحدتي، لم يُخيّل لي بأنني سأقرأها يوماً أمام كلّ المستمعين، لأشاركهم فلسفتك وتفرّدك الآسر، دفعةً واحدة! وبهذا الشكلّ المفاجئ، كتبت لي:

«تحية للمساءات المتشنجة بالذكرى

- من المفترض أن أبعث لكما رسالة مبهرجة بالحزن، بالأسى أو بصهيل الحب، لكن من الصعب أن أخوض غمار المشاعر برسالة موجزة، لكن لسببٍ ما، ولغايةٍ أخرى، سأختصرها بقدر الإمكان بعبارة واحدة فقط «أنا ما زلتُ قابعاً في مملكةِ الظلال، ألم يحِن الوقتُ بعد لتلوّني لي عتمتي بمساعدة نوارسكِ»؟.

* * *

وأخيراً انتهت الحلقة حتى تتسنى لي العودة لنافذتي المشرّعة على حروفه، كنت أعلم بل كنت على ثقة بأنه سيبعث لي إشارة حرفية هذه الليلة، تدل على وجوده بالقرب من صوتي ووجودي، فقط حتى يشعرني بالسلام الذي كنت أنا بحاجته في تلك الساعة الغارقة بالذكرى، تثاقلت أفكاري بل خطوتي للغرفة، بماذا سأجيب على سؤاله المفخّخ؟ كيف لي أن ألوّنه وأنا الغارقة بسوادي!

نزعتُ عني كلّ ما يثقل عاتقي من ثيابٍ لا تناسب فجاجة هذا الصدغ، واكتفيت بارتداء بيجاما فضفاضة تخفي خلفها ندوبي العميقة والغائرة بداخلي، ألتفت من حولي وألتفت وألتفت وكدتُ أن أسقط من شدةِ الدوار، وكأنني لأولِ مرة أتعرّف على غرفتي، على نافذتي، على دفتري وثيابي ونفسي، وكأنني لم أهرم هنا! ماذا تفعل كلّ تلك المرايا المعلّقة على الجدران! ماذا عساها أن تعكس غير عمري المنصرم بالفزع؟ كم بلغت أعداد الوجوه التي كانت تشبهني في ذاكرتها العاكسة؟ يااااه ألهذا الحدّ كنت أحب الضوء والإنعكاس لأملأ غرفتي بها؟ من الموجع أن نكتشف حقيقتنا المخيفة في الوقت الدامغ من الوهن، لا بأس كلّ ما عليّ فعلهُ الآن هو إحياء جهازي المحمول من غيبوبتهِ الرقمية، لأتنفسّ عذوبة

الصمت مع مراد.

لذلك لم أتمالك أن تهدأ أنفاسي حتى أبعث له برسالة بريدية، فكانت:

- مرايا.

لا تتعجّب من عنوان الرسالة، فأنا في الحقيقة أجهل سبب ذلك، لكن دعني أخبرك بأمرٍ كارثيّ وجدته فوق قصيدة غرفتي، أتصوّر بأن كلّ جدرانها مزدحمة بالمرايا! لا أعلم ما سبب هوسي السابق بها، ولا أعلم تحديداً متى تفشّت تلك الطفرة بداخلي، كلّ ما أعلمه بأني للتوّ اكتشفت بأنني كنت أحيا أمام الكثير من الأعين والكثير من الذوات! لذلك فقط لم أكن أحظى بالسلام الداخلي يا مراد، أخبرني هل عليّ تهشيمها لأشعر بالأمان! أم أتركها لتراقبني للأمد!

بالمناسبة.

عبارتك هذه الذي بعثتها في البرنامج «أنا ما زلتُ قابعاً في مملكةِ الظلال، ألم يحِن الوقتُ بعد لتلوّني لي عتمتي بمساعدة نوارسكِ؟» ذكّرني الشطر الأول منها فور قراءتي لها بفيلسوف الحياة القاتمة بالرمادية، الأديب الروسيّ العظيم ماكسيم جوركي، الملقّب بـ(المرّ) لمرارة حالته الرمادية التي عاشها خلف المناطق المحظورة بالأسرارِ والغموض الحالك، لذلك فقط كان يردّد دوماً هذه العبارة العميقة بفلسفته ونظرته الخاصة للوجع «كنتُ في مملكةِ الظلال» لذلك أعتقد بأنك تقاطعت معه في هذه العبارة عمداً.

أليس كذلك؟

- أهلاً بانعكاسِ مراياكِ وازدحامها.

ومضة صراحة: أغبط جدران قصيدتكِ المشجّرة والمكتظّة بأعينِ تلك المرايا، يا الله لو تحوّلت لجدار في غرفتك، أرتكز فيهِ للأمد مستيقظًا، شاخص النظرات لملامحكِ ولكلّ تفاصيلك الأنثوية الحالمة، أو أتحوّل لعدة مرايا موزّعة بعشوائيّة، وبجماليّة فاخرة اعتنيتِ بها، أغبطها صدقاً أيتها الصغيرة، يا للجمال، أتتصورين كم بلغت عدد المرات التي رأيتكِ بها! وكم عدد القبلات التي طبعتها فوق عينكِ، فوق وجهكِ، فوق فمكِ المزموم،فوق رأس أنوثتكِ؟ تباً!!! فالتفكير بمراياكِ يمزّقني غيرة.

صغيرتي لا تهشّميها أو حتى لا تفكّري أن تنزعي جذورها عن الجدران، فهي قد عاشت وتعايشت معكِ منذ الأزل، وأنا على يقين بأن كثرتها لم تكن مجرّد رفاهية كنتِ تسعينَ لها، دعيها، دعيها يا سُكّري فهي سرّك العظيم الذي ما زلتِ تجهلينه.

وطالما ذكّرتكِ بماكسيم جوركي في تلك العبارة المقصودة مني حقاً، فأنتِ بمراياكِ شرّعتِ لي تذكّر فيلسوف المعجزة اللونية رامبرانت هرمنسزون، الذي قضى عمرهُ كلّه في محاولة دمج الضوء، الظلال، الظلام وبانوراما التباين بين هذه الأمور، ونجح في ذلك صدقاً، لذلك الضوء المنعكس من مراياكِ في الصباحاتِ العالقة والليالي العجاف، له فلسفه خاصة وعليكِ الخوض في سبرِ أغوارها ما رأيكِ لو بدأتِ بها الآن؟!

رغم كلّ الزخم الذي حقنني بهِ، إلا إني لم أعد أحتمل هذا الحب الغريب الذي لا يتكاثر ولا يأخذ شرعيته إلا من النوافذ الضوئية، لذلك لابدّ أن أبعث له رسالة حانقة بهذه النبرة الخائفة التي تجتاحني بكلّ غبن:

- ليس بالضرورة أن تقولها، وليس من الواجب أن أسمعها، فأنا يكفيني هذا الحب المفخّخ بالإهتمام، المموّه خلف تلابيب الحياة، والقاتم بأبهة المشاعر، أنت لا تعي حجم انكساري وخذلاني، لطالما تردّدت فوق مسامعي كلمات الحب اللذيذة والوعود الكثيرة، فأنا سئمت من أحاديث الغرام الملوّنة بالأكاذيب، سأكتفي بمشاعرك الضمنية، فهي تسعدني بل تغرقني بين أمواجك العاتية وأنا لا أجيد العوم، لكن على كلّ حال ستكون أنت نجاتي وموتي، هذه المرة صدّقني إن خذلتني سأموت، لن أستطيع أن أحيا وأنا معطوبة بجرحين وكارثتين، واعلم بأن:

«ما نضمره أشد وجعاً مما كتب ومما سيكتب».

فمحرقة الأحرف ما عادت تحتمل نزق ألمنا، لا أريدك مجرد ملجأ أرتع فيه وأرقص، بل السكينة التي تهديني للصواب، الخير الذي يقيني من الخطايا التي لا تغتفر، والدعوة التي أتمناها فتتحقّق على عجل، أنا أعلم بأني أقيّدك بالكثير من الأحلام وبالكثير من المطالب التي لا يحتملها أي رجل، لكني أراك رجلاً خارقاً عن العادة، وها أنا بدأت أتضخّم بك أكثر فأكثر، لذلك أرجوك دعني أعيش معك تلك التفاصيل المتأججة بالحماقة حتى ولو كانت كذباً، أااه ألم أخبرك!! من الأساس كنت أشعر بأن علاقتنا كذبة افتراضية لذيذة، حتى أني خطّطت لها كثيراً وراهنت على أمور عدة، ثم إني فشلت، وكان فشلاً ذريعاً، أتريد أن تعلم لمَ؟ حسناً لأني بدأت أشعر بحقيقتنا، بحقيقتك الإفتراضية معي بكلّ نزقها وجنونها، وبكلّ عنادها أحببتك، وها هي سكرّ متورّطة برجلٍ لا تراه إلا عبر النوافذ البيضاء، حتى عناقه لها عبارة عن وجوه ورموز افتراضية، وحتى

غيرتنا أصبحت إلكترونية، لم أعش هذا الأمر قط، ولم أتخيّل نفسي يوماً بأنني سأتخبّط في هذا الحيّز الضيق بهذا النسغ، يااااه أأنت حقيقيّ فعلاً ؟ وهل إسمك صدقاً مراد؟

أاااوه ما هذه التراجيديا المضحكة، لابد أنك تتلوّى ضحكاً من شدة مراهقتي أليس كذلك؟

لم يكن انتظاري لردّه طويلاً، حتى أتاني بهِ نورس السلام، تماماً كما هي العادة، أيعقل بأنه أصبح مرابطاً طوال الوقت أمام بريده؟

- على الإطلاق، فنحنُ نشّهر الفضول رغماً عنا، وما تشعرين بهِ نحو غموض ملامحي أمر طبيعي، وهذه فطرة جُبلنا عليها، قد ننجذب للأمور القاتمة خلف الإستفهامات ولا نمكث فيها حتى يصيبنا الذهول ثم بإلحاح التوق نرغب بإزالة تلك الهالة الحالكة، بالكثير من علامات التعجب، وقد نصل للسأم، وأنا أعتقد بأن كاتبتي تَمُرّ بمحاذاةِ حالةٍ إقطاعية من الغرابة، لا أريدك أن تنكفئي خلف اللا شيء، محاولة نزع أقنعتي مني، لأسقط مستسلماً ومتجرّداً لأتون فضولك، دعيني أرجوكِ بكلّ غرابتي بقربكِ، ألم تقولي لي ذات احتواء «لا فرق بين حبٍ افتراضي وواقعي، الحب الذي لا يستر عورات قلوبنا ليس بحب»، وأنا بدونِ القسم وبدونِ تلك الوعود المزيفة بالمراوغة زاهداً بكِ، وعاشقٌ لأتفه تفاصيلنا وأكبرها، كوني على ثقة بأن خلف اللا متوقع سأخبركِ من أكون، فقط امنحيني طوق النجاةِ بكِ.

- لك ذلك، لكن لا أخفيك بأنني أجوس خلف أسرارك بخوفٍ وقلق، لا أعلم بدأت أشعر بأنك لم تأتني من المجهول

مصادفة، هنالك حالة ديجافو غريبة فعلاً أشعر بها نحوك، هنالك أمر تخفيه عني، حدسي الأنثوي لم يخب يوماً، فقط إحذر أن تصيبني بنوبةٍ مزمنة من الصرع، ولن أقولها بحرج، فأنا أصبحت هشّة جداً أمام الأمور المفزعة، لذلك أرجوك لا تسقط في الهوةِ، كن أنت النبيل الوحيد في هذا العالم المزدحم بأشباه الرجال.

- أشش، تعالي بكلّ سكاكري وسُكّري، تعالي بمرضي وشقائي، تعالي من نسق الخيال بحدثٍ لا ينسى، تعالي من زمن التقشّف والضلال، ومن الأماكنِ المريبة ومن أحاديث الدراويش وثرثرة نساء الحي إليّ، تعالي بقليلكِ وكثيركِ، تعالي من التفاصيل الغابرة ومن الذكريات المتصدّعة، تعالي بهمجيّة، بعشوائيّة وبفوضويّة، تعالي يا امرأة الأزمنة والعقارب المراوغة بالوقت، تعالي يا طفلة الكرنفال، وصبيّة الضفائر، تعالي من اللحظات المموهة ومن الأقنية المحظورة، تعالي بصيغة الماضي وبهيئة الحاضر وبحتميّة المستقبل، تعالي بكلّ أضدادكِ وأشباهكِ، تعالي بحرائقكِ، بمدّك وجزركِ، تعالي بطوفانٍ من فراشاتٍ وغابات، تعالي من العزلة المنصرمة ومن الصمت المطبق، تعالي ذكيّة، مراوغة، حاقدة وثائرة، تعالي بسخط المشاعر وبمازوشية العاطفة، تعالي لحضارتي، لتاريخي ولقبيلتي، تعالي كي أعبرَ بكِ حدّ الغرابة، حدّ التوحدّ وحدّ الإنجلاء.

- أنتَ تُصيبني بدوارٍ عشقيّ، وبسطوةٍ تُسقطني أكثر فأكثر فيك، ومن مثوى الحكايا القديمة سأعانقك، ومن أجنّةِ الهوى سأجلبكَ، وبأدرانِ الخطايا سأعيثَ بكَ فوضى، وبكلّ القرارات التعسّفيّة سأستبيحكَ قلبي، ثرائي اللغوي وملحمتي العاطفية، سأسيرُ

إليك بل سأطير لك وأنا فوق جناحِ نورسٍ محمّلة بالتوق، بالشتاء وبالفصولِ المثيرة للعناق والتأمل، ولجماليّة لقائنا لابدّ لنا من لغةٍ مزدحمة بالصمت، بالحياد، وبالتمائم، فأنا منذورة للحب من السنينِ الغابرة، أتصدّقني إن أخبرتك بأنني أتطيّر من مشاعرٍ تشهق برتابة الأحداث؟ لأنني امرأة متطرّفة، مزاجيّة، وحانقة على الروتين، لذلك أهوى القفز فوق اللا متوقع، وأنت أتيتني أشد ولعاً وجنوناً، تقحمني بين الثقوب الملغّمة فتجعلني أنفجر بملء إرادتي، لذلك أحبّك ولذلك أتبرّك ببياضٍ جمعنا عبر نافذتين كلّ حنين.

- أنتِ تذكّريني بملكة روسيا العظيمة كاترينا الثانية، فيكِ من ذكائها، قوتها، عنفها، وسحر منطقها الكثير.

- أحب عبارة والدتها لها عندما كانت تحرّضها على أن لا تتعاطف مع الرجال، لطالما ردّدتُ عبارتها بيني وبين حرفي، هل قرأتها؟

- في الحقيقة شدّتني قصّتها بصورةٍ فضفاضة، وما زلت أذكر كيف أنهم في عهدها وضعوا عليها علامات استفهام كثيرة حول مقتل رجال وهروب نساء وانتحار الكثير من الفتيات العاشقات وكلّ هؤلاء الضحايا هي من كانت وراء حتفهم، وكيف انقلبت ضد زوجها مع عاشقها وبأن كلّ أبنائها لم تنجبهم منه بل من عشّاقها، ورغم معرفة زوجها بذلك لكنه كان ضعيفاً جداً أمام سطوتها، لكن أخبريني ما تلك العبارة العالقة في فضائك؟ وما هي قصتها؟ أثرتِ فيّ الفضول يا مشاكسة.

- من الجميل أن يصيبك الفضول، وأنت من شبّهني بها في البداية، العبارة كانت «إبنتي، إكذبي لتعيشي، لا تصدّقي أن الرجال

يحبّون الصدق، كلّما كبر الرجال كان استعدادهم للكذب أكثر، لأنها كانت ترى في ابنتها ملكة لروسيا، رغم أنها كانت ألمانية ولها بعض الجذور الفرنسية، أي أنها كانت بعيدة كلّ البعد لتكون يوماً ما ملكة لدولة كروسيا، لكن في ذاك الزمان وعلى مر الأزمنة المرأة قادرة على إعادة تشكيل ملامح الرجُل كما تريد، فقط إن تملكّت منه.

- بالأكاذيب يا سُكريّتي، وبالكثير من الكرّ والفرّ يستطيع الرجال كما النساء لعب أدوار البطولة المطلقة.

من الموجع أن تعي المرأة مرارة قدرها القادم مع رجلٍ لا مستقبلَ له في عالمها، لكنها تفضّل أن تكمل دورها العاطفي حتى نهاية النهاية، وكأنها تريد بتلك الحماقة أن تثبت لنفسها مدى قدرتها على تحمّل الألم والتضحية البائسة، أهذهِ حقاً فطرتنا التي جُبلنا عليها نحنُ النساء؟ لا أعتقد فأنا في البداية ومع وافي تحديداً لم أسمح له بدهسي، بحرقي وصلبي، لم أعطهِ ذلك الشرف الذي سيخوّله بالتباهي أمام مجتمعه الذكوري، لمَ الآن أسقط بملء مشاعري أمام اجتياح هذا الحب الإفتراضيّ الغريب؟

هنالك ما يدعوني للقلق، بل يوجد الكثير من التفاصيل يجعلني متشنّجة، باردة وخائفة، لكن هذا الرجل، يجيد تشريح المفردة من وجعها، يجيد تعطيل حواسي عن التفكير في غيره، يقيّدني بهِ بإحكامٍ موجع، لن أستطيع الإبتعاد وتركهِ، لن أستطيع صفعه بالغياب حتى أزيل عن ملامحه ذلك القناع المظلم، في ذلك الحين فقط يمكنني أن أدير ظهري للحب بأكثرِ الطرق سلميّة، أو أعانقه بأكثر الطرق مزاجيّة.

* * *

كان لابدّ لي الخروج، بل الإبتعاد عن مراد وعن كلّ ذكرى قديمة تعبرني بغتة، لم يكن بمقدوري الكتابة في البيت أكثر، لذلك أخذت معي جهازي المحمول ومذكّرتي السوداء المقلّمة بالأبيض، لأذهب لمقهى بلزميكو، لم أعتد على مقهى غيره، ولم أضع في الحسبان بأنه قد يعيدني للوراء، ولأقصى البداية والذكرى، وخاصة أن كلّ من يعمل هنا كانوا شاهدين على كلّ لحظاتنا المجنونة أنا ووافي، هنا كانت ذكرى أعياد ميلادنا، وهنا كنّا نشير بأصابعنا إلى المشكلة، وهنا أيضاً كنا نصرخ بالنهاية كما عانقنا البداية، هنا سيبقى شبح الذكرى عائماً في العدم.

بالقرب من طاولتي وتحديداً بمحاذاة الذكرى الآسنة، هنا عاشقان لم يطئهما الفراق بعد، ولم يسود ملامحهما الأسى، وهنا أيضاً كنا نتراشق العاطفة بأحلامٍ ضاحكة، وبمراهقةٍ عارمة، كنا تماماً مثلهما، ها أنا أرانا في إيماءاتهما وبشقاوتهما، ها أنا أعبر التاريخ القديم معهما بغفلةٍ من واقعي، أكادُ أبكي على مرمى الحنين، هل اجتاحهما الغياب يوماً؟ وهل أصابهما الدوار الموجع في لحظةِ فراق؟ لا أعتقد فألفة مشاعرهما وتلاحمهما من نظراتهما، تدلّ على أنهما عاشقان من الطرازِ الأول، أي أنهما ما زالا في أقصى البداية العشقيّة.

لذلك أصبحتُ أفنّد الذكرياتِ هنا ذكرى ذكرى، وهنا أيضاً تنتفخ حويصلات التفاصيل بصورةٍ لا يمكنني جمعها أو حتى كتابتها بما يليق بوجعي، وها أنا الآن أعانق الموت بك أكثر، هنا يا وافي أجدّد ولائي لماضينا المنصرم بوفرة، هنا عدتُ وحيدة من زخم العالمين وممتلئة بكَ فقط، لمَ علينا العودة في كلّ احتشادٍ عاطفيّ

لماضينا القديم ببكاء؟ لماذا نتشبّث بالتفاصيل المجعّدة طالما أننا نستطيع خلق تفاصيل أكثر حداثة وجماليّة؟ قد تكون السبب جغرافيّة المكان المحتفظ بحقبتنا العتيقة؟ التي كلّما مررنا بمحاذاتهِ صرخ بنا حدّ فضحنا أمام انفسنا! صدقاً لا أعلم ما السبب، والحقيقة لا نيّةَ لديّ في الكشفِ عنه،لذلكَ فقط سأكتفي بالتأرجح بينَ البيّن وأنا عائمة في فضاءِ الذكرى، فأنا يناسبني جداً في هذه اللحظات الحرجة، أن أبتسم كمجنونة، وان أبكي كمخذولة، يناسبني جداً أن أُقلبني كصفحاتٍ نكرة، أن أُدميني في منتصف القطيعة العاطفيّة، أن أنسل مني، لأعود إليّ دون ذاكرة أو تاريخٍ يأطرني أو حتى يقيّدني بماضٍ متهالك، وبماضٍ من المستحيلِ أن يعود.

أما آنَ وقت النهوض؟ أم أنّ وقت البعث ما زالَ مبكراً حتى تخمد حرائق مشاعري! أم أن عليّ العودة لحاضري السامق؟ أم أنّ هنالك الكثير داخلي يتوجّب عليّ كتابته، بَل يتوجب عليّ أن أكشط سطح الجرح حتى تنزف المفردة أكثر، وحتى يكون وقعها أعمق وأشدّ، لذلك ما زلت أتأمل وجه النادل المتململ، الذي يصارع ضجره بملامحٍ مجبرة على الإبتسام، وعلى التظاهر باللا شيء، تماماً مثلي، بل مثل الكثيرين هنا، الكلّ من حولي يخلق مشهداً دراماياً خاصاً بهِ، ولا ينقصنا سوى أن نصفّق لأنفسنا حتى تكتمل المسرحية ببعدٍ موازٍ لوجعنا، ثم نسدل الستار دون عودة لسذاجتنا العاطفيّة.

ماذا أكتب وكيف أبدأ من أقاصي هذه الصفحة المحايدة لكلّ ذكرى وخيبة؟ كيفَ لي أن أطارح البياض بالكثيرِ منّي ومنك ومنه؟ كيف لي أن أكتبنا بشكلٍ ثلاثيّ آسر؟ أخبرني يا وافي قبل أن يفعل

مراد، كيف عليّ أن أقاسمكما مشاعري من بينِ الأسطر وفوقها؟ كيف يمكنني أن أخلّدكما دفعةً واحدة، وبلا هوادة!!

رغم هذه البطانة العاطفية الموجعة سأفعلها، سأفعلها ليس لأجلكما بل لأجلي فقط، فأنا لم أقف أمام الحياد إلا معكما وبكما، وافي بِرغمِ فراقنا ما زلت تمزّقني من عمق الإشتياق، دون أن تدرك كيف ينسلخ الوجد بجزيل الحنين، ومراد رغماً عن عطبي العاري، ما زلتَ تحاول جاهداً أن تهذّب لي أنفاسي، ترتّب لي مشاعري، وتحقن أفكاري بأمصالٍ من الإهتمام المفرط، كلاكما أجاد إيقاعي في كمين الحب بطريقتهِ الرجولية المتوقدة، وها أنا الآن أتخبّط من حيثِ لا تعلمان، أشعر بتشابهكما رغم اختلافكما الواضح، لكن ما سبب هذا الحدس الذي يختنق بداخلي؟ ما هذه الإستفهامات الكثيرة التي بتُّ أنثرها خلف أي ردة فعل او تصرّف تقوم بهِ يا مراد؟ لماذا بدأت أحشر الأحلام بنهاية مأساوية لا يمكنني توقّعها؟ ما كلّ هذه الفوضى التي تقصف بي وتعصف من حيثُ أسقط؟ الكثير من الألغاز تنعقد حولي وترتخي، وما بينهما تنعصر الحياة في عينيّ حدّ الفزع.

في مواسم الفراق الموجعة تتمطى مشاعرنا الغيبيّة بكلّ أسى ووهن، وكيف لها أن لا تكونَ كذلك ونحنُ نُصافحهم لآخرِ مرّة، بجزيل الإشتياق والذكريات الغابرة؟ كيف لها أن تتقبّل تلك القطيعة العاطفية بجذل؟

للأسف لأنهم بكلّ حبورٍ عانقونا ذات حُب، وبكلّ فجيعة ها هم يعانقوننا بنحيب، يا لسخافة ساعات اللقاء المحدودة بعمرٍ قصير! ويا لضآلة الأمنيات المرهونة عليهم! فبين قابين وأدنى نعيش

معهم، ثم لابدّ أن نتعايش مع رحيلهم.

نحنُ في الحياة دائماً على مهبِ سفرٍ أو فراق، وكلاهما مؤشر لنهاية ما، ونبوءة لبداية أخرى.

وكم سيكون عمر تلك البدايات؟ هل هو بمقدار تلك النهاية، أم أطول منها عمراً؟ في كل الأحوال لابدّ أن نربّي عواطفنا على الفراق والكثير من النسيان العاجل، لا يجب علينا الوقوف طويلاً عند مطارات المغادرة نتأملهم، نبكيهم، ثم نرثيهم، فكم من مسافرٍ رحل، وكم من عائدٍ عاد! ونحن تماماً نقف في المنتصف، شاهدي عيان على تلك الآلية الغريبة بين رحيلٍ وعودة.

أمَ آن لنا الحراك، والسير عكس تلك الإزدواجية؟!

لذلك كان الزمن العاطفيّ من أكثر الأزمنة التي نُدهس تحتها ونُسحق باسم الحُب، باسم الوفاء، وباسم الأبدية المتوقفة عليهم، ولذلك فقط ذهبت كلّ اجتهاداتنا في محاولة نسيانهم سدى، لم يتبق لنا سوى الصمت المطبق، المشاعرِ المحمومة، والذكريات الباكية، لم يكن الحل في الإنشطار العشقي عنهم فحسب، بل بنزعهم من دفاترنا، رسائلنا، لياليا، وذاكرتنا، لذلك كانت وستبقى هذه المهمة الإنتحارية والفدائية مستحيلة.

نحنُ أضعف بكثير من تلك الثورة العظيمة المقامة ضدهم، وأنا على يقين بأننا سنتجاوزهم ذات يوم بغرابة ونسيان، فقط علينا قبلها أن نؤمن برحيلهم، وأن نؤمن بأن من غاب لن يعود، لذلك وقوفنا عند عتبة الأيام القديمة يعتبر خطيئة، وها نحنُ بكلّ تحدّ نعلن عليهم الهجرة بغيرِ عودة، فقط علينا أن نتعلم ثقافة الغياب كيف تكون؛ لنشرع في تطبيقها، لذلك كان مكوثنا تحت اللا وقت

ذا فائدة علينا.

لم يكن من السهل عليّ، أن أعيد الشريط القديم، وأن أعقد حول خاصرة الأيام المبتسمة المزيد من البكاء، لذلك كانت محاولة فاشلة أن أكمل روايتي في هذا المقهى، وها أنا يتوجب عليّ العودة للمنزل وكما يتوجب عليّ مصارحة مراد بهذه المشاعر المتضاربة من أقصاها.

هنا كلّ الإنارات والمحلات وحتى الأسواق تذكّرني به، هنا أسرعنا بالسيارة وهنا رفعنا صوت الغرام وهناك أخذنا من جنونها جنوناً حتى أصبحنا نحتمي ونقتدي به بشبهةٍ لذيذة.

جدة مدينتك المترفة كما هي مدينتي الباكية، جميعنا يا وافي ننظر الى مدينتا بالصورة التي تعكسها لنا، فأنت على سبيل المثال رغم معرفتك بوجعها الدامغ، وبكلّ فجيعتنا التي تعالت فوق كلّ فزعنا، كنتَ ما زلت تجدها مدينة طاعنة بالجمال، مشاكسة للوقت وللأزمنة، تحبّ إخافتنا ثمّ بكلّ وداعة تقترب لعناقنا بحبٍ مضطهد، تحب أن تتأكد بأننا نمتد لجذورها العريقة مهما تعالى صوت ساديّتها، وخالف عرفنا الحتميّ، الإ أننا بذلك نتشبّث بها أكثر وأكثر، ما زلت أذكر نبرة صوتك عندما هاتفتك بوقت متأخر خائفة من غضب السيول لتأتيني ضحكتك العميقة قائلاً:

- يا طفلة لا تقلقي من عويل الخطر، فجدة الآن في أبهى صورها غنجاً، لذلك ستأخذ من أرواحنا بضع الوقت لتهدأ.

ألهذا الحدّ كنت تراها تجيد الغنج والدلال حتى ولو على حساب أرواحنا؟ نعم نحن شعب لم نتعرّض للفواجع الكثيرة، لكن كانت تكفينا حادثة واحدة لتحدث فينا فزعاً كنا نجهله، لتنشب

بداخلنا حرائق لا تخمد، ولِتُلقينا تحت أنقاض الجثث بشكلٍ جنائزيّ لم نتصورّه.

أتصدّقني إن أخبرتك بأني إلى الآن لم أنسَ تلك الفجيعة الممطرة، فأنا طيلة أعوامي المنصرمة والقادمة كان وما زالَ يلهمني المطر وتثيرني رائحة التربة المبللة بالدعوات، لكنّ بكاء السماء في جدة تأخذ نزقاً آخر، لذلك كنتُ دوماً بشكلٍ فجائيّ مخيف أتكوّر حولَ قلقي بالدعاء الطويل، حتى تهدأ نوبة السماء المخيفة عن الصراخ بالدمع، لمَ ما زلتُ أشعر بأن المطر دوماً يأتينا غاضباً، عاصياً وحانقاً، بينما بكلّ حفاوة مورقة، ترحّب جدّة بهِ وهي مبتسمة للضرر الذي سيلحقها جرّاء انهماره فوق جسدها المتهالك، لكنها رغم ذلك تحتضنه بنشوة غريبة، وكأن هنالك تواطأ لا نعلمه، يحدث بين غضب المطر وهدوء جدة المغتصب.

حينها فقط أخافتني نظرتك للأمور، وكأنك ترمي بشيء على المدى البعيد بأنه مهما تعالى صوت وجعي وبكائي، ستنظر له بأنه مجرد غنج أنثويّ مترف، كيف لا يكون كذلك وانت الذي نظرت لثورة المطر، ووجعنا الكارثيّ على أنه مجرد هالة مكتظة بالقلق الذي من المفترض أن لا نفزع منه، إذاً فما بال حالي بعد ذلك!

هذه المدينة المزدحمة بحزنها البائس، والذي تجيد إخفاءه تحت مساحيق الحياة، تجيد التظاهر بالأبهة وهي تنزف كأنثى مضطهدة، لطالما لم أستطع الإبتعاد عن مدى طرقاتها المهترئة وعن أيامها الفتية، لم اجرؤ على نزعها من خارطة المدن الأكثر سلاماً لقلبي، فأنا أنتمي لها ولا أعلم لمن تنتمي هي، أيعقل أن تنتمي لأطرافِ البحر المتململ من سكينتهِ الدائمة؟ أم لثقوب شوارعها

المتسعة في منتصف وجهها الشاحب؟ أم لسطوة الوقت الذي يقصمها من أقصاها بتجردٍ فضائحيّ؟ أم لتخوم ليلها الشاسع، لمن تنتمي هذه الصاخبة؟

كما ما زالَ قلبي يذهب ويجيء بين أنقاض الذكريات، فهذا الكلّ من الترسبات المتبقيّة من حياةٍ مضت، من حاضرٍ يترنح، ومن مستقبلٍ منتفخ باستفهاماتٍ كثيرة لهو أمر يدعو للقلق، للتوقّف وللهروب، لم يعد يسعني سوى أن أكمل ما بدأته، أن أتحدّى، أن أنجح، لن أستفيد شيئاً إن أجبرت عمري الراكض بين جنباتِ الحياة على التوقّف، لن أستفيد لو أخرست صوت أحلامي احتراماً لوجعي الدامغ، لن أستفيد لو انزويت في أقصى الغياب، لأصبح جافة، بعيدة وحيدة وخالية من الضحكات، من الآمال، ومن العالمين، لن أستفيد شيئاً من ذلك الحزن البشريّ العارم.

* * *

كنّا نتبادل الرسائل الصفراء منها والبيضاء، فنُجيد تخبئتها بين الكُتب وكأننا نُهرّب تفاصيل ممنوعة من التداول أو التعاطي، فقط حتى لا تتم مُصادرة ما نقوم بإرساله، أو حتى تفتيشه، فهي كانت المرة الأولى التي أتقاسم فيها مع رجلٍ حُب الكُتب والرسائل الغرامية، وكأننا نريد إعادة زمن الرسائل وساعي البريد لحاضرنا البارد من العاطفة، وكأن النوافذ العاطفية لم تعد تُغرينا بشيء، لذلك أصبحنا نحتاج لأن نشعر بأبهة هذا الحُب وهو يلامس واقعنا بأعراض عشقية مُثيرة، فقد كنتُ أحرص على إفراغ نصف زجاجة عطري بين صفحات الكتب التي أبعثها له، فقط حتى أضيّق عليه الحصار العاطفي أكثر فأكثر فلا يكاد يلبث حتى يشهقني حنيناً

يزفرني عشقاً.

ألم يقلها باتريك زوسكيند في ملحمتهِ الروائية «العطر» تلك الرواية التي لم تكن لقصة رجلٍ يقتل من أجلِ المال أو السرقة أو من أجلِ إفراغِ شهوتهِ، بل كانت ملحمة أدبية كاملة وعملاً أسطورياً لا ينسى، فكان يسعى نحو النهايات الدامية، فقط من أجلِ أن يحتفظ بالروائح المثيرة، لذلك كان يقتل الجميلات جرّاء الهوس برائحتهن، دون رحمة أو شفقة عليهن، لذلك قال:

«العطر يعيش مع الزمن، فله مراحل شبابه ونضجه وشيخوخته، وفقط عندما يتخطى مراحل العمر المختلفة محافظاً على أريجه بالوتيرة نفسها، يعتبر عطراً ناجحاً».

كان يبعث لي بأسطوانات مكتظّة بموسيقاه المُفضلة، والتي كان يختارها بعناية، فكلّ أسطوانة كان يدوّن عليها عبارة معيّنة، وفي المقابل كان يتوجب عليّ الإستماع إلى إرشاداته العاطفيّة.

الأسطوانة رقم 1: تحتها عبارة «أنصتي لها عندما تكتبيني».

الأسطوانة 2: «أنصتي لها عندما تشتاقين لي».

الأسطوانة 3: «أنصتي لها وأنت تتحدّثين معي، لأنني سأكون أسمعها أيضاً».

الأسطوانة 4: «لا تنصتي لها، إلا وأنتِ غاضبة مني».

ما هذا الحصار؟ وما هذا الحب والتملّك؟ فهو أحاطني به من الجهات الأربع، لم يدعني أتنفّس إلا وهو معي، حتى في لحظة غضبي منه يريدني أن أسمع ما يحلو له وما يُمليهِ عليّ!.

رجال برج الثور مأخوذون دوماً بشموخٍ غريب بل معتدّون بأنفسهم جداً بإثارة مريبة، يُعانقون التوحدّ في الحب، في الطموح

وفي كلّ شيء، لا يعترفون بالمساواة أو التمهّل في المشاعر، مندفعون دوماً، فهم الراكضون خلف صهوة التملّك والأنانية في الغرام، فكيف إن كان وافي ومراد من ذات البرج، كيف لي أن أعشق رجلين من ذات الزهو والكبرياء والأنانية الحارقة في الحب؟ ما سرّي مع هذا البرج؟ ولمَ هو بالذات؟ لطالما كنت أقرأ لرجال الدلو والميزان وكنت أعشق صفاتهم وأحفظها عن ظهر قلب، لكني أصبحت مأخوذة رغم كلّ شيء برجال الثور، كيف ذلك ورجلاي من ذات البرج؟!

كيف للمُصادفة أن تجمع وافي ومراد عند تقاسيم مُعيّنة، ولها ذات الملامح، وذات النبرة والرائحة القديمة!

وافي عندما كان يتغزّل بي كان يقول لي بإثارة مُفرطة «يا البوقوسة ديالي» بكلّ ما تحمله تلك العبارة من فتنة اللكنة المغربية، وحتى مراد قالها في أكثر من موضع، مما أثار حفيظتي ودهشتي التي صحت من عقر دارها، كيف لهما أن يتقاسما ذات البرج وذات المفردات المغربية؟ كانت والدة وافي مغربية ولذلك كان لها تأثير واضح على بعض مفرداته، لكن ماذا عن مراد هل هو يا ترى أيضاً والدته تعود جذورها للمغرب؟ أم أنها كانت مجرّد مفردة متداولة! وتقاطعنا عندها نحن الثلاثة مصادفة؟! لكن كيف للمصادفة أن تلعب لعبتها معي؟ ولمَ كلّ شيء يحاول تذكيري بوافي؟ أم أنه مجرد ديجافو وسيرحل عني قريباً؟!

لكن للأسف رغم حبي لمراد ما زال وافي يتمكن مني في كلّ مرة، ومن الصعب أن يحتلّ حبّ افتراضي لا أستطيع لمسه ولا رؤيته ولا مشاركته تفاصيل التفاصيل مني، من الصعب أن

بنسيني مراد وافي رغم جنونه وحبه العظيم، لكني ما زلت أحتاج لحبٍ حقيقي أشعر به، أستطيع عناقه، البكاء أمامه، تأبّط ذراعه أمام العالمين، والنظر في عينيه، كلّ هذه الأمور ما زالَ مراد لم يحقّني بها رغم فصاحته.

قبل القيامة

بِقدر ما يجمعنا الكثير بهم ، قد يبعدنا
عنهم أقل القليل ، بفجيعة ، بخيبة
وبمأساة.

بوداعة الأمنيات وببراءة الأحاديث، أخذتني معك نحو الأحلام المزدحمة، نحو الحشود اللاهثة، هناك عند مفرق التفاصيل أخبرتني أسرارك، قاسمتني عقلك، أشعارك، خوفك، ضياعك وكلّك، هناك فقط بدأت تتسربل بداخلي وتنساب، هناك فقط أفقت على غيبوبةٍ تبدأ وتنتهي بك، هناك تعلّمت كيف تكون ابتهالاتي أكثر خشوعاً، هناك بالذات أصابني الخدر العاطفي لأول مرة، وهناك تجمهرتَ حولي بعدةِ وجوه، وبأكثر الشخوصِ جاذبية كنت أنت.

كنت تحمل أسفاري فوق عاتقك، وبحالةٍ تامة تتلقّفني بنبلِ الرجال، كنت تعيث بي تطرّفاً، حتى باتت شبهة الحب تزدهر في ملامحي، تشهق مع كلّ شرود، وفي نظرات عينيّ الشاخصة تبتسم لهم أنت، تملأ كلّ المساحات الشاسعة، لتأتيني بلغةٍ قاطعة، فتقول «اسمعي اهتمي بصحتك» تلك النبرة الآمرة تنخر أوردتي، تجعلني ماثلة أمامك بكلّ أنوثة وطفولة، وبطراوة اللسان أتحسس صوت حرفك الرخيم بأنفاسي، أركض بك في حنجرة الدلال كطفلة تأبى أن تنضج، أقطف فاكهة الغرام منك بحّة ببحّة، وكلمة بضحكة أتلوّن، فتتمايل مشاعري بكلّ أنوثة وإغراء أمامك، أخذتني في اللجة بنصف وعي وبشبه حلم، نكلّت بي حتى العظم، أصبحت تلعنُني بعد كلّ عتاب، تعاقبني بالصمت، تحرمني من أحبارك ومفرداتك، أقاسمك وجعي، أطالبك بالرحمة فتزيد من قسوتك قسوة، هل

تحولتَ لساديّ يصفع مازوشيّته بأشد انواع العذاب وهي تصرخ بنشوة وفرح لا و بل تطالبه بالمزيد!! هل أنا كذلك؟ وهل توحي لك نبرتي الخائفة من غيابك بأن تزيدني حُزناً ووهناً؟ هل أصبحت تعاملني كوافي عمداً؟

لقد أصبحتَ تحنّطني لأيامٍ أجهلها، لمستقبلٍ مُخيف ولأحداثٍ مُربكة، كما قلتها لي ذات احتواء: «طالما نحنُ على قيد الحُب يا سُكّريّتي توقّعي أي ربكة طارئة تُصيب علاقتنا، لا تتوقّعي أن نمضي بذات الوتيرة وبذات الريتم، هنالك ذنوب يجب أن تُقترف وبعض الندم لابدّ أن يحيي إنسانيتنا وخوفنا لنعود بذنوب ألذّ، هكذا يصبح الحُب أشهى في أقصى حالات العذاب، فأنا لا أطمح بمناعةٍ تحمينا من أمراض الشوق، العتاب، الإنتظار، الخذلان والكره المثير، حتى نعود بحب يملأ جوع جسد المسافات والغياب.

تحقنني بالفجيعة دائماً بعد كلّ مُشادّة كلّاميّة قائلاً: «انضجي يا طفلة فأنا أريدكِ للعمر، وليس لهوة الأبجدية، أو لنبني قوافلاً من الحنين والغرام خلف النوافذ الضوئية فقط، ولا حتى لنستوطن المساحات البيضاء في الرسائل وبين الكتب! فأنا أفكر لأبعد من هذا الحدّ الذي نجتازهُ سوياً، لذلك لا تمطري بعتابك وتجفّي قبل موعد الحصاد».

لماذا تضعني بين قابين؟ لماذا تتفنّن بتعذيبي بهذه الوحشية؟ تارة تخبرني بأنك أبي لذلك تريد أن تراني دوماً طفلة بين يديك، لكن فجأة تريد من تلك الطفلة أن تنضج قبل عمرها فقط حتى توازيكَ فكراً!! أنا أيضاً أريدكَ للعمر، وأي عمرٍ لا أعلم! ولا يهمني معرفة ماذا تقصد بالعمر حين قلتها لي وأنت تصرخ كتابياً، وكأنني

أسمعك من أحرفك الحارقة والمشتعلة غضباً عليّ، لذلك كنتُ أنمسّك بمبدئي أكثر فأكثر

لكن في عبارتك التي قلتها لي وأنت تطحن مشاعري وتعجنها «أنا أريدكِ للعمر، لا تجفّي قبل موعد الحصاد» وجدت فيها ما يُعزّيني جداً، أغرتني لغتك الضمنية التي تأتي مشدوهة بوتيرة عشقيّة مناضلة للرمق الأخير،لا يُغريكَ الإستسلام ولا تبحث عنه ولا تريد أن تشعر بسأمي أمامك لذلك كنت تتلوّن أمامي بألف لون ولون، فتطالبني أن أكون معك كالحرباء، حتى لا يقع حُبّنا في محظور الملل، لذلك كنتَ دائما تأخذني من الحُب نحو قداسةٍ أجهلها، نحو الموت والتمدّد تحت مقابر اللغة، وأنا أتشهّد بأني لا أحب غيرُك، لكن لم يكن يُغريك صوتي المخنوق عشقاً، بطبعك الساديّ كنت تربّيني لمنازلةٍ أقوى ولتضحياتٍ أعظم، وبطبعي الذي اكتسبته منك أم اكتشفته في نفسي منذ إعصار قسوتك، بأنني أخضع لك بمازوشية تتواطأ مع تمرّدك بوجهٍ واحد، وبلغة واحدة وتحت كنفِ واحد واسم واحد، لا يأخذ من شرعية الأسماء سوى أن حُبّنا أصبحَ كالعبادة، تلك العبارة شرعّت لي علامات تعجّبٍ كثيرة واستفهامات انسلختُ عنها منذ أن أعلنت عليك الحُب، أوّلها هل ستقطع انسدال الستار الذي بيننا وتظهر لي من عالم الضوء نحو واقعي بوجهك وصوتك وملامحك، التي ترتسم بفتنة بين تفاصيل التفاصيل؟ هل ستقترب أكثر لتتوحدّ بي حدّ صراخي بالرحمة؟ وهل كنت تقصد بأن لا أجفّ قبل موعد الحصاد بأنك ستقطفني قُبلة قُبلة وعناقاً بعناق؟ أم ستمضغُني دفعةً واحدة حتى تُنهي عليّ؟ متى موعد الحصاد الذي تعترف به وفي أي يوم من الشهر سيوافق؟ وفي أي

عامٍ سيكون؟ يااه مُربكٌ أنتَ في أقصى تجلّيك ورجولتك.

* * *

- متى سنلتقي؟

- وماذا نفعل الآن؟

- أسنظل حمقى للنوافذ الضوئية؟

- بل عشاقاً للبياض.

- ألا تعتقد بأنها حيادية.

- كيف تكون كذلك! ونحن في كلّ يوم نلوّن بياضنا كيفما نشاء.

- ما عدت أحتمل هذه المساحات الشاهقة بين بريدي وبريدك.

- بل هذا الحب اللا منطقي هو من سينقلنا يوما لمساحةٍ أخرى.

- لا أطيق الإنتظار.

- ألم أعلّمك كيف يصبح الإنتظار في الحب شهياً؟

- بلى.

- إذن تلذّذي به حتى حين.

- أيغريكَ أن تظلّ في خانةِ الرجُل المشتهى؟

- ومن لا يغريه ذلك، لكني أعلم بأنكِ ترمين لأمرٍ آخر بصورةٍ مُضلّلة!

- من المؤسف أن يكونَ لصوتِ حرفي هذه النبرة الواضحة في الحديث.

- على الإطلاق، فحرفكِ في هذه اللحظات الشفافة لا يكون

صريحاً وواضحاً إلا أمامي فقط، لذلك إطمئنّي وأخبريني بما كنتِ تحومينَ حوله.

- ألن تُخبرَني عنك؟ أو كيف تفشيّتَ بين بياضي؟

- ألديكِ متّسعٌ لأدلق عليكِ أحزاني؟ ألديكِ القدرة على الربت فوق نحيبي بحبّ دونَ أن تضجري من ساعاتِ بكائي الطويلة؟

- لديّ كلّ العمر حتى أُعانقكَ بهِ بسلام، ولديّ كلّ الأبجدية الفارهة حتى تعيد ترتيب فوضى لغتك بحنان، لذلك دع الستارة تنسدل من الأفق حتى الوضوح بطمأنينة.

- من أكون؟ أو من أنا؟ أو حتى ماذا أفعل هنا؟ أو كيف مرضتُ بكِ؟ يااااه هذه الأسئلة المعقّدة والتي لا يحتملها حرفي أو حتى عقلي، كيف سأجيبكِ عليها بصورةٍ منمّقة، أو حتى بطريقةٍ مرتّبة وواضحة؟ ألا تلاحظينَ أمراً هنا! وحتى قبل البداية! بأني أكثرتُ بحشر «أو» بين كلّ شهقةٍ وكلمة، في الحقيقة بل من المفترض أن تكونَ كذلك، لا بل دعيني أصارحكِ بنصفِ الحقيقة، فأنا لا أحب أن تُسلّط الأضواء عليّ مرّة واحدة، لذلك دعيني بنصفِ ذاكرة أكتب، وأنا أعلم بأنكِ ستُقدّرينَ ذلك، أليس كذلك؟ أااوه لا يتوجب عليّ سؤالك الآن، حتى أكمل ما يجب عليّ إكماله، والله يا سُكّريّتي ما كتبته قبل قليل فوضى أدبية سنحاسب عليها بل ستُحاسبينَ لدفعي على كتابتها، لكن لا بأس فأنا سأكمل حتى تبلغ مني الفوضى ما تبلغه، من خلفِ زمهرير الليالي الحالكة تعلّمتُ لغة الحرب، لغة الحزن، لغة الصمت والفراق، تعلّمتُ منها كيفَ يجب أن أكون، تعلّمتُ منها كيف يكون استراق اللحظات الغابرة

بين الكلمات حميمياً، تعلّمتُ كيف أنصت جيداً لبكاء الناي وكيف أخشع بين سهاد الليل، لم أكن بحاجة إلا لصفعةٍ أنثوية توقظ رجولتي القاحلة من عمقها، لذلك حاصرني غيابها الطارئ بنزقٍ كنت أجهله، لذلك كان ميلادي حافلاً باحتضاري وضياعي، لذلك تركتُ للعالمين ملذّاتهم، ثوراتهم، وعروبتهم الكاذبة وانكفأت خلف العدم أبكي، أحترق، أموتُ وأحيا، لم يكن بمقدوري حينها أن أعود لها، فالمسافة التي بين وجعها وحزني لن تطفأها عودتي، ولن يرضيها دهسي تحت عجلة الخيبة، فهي لن تنظر لعينِ رجلٍ كاذب، لن تُصافح يدِ مراوغ، ولن تعانق جسدَ خائن، هي نجمٌ مذّنب لن ألحقهُ ولن أحظى بهِ، كانت لي يوماً، وأضعتها مني عمراً، لذلك كنتُ أجوب الفضاء كفراغٍ ممتلئ بها، ولأنني كنتُ كذلك، حشرتُ خسارتي بين أحرفي لأكتبها ولأتباكى عليها، فخلف الذكريات الهزيلة، هنالك دوماً ماضٍ لا يمكن نسيانه، وعلى غرار التفاصيل المحمومة كانت ترفل مني بعد كلّ مواجهة كلامية، لم أكن حينها أعلم بأنها تخبئ لي مفاجأة طارئة بقدرِ ما كذبتُ عليها، كانت تستعدّ لمغادرتي، لتركِي، ولصفعي بفقدها، كانت آسرة في أخرِ لقاء بقدر ما كانت موجعة، لا أعلم لمَ خذلتها، أو حتى كذبت وكذبت وكذبت عليها، لمَ كنتُ بتلكِ القذارة معها، للأسف كنتُ من الأشباه لم أكن رجلاً يستحقُ صبرها، حبها، خوفها، حنانها، صوتها، طفولتها، عمقها وعقلها، لم أكن لائقاً بها، هذا ما توصّلتُ إليه في غيابها وهذا ما تعلّمتهُ في بُعدها، لذلك صدقاً لا أعلم من أنا أو كيف كنتُ من قبلها، كلّ ما أعلمه أني كنتُ أشبه برجُل بكلّ سطوته ونقصهِ ورصيده النسائيّ المتفاقم بشهوانيّة وشبق، أمَ

كيفَ وجدتـكِ أو كيفَ تكاثرتُ فيكِ؟ حقيقـةً لا أعلم، فأنا وجدتكِ في ليلـةٍ ماطرة بيـن صفحـاتِ مجلـةٍ مهترئة فـي أقصى غرفتي، لا أعلم كيف جئتِ إلـيَّ أو كيفَ عثرتُ عليكِ، لكنـي أدرك بأنها عبثيّة الأقـدار، هي الوحيـدة التي تُشـرّع لقلوبنـا الحب المباغـت في حينِ غرّة مـن أوجاعنـا، لذلك وجدتنـي مأخوذاً بـكِ من الحـرفِ الاول، أصبحتُ أقرؤكِ بنهمٍ أكبر، و أجوعُ لغتكِ دائمـاً، أتتبّعكِ وأنبش بين أبجديتـكِ برجولـةٍ منتفضة، أنـتِ أعدتني للحيـاة، لتاريـخِ الكلمات، ولملحمةِ الأسـاطير، أخذتني معكِ في كلّ مقالاتكِ دونَ أن تكتفين، بل أنا علـى يقين بأن الكثير مثلـي، لكني الوحيد الـذي حظيتُ بكِ، أنتِ كنتِ لـي أكثر من كاتبـة وأكثر مـن حالةٍ ملهمـة، وجدتيني بين أنفاسـك، بين غضبك، بين ثورتكِ النسـائية ضد الرجال، رأيتُ فيكِ ما كنتُ أجهلهُ فيّ، تلعثمتُ كثيراً قبلَ أن أبعث لكِ رسالتي الأولى، لم أكن أعلـم كيـف يمكننـي أن أحظـى بامـرأةٍ قدريّة مثلـكِ، كيف أتعاطاكِ وكيف أتراشـق معـكِ اللغة! لذلـك امتطيت صهـوة الجنون للحدّ الذي أعلنتُ عليكِ فيهِ إقامتي الشرعية لبريدكِ، مهما كان ردّكِ أو مهمـا جاءني صمتـكِ خاشـعاً وآسـناً، كان يزيدني تشـبّثاً بكِ، لم أكن مجرّد معجـبٍ فقط، بل لأننـي أردتكِ معي للعمـر، جئتكُ بكلّ غاراتي العشقيّة دفعةً واحدة، طالباً من الآمالِ المعلّقة في السماء، أن يصلني منكِ نورس يشي لي بالأمل، وها أنا الآن أجوبُ المساحات الملوّنة معكِ بجنـون، لديّ الكثير لأخبركِ عنـه والكثير حتى أحقنكِ بـه بغرابتهِ وتوحـدّه، لكـن أرجـوكِ أن لا تلقي علـيّ بالإسـتفهاماتِ أكثـر، وأن لا تخافي منّـي، وأن لا تذكـري ماضيكِ الذي قد يشـابه ماضيّ في شيء، فنحنُ قد عقدنا هدنة منذ البداية بأن الماضي مهما

كانَ متشبّثاً بأطرافِ ذاكرتنا، لابدّ لنا أن نطمسهُ بقدرِ الحب الذي نتمنى أن نعيشهُ، لذلك دثّريني بكِ فأنا أحتاجكِ، لا تتركيني فارغاً بوحدتي إملئيني بكِ قدرِ المستطاع.

من الغريب أن تتقاطع بي الأقدار برجلٍ أشبه بالمستحيل، بحكايا ماتت بالخيانة لتعود إليّ بحكاية مطابقة لها، لكنها هذه المرّة لم تحدث معي، بل حدثت في ماضيهِ هو، لكن ألا يجدر بي الآن الهرب بعيداً عن شبهة الخيانة الملتصقة بهِ؟ أم أنّ دور الضحية الذي سيلتصق بي على حينِ غرّة من سذاجتي سيلائمني أكثر؟

* * *

- ما رأيك يا أيهم، أن يكون موضوع حلقتنا القادمة عن قيادة المرأة في مجتمعنا، ونأخذ الموضوع بكلّ جوانبه وأبعاده؟

- جميل، قد يراه البعض موضوعاً مستهلكاً، وأمر كثر عليه تسليط الضوء دونَ جدوى، وقد يراه الآخرين أنه مجرد رفاهية تطمح لها النساء، وحقّ من الحقوق التي هي من دواعي الفتنة أو الإنفلات، لكن الأمر له أبعاد أخرى، وخصوصاً أن الكثيرات متضررات من هذا الأمر، مع السائقين أو سيارات الاجرة.

- فعلاً ليكن هذا الموضوع حديث ساعاتنا الأسبوع المقبل بكلّ حيادية ووضوح.

حين طرأ على بالي هذا الموضوع بالذات مع كلّ الأحداث التي يمرّ بها مجتمعنا السعودي اليوم، ومع اقتراب حملة 26 اكتوبر 2013 تذكّرت معاناتي الشخصية، وكيف لفتاة بعمري أن تقف في الشارع لمدة عشر دقائق فقط لتنتظر سيارة أجرة تُقِلّها لوجهتها، ودائماً كنت على خلاف شديد مع السائقين بسيارات خاصة.

فهم لهم أضرارهم أكثر من منافعهم، فبعضهم يأتوننا بروح حاقدة وحانقة على كلّ شيء، والأدهى من ذلك لا يرون أبعد من أنوفهم، كان أبي شديد الإعتراض على أن يجلب لنا سائقاً خاصاً لعائلتنا، لأنه بنظره سيستطيع أن يقلّنا لأعمالنا بقدر استطاعته، لكن شيئاً فشيئاً بدأ هذا الأمر يخرج من يده مع كثرة مشاغله، ولم يكن أمامي إلا سائقا بأجرة شهرية أو سيارة أجرة، وكلاهما أسوأ من الآخر، لا أعلم لمَ هذا الكم الهائل من الإعتراضات، حول أمرٍ يعتبر ضرورة للكثير من النساء العاملات، المطلّقات، والأرامل، ففي نهاية الأمر هو سيكون أمراً اختيارياً وليس إجبارياً، لذلك كنت متفائلة بهذه الحملة ككلّ امرأة متضرّرة من حظر القيادة في المملكة، والمفرح كان في هذا الشهر بالذات هو خروج الكثير من النساء للقيادة قبل اليوم المحدّد للحملة، وجميعهن حاصلات على هذه الرخص من خارج المملكة، والمدهش في هذا، والذي يحرّض على التصفيق بأن ولاة أمرهن معهن في المقعد المجاور لكلّ امرأة منهن، وهذا بحدّ ذاته يدعو للفخر بأنّ في مجتمعنا بكلّ أحداثه وتأخره ؟؟؟ عن باقي المجتمعات يوجد رجال بمثل وعيهم ورجاحة عقولهم وغيرتهم الصحيحة على المرأة، بخلاف من هم ضد هذا الأمر، ألا ينظروا للخلوة الشرعية مع سائقها؟ وكم من حادثة اغتصاب، خطف، وقتل حدثت للأطفال قبل النساء؟؟

لكن كما هي العادة انطوت صفحة قيادة النساء للسيارة لوقتٍ نجهله، ولزمنٍ ليسَ لنا، لكن رغم كلّ هذا القمع والحصار الذي يطوّق حقّنا الطبيعي، سيأتي ذلك اليوم الذي سننعم فيه بالسلام، رغم كثرة الآراء الرافضة، واستغلال هذا الوضع من قبل التيارات

الفكرية المختلفة، وتزايد الأطراف المؤيدة، وهذه الفوضى العارمة التي تشتعل حول هذا الأمر الجلل، سيأتي يوم ليصمت الجميع أمام حدثٍ لن ينسى، سنعيش ذاك التغيّر الجذري عاجلاً كان أم آجلاً، رغم قمع أصواتنا، ودهس متطلباتنا الضرورية، سنحصل عليها عمّا قريب بإذن الله.

* * *

كانت رسالتك الأولى التي تحدّثت بها لي عن نفسك بصورةٍ مبسّطة، مورقة، مزهرة، وطاعنة بالعمق والمشاعر المتعبة من الماضي الغابر الذي يتقاطع مع ماضيّ في الكثير من المطارح، ما زلت لا أعلم هل كانت مصادفة حقاً؟ أم أنها ضربٌ من جنونِ أجهله؟ فأنا ما زلتُ أقرؤها بذاتِ الربكة، وبذات التشنج العاطفيّ الذي أصابني بسببها، حينها كنتُ أحيطكَ بالأسئلة، بل بالكثيرِ منها، كنتُ أحوم حول الإستفهامات الطارئة أنتظرك، أترقّبك وأُباغتك، لذلك أبى النوم تلك الليلة أن يعانقني إلا بعدما علمت عنك ما يرضي لهثي الطويل حول ما أجهله، فكانت تلك الرسالة لا تنسى ولذلك سأبقى أحتفظ بها طويلاً، حدّ الخلود، وها هي ستنتصف الرواية بزهوٍ وشموخ.

فبعثت لك حينها:

- لا أستطيع النوم، وهذه مشقّة أخرى أصارعها وتصارعني، أشعرُ برأسي يغلي، ثمّة أفكار تطحنني، تجعلني متوقدة، ثمة حرف لا يريد الإنصياع لأسطري، ثمّة كارثة ستهبط فوق قلبي مباشرةً، أنا أتصدّع، أنشطر وأنزلق، أنا أبتعد مني، أودعني وأرحل بملءِ شعوري، أنا الفصلُ الأخير من جفافِ الحب، أنا السهاد والسديم،

أنا لا أعرفني بل أعرفني لكنني أجهل من أكون في الحقيقة، إسمي «سُكّر» لكنني لم أشعر بحلاوة الحياةِ مطلقاً، هذه المرارة التي ترافقني منذ الدمعة الأولى تصيبني بالغثيان، كيف لنا أن نكون عكس أسمائنا، كيف لنا أن نكونَ كذلك، وكم من سعيدٍ هو تعيس؟ وكم من أملٍ هي متشائمة؟ وكم من كريم هو بخيل؟ وكم من إبتسام هي بائسة؟ وكم من الكثرة تُصادف القلّة بصدقها ووضوحها؟ أنا الآن أقف مباشرةً أمام مبنى متهالك، آيل للبكاء ولمعانقة قاعِ الأرض، أنا الآن أتأمله كما أتأملني من الداخل، كلانا سنقع بعد قليل، كلانا سنصرخ حدّ التناثر، هذا البياض الذي ألوّنهُ بسوادِ حرفي أمرٌ يدعو للشفقة، لذلك لا تشفق عليّ، وهنالك أمرٌ آخر لم تخبرني به ما هو اسمك؟ ولم تخبرني هل أنت مدمنٌ لرائحةِ الورق؟ أو فلتخبرني كيف يمضي يومك الآسن؟ ما هو قميصك المفضّل؟ وما لونه؟ وهل تثيرك البحّة اليونانية في الأغنيات؟ وهل تجيد اللكنة الإيطالية في بعضِ الكلمات؟ لا أعلم لا تتعجّب من هذا السؤال الأحمق، لكن صدقاً أحبّ اللكنة الإيطالية، وأتقنها في بعض المواضع، لا عليك، وماذا بعد؟ لا أحب أن أشعر بأنني أستنفذ أسئلة الكون لصالحي، لذلك كن كريماً وأخبرني أنت، بدلاً من أن أشعرك بأنك في جلسةٍ لتحقيقٍ فدراليّ، هذا الليل صدقاً مخيف ويحرّض على الركض نحو العدم ونحو العتمة الحالكة، الخالية من الضوء والفقيرة حتى من شمعة، ما رأيك بالسير فوق طرقاتٍ مبلّلة بالذكريات، شرط أن تكون حافي القدمين، ألم أخبركَ بأنّ هذا الليل مخيف، دعنا نخاطر، لن نخسر سوى أن نعلم ما كنا نجهله، لذلك سأنتظرك فوق أقاصي تلك التلة وتحديداً أمام حقلِ

السفرجل، لا تقلق سألوّح لك من بعيد حتى تراني وسأكونُ كفزاعةِ حقلٍ ودودة، لا تتأخر، لا أريد أن أتجمّد قبل الشتاء، وقبل أتونِ هذه المغامرة العرجاء.

- وكأنّ دعوتي بكِ تحقّقت، وكأنني ولدتُ للتو، وكأنني بكِ بدأت أنضج، أقرأ، أتحدّث، أغني وأشهق، بكِ فقط بدأت أحرفي تتجسّد، تتكوّن، وتتلاحم، بكِ يا طفلة النوارس بدأتُ أتعلّم كيف تسير اللغة بين عدة حيوات، كيف تنهمر كوحيٍ ملهم، وكيف تنعقد حدّ المرض والصداع، ها أنا رأيتكِ في ليلةٍ حالكة، وجدتكِ قمريّة ومشعّة، من أين يُضاء توهجكِ؟ طالما تنعتين نفسكِ بالبائسة؟ كيف تكتسي ملامحكِ كلّ هذا العشب والزهر، وأنتِ الجافة والقاحلة؟ كيف تبتسمين ببراءةٍ خالصة! وأنتِ هي المرأة المجعّدة؟

دعينا نتوكأ الحياد، وهذه وردةُ البداية أقطفها لك، دعينا نشتمّ الجميع ثم نعتذر ونصفح عنهم، دعينا ندهس معالم الإحتضار بثرثرةٍ غريبة، وسأخبركِ بدايةً من أنا، لأرضي علامة الإستفهام الكبيرة التي ما زالت تنخر رأسكِ الصغير.

أنا الشيخوخةُ المبكرّة، والوطنُ المحاصر، أنا الجيش المغدور والساسةُ الدراويش، أنا القلم الجاف والليل العجوز، أنا حكمة النابغين والثائر المعدوم، أنا الحرف والتعجب، أنا علامات التنقيط، وعقائد العدم، أنا السراب والضياع، أنا لافتة اللا عودة والطريق الشائك.

أنا اسمي «مراد» أجهل عمري حقيقةً، لا بل أعرفه، لديّ عمران، عمرٌ أضعته بين زمهريرَ ليلٍ غابر، وعمرٌ أجهل متى سيأتي، قد يكون بدأ للتوّ، لا أعلم، لا عليكِ، دعيكِ الآن من عمري، فهذا

لا يهمّ، لكن ما يهمّكِ حقاً، هو أن تعلمي بأن عمرَ قلبي وجعٌ ونيف، ككلّ الحكايات الملفّقة أو الدراميّة، الآسرة في كلّ فصول بداياتها كنتُ هناك معها، أغنّي وأكتب، أحلم وأتورّد، أشاكس وأكبر، لم أشعر مطلقاً بأن النهاية تتربّص بنا، بأن الحبَ بيننا سينسلّ ويتناثر، كنتُ دوماً أمتطي العصبيّة، التملّك والتفرّد، كأيّ رجلٍ شرقيّ، كان يحاول كبح تمرد أنثاه، كانت هي في الجهة المقابلة، امرأة بعدّةِ وجوه، بعدّةِ أفكار، بعدّةِ أبعاد وبعدّةِ مشاعر، كانت امرأة يصعب على رجلٍ مثلي أن يقيّدها، يحكمها ويأسرها،كان من الصعب أن أطوّقها أو حتى أروّضها، فهي امرأة المستحيل والغمام، امرأة المطر والحرائق، امرأة الأذكار والادعية، امرأة الأدب والفلسفة، امرأة اللا شيء وكلّ شيء، لم أكن أمامها سوى رجلٍ بعقدٍ حياتيّة مكتظّة، لم أكن سوى شقّ ناقصٍ منها، حاولت أن أجعلها تكتمل بجنوني، بتسلّطي وسطوتي ولم أفلح، انتهينا تماماً مثلما ابتدأنا ذات احتواء، بدونها أدركتُ الكثير بقدرِ ما جهلتُ من أكون، أو حتى كيف تحوّلتُ إلى عربيد، إلى صعلوك، وإلى ناسك، لا أعلم كيف بدأت أتلو على قلبي لغةٌ دامغة؟ وكيفَ بدأت أطوار وجعي تتشكّل وتنمو وحتى تظهر تحتَ جلدي؟ كيف نصبح لخيباتنا جماليّة مطلقة من بينِ الأسطر؟ صدقاً لا أعلم.

لا بأس، عموماً، أحب رائحة الورق الطازجة، التي فور اقتنائها أغرق بين شذاها، لا أحب رائحة الكتب المهترئة والمتآكلة، والتي طواها الزمن واعتادتها الأرفف، قميصي الأسود من أرماني أعشقه جداً، وأيضاً لم أستمع لأغنياتٍ يونانيّة قط، زوّديني بها في الوقتِ القادم، أريد العيش مع طقوسكِ وأجوائكِ، بالنسبة للكنةِ الإيطالية

أجيد كلمة واحدة فقط وهي «ti amo tanto» ولابدّ أنكِ تعلمين معناها، لكنني لا أقصدها هنا، لذلك أعتذر إن أغضبتكِ بسببها.

كيف يمضي يومي؟ هذا السؤال مخيف لا أستطيع أن أجيب عليه دفعةٌ واحدة وبشكلٍ مفصّل، لكن دعيني أخبركِ أمراً أو فلنعقد صفقةً ما، كلّ يوم سأخبركِ كيف يمضي يومي، ومن أين أكتبُ لكِ، فأنا رجُل الترحال والسفر الطويل بين الأوراق، ولي في كلّ يوم حدث يُحكى عنه ويخلّد، لذلك سأروي عطشكِ للحكايا الدائخة لا تخافي، هل اتفقنا؟

لكن بعيداً عن من أكون، أو كيف سأستطرد بعد ذلك، ألم تشعري بالبرد؟ لا تقلقي لن أقولَ لكِ اقتربي، حتى أطوّقكِ بذراعيّ، صدقيني فهذه لن تسمعيها مني، لكن ما قصدته هل لنا أن نذهب لمقهى ما، أو لأيّ مكانٍ أخر، لا أحب أن أكمل ما بدأناه في ذات المكان، وخصوصاً لقد أصبح هذا المكان موحشاً جداً، وأيضاً حتى نزرع الذكريات المضيئة في كلّ الأخيلة.

ما رأيك؟

فكانت رسالتك هذه من الرسائل المتشرّبة بالحب، بل من الرسائل التي ستبقى مُعلّقة بين مساحاتِ اللغة الملهمة،فأنتَ حقنتني حينها بجزيل الأبجدية من حيث لا أعلم، فكان ردّكَ على سؤالي عظيماً بنبلكَ، لذلك كتبتُ لكَ خوفي عارياً، وواضحاً، لم يعد بإمكاني Yخفاء قلقي أكثر:

- أخافُ من ثورةِ الحبر، من ثورةِ الأسطر واللغة، فأنا أشعر بأن موعد المظاهرات الورقيّة قد اقترب، ماذا عنك يا مراد؟ هدهِد لي خوفي أرجوك.

- لا بأس، أكتبي وثوري فوق الأبجدية، فنحن في زمنِ الثورات والمنازعات الطائفية والعرقية، نحن الكتّاب لا شأن لنا بحربهم، يكفي أن نحارب للأدب، للغة وللحرف، هذه ايضاً ثورة وهذه ايضاً وطنية لغويّة، لذلك ناضلي، وأمسكي بزمام التعصّب الكتابي، لا تتكاسلي فتُدهسي بين حرفٍ وسطر، الكلّ في الواقع يضطهد وحتى في الخيال أصبحنا مضطهدين بلغةٍ لا نفهمها، وبمنطق جاءنا من العدم، لا تحرّري نفسكِ من قيودها ولا تبحثي عن السلام، من المثير أن تبقي في حالة تأهب لحربٍ دائمة، تلك الحالة الدموية ستثري لغتك حدّ اللا تصور، لذلك كوني غازية، همجية ومتطرفة، كوني من الجبابرة حتى ينحني لك الأدب بملء جوارحه، فزمن العصر الذهبي ولّى ورحل، فنحن يا طفلتي في زمن الظلام، والمناطق المحظورة، زمن جشع الرؤساء وخيبتهم، زمن العروبة الراحلة والوطنية المتعسفة، نحن في زمن الشهداء والدول المغتصبة من أبناء شعبها، لا تتعجّبي إن شعرتِ بأن هويتك الوطنية قد سلبت، وأن لا شيء يحيل بينك وبين الموت، فنحن أصبحنا على شفا الإغتيال، نحن يا سكّر تحت وطأة مؤامرة عربية كبرى، لها اطراف أجنبية ولها توابع أخرى، لكن للأسف أن تنظري لحال الشعوب وهي تنهش في أجساد بني جلدتها بلا ضمير أو رأفة، تنظري إليهم بعين الدهشة والخوف، لا شيء يجوس أمام طمعهم على السلطة وترديدهم لكلمة «إنها الشرعية».

قد تجدين رئيساً أخذ ما أخذ، وما زال يريد المزيد، ثم يصرخ بوجه الكلّ رافضاً التنحّي والتخلّي رغماً عن أنف الشهداء والثائرين بحجة أنها سلطته الشرعية، عجبي على عروبتهم، ودمائهم

الباردة، نحن في ضيافة مجزرة الأقوى، لكن كوني أذكى وبدّدي أمان الأحرف، قيّدي أبطالك ولا تدعيهم يتفشّون خارج النص، ضعي لهم حدوداً مكانية وسطرية، قيّديهم بها، ضاعفي أغلالهم، المهم أن يتمدّدوا بين أوردتك حدّ رأفتك بهم، لا تصبحي غبيّة حتى لا تتعرّضي لانقلابٍ لغوي عظيم .

فأنا كانت وما زالت تغريني نزعتك الوطنية لكلّ الحروب المقامة ضدّنا، تريد الجهاد وتشتعل غضباً على مدار الأيام، والأشهر، والسنين، لدم الشهداء المهدور بسطوة تخرسنا عجزاً، لم أرَ رجلاً يحمل هموم الأوطان معه في سفره وترحاله مثلك، فغربته تبدأ بشعوره بعدم السلام في أكثر الدول سلاما وهدوءاً.

* * *

فقط حتى أتمدد تحت اللغة بسكونٍ طاعن، خسرت الكثير من الصداقات، والكثير من الوجوه والكثير الكثير من الأصوات المحبّبة الى قلبي، تبّاً!! ما هذا الثمن الذي أدفعه بالجُملة؟ أشعر أحياناً بأنه يجب عليّ أن أتوقّف، أن أستدير لهم، أن أمدّ يدي لشدّهم من أكتافهم، أن أصرخ بأنني أحبهم بامتلاءِ الأحبار وبمشاعري المخطوفة، أن أبكي وأبكي حدّ انتهاء البكاء من محاجرِ الوجد أمامهم، لكنني لا أفعل، فقط أكتفي بمراقبتهم من على بعدٍ لا أتواجد بينهم، خذلتهم بقدرِ خذلانكَ لي، وبقدرِ خذلاني لنفسي، تركتهم للذكريات ولكلّ التفاصيل التي لا يمكنها أن تعود إلا بشقّ الحنين.

من المؤلم جداً أن أجد أكثر ما يؤثّث لي مشاعري المرهقة، سببٌ في بعدهم عني، لم أكن أتوقّع بأن انشغالي المدمغ وعزلتي

القائمة في الكتابة قد تُحدث بيني وبينهم فجوةً لا يمكنني سدّها! لم أكن أعلم بأن رزمةً من ورقٍ قادرة على ركلنا نحو العدم دونَ دراية منّا! أكنتُ على خطأ! حينَ اكتفيتُ بالصمت، حين ابتعدت، وحين فصلت بين الصداقة وتراكمات الأحزان؟ أكنتُ على خطأ حينما قرّرت معانقة الأحرفِ الوليدة من الخيبة؟ أكنتُ على خطأ حين ابتعدت بجراحي الدامية عنهم إلى البياض، فقط حتى لا أؤذي لهم مشاعرهم الفتيّة؟ نعم كنتُ على خطأ، لأنني تعاليت بالكتابة حدّ السلام الروحيّ، كنتُ على خطأ لأنني لم أكتفِ برفقتهم نحو عوالمٍ تعترف بالأكاذيب والمجاملات المبهرجة، وفضّلت عليهم كلّ الحيوات التي تجعلني أجوب المناطق المحظورة وأنا مشدوهة العين قبلَ القلب، لا بأس رغم المعادلة الصعبة، فأنا لن أعترض مجدداً على أي رحيلٍ قد يصفعني بهِ المقربينَ مني في لحظةٍ طارئة، فمن المهمّ لديّ الآن هو أن لا أخسرني قبلَ الكتابةِ وبعدها، لذلك طالما تشهق أناي مع كائناتي الحبريّة بانسجامٍ تام، فأنا حتماً سأكون بخير.

فنحنُ نكبر كثيراً بين الكتب، ننضج ونشيب، نعيش الكثير من الحيوات، نتلبّس الكثير من الشخوص، ونجوب الكثير من الأزمنة التي يستحيل أن نطأها يوماً، نعبر التاريخ لنقاتل، لنحبّ لنجّن، لنموت ولنحيا، نحن نتكاثر بين عوالمِ الورق ونذوب، نختفي حدّ التناثر ونتكتّل بين الهوامش، نحنُ نقرأ لندرك، لنعيش، ولنتعايش مع ذاتنا بأكثرِ الطرق سلميّة.

لذلك قد أبتعد لأيام، لأشهر وحتى لأعوام عن الجميع، لكنني أتواجد بقليلي وكثيري بين أرففِ مكتبتي، هنالك فقط أولدُ وأجهَضُ، هنالك أتمدّد وأنكمش، أنا دودةٌ ورقيّة، لا يسعني هذا

الكـون بـكلّ ثوراتـه وعروبتـهِ الراحلـة، لا يسـعني النفـاق وملامـح الضجر، لا تسعني المشاعر الموقوتة ولا الأرواحِ الخائفة، لا تسعني هذه الحيـاة بزيفها وبؤسـها، أنا ورقـةٌ مشـجّرة، بل سـطرٌ منقّط، بل علاماتٌ مزخرفة، أنا البياض والحياد، أنا الفـراغ والعدم، أنا الحرف المشبوه والكلمة التـي لا تنطـق، أنا اللغـة الغائـرة بالـدم والقصيدة العرجاء، أنا العناوين الملفّقـة، والنصوص المزدحمـة بالأكاذيب، أنا التاريـخ الخالد والأسـاطير الباقيـة، أنا اللا شـيء قبل كلّ شـيء، أنا الراحلة مع هذا الكم الهائل من المفردات، والمتكاثرة بين الأحبار.

أنـا مجـدٌ تائـه وأطروحـة قديمـة، أنـا الحـب الأخيـر، والقصة العتيقة، أنا تجمهر الكتـب، واللحن الباكي، أنا نـورسٌ جائع، ودعوةٌ صاعدة للسماء، أنا بحرٌ وحيد وسفينة غارقة.

«أنا الجميع في الوحدة، والوحيدة في الكثرة».

هكـذا أصبـح عندما أقـرأ، عندمـا أغـرق وأركض بيـن الكتب، هكـذا أشـذّب الأفـكار بيـن أسـطرِ الأدبـاء، هكـذا أصبـح قدّيسـة للتفاصيـل الصغيـرة عندمـا أتهجّـى الأحـرفَ القاتمة، وهكـذا أبعث في كلّ مـرة عندما أشـتمّ الورق، عندما أشـهق الحكايـات المؤرخة، وعندما أربّت على قلبي بين كلّ سطرٍ ووجع.

علينا الخلود بين صفحـاتِ البياض الشاسـعة، وعلينا الإنصات بحذر لتمتماتِ الأسـطر المبتورة، علينا معانقة كلّ حرفٍ شـارد وكلّ كلمة وحيدة، نحنُ الحياة الباقية للكائناتِ الحبريّة، فرفقاً بها.

لذلـك سـأبقى أنبـش بين سـبرِ أغوارهـا للأمـد؛ لذلك سـأبقى الدودة الجائعة للأحبار حتى حين.

قبل الانشطار

لا تسل كاتبة عن قلبها ، فهي أودعتهُ
لكائناتها الحبريّة

لم أكن أخاف إلا من خونة الحُب، والتفاصيل الصغيرة، لم أكن أخشى إلا من الجدالات المفخّخة بالفراق، والنهايات الباكية، لم أشأ لصديقتي أن تكبر لهذا الحدّ، أن يأخذ منها الهوى ماضيها وحاضرها وما تبقّى لها من العمر، لم أرغب أن أراها تتسول الحنان من الذكريات يوماً، لم أستطع تحمل بكائها، صراخها واحتضارها حنيناً وهي في مقتبل العاطفة.

ما زلتُ خائرة القوى أمام الإستفهامات التي لا تملك لنا أي إجابة لتذيب الحرائق بداخلنا، حتى تجعلنا نشفع لهم، حتى تُجمّل قُبح صورتهم في قلوبنا، وحتى نستطيع الغناء والرقص خلفَ كلّ غياب ووداع براحةٍ أكثر، بحرّية وبأناقة تشعل فتيل الحياة في أطرافنا من جديد.

ما كانَ عليكِ أن تتشبّثي برجلٍ لا يلبث أن يبقى حتى يختفي، ولا يلبث أن يختفي حتى يظهر من جديد.

هذا النوع هو الأخطر من الرجال، يأتونكِ بعد غيابٍ ونيف محمّلين بالحُب، وبالكثير من الحنين، يُجيدونَ إغراءكِ بجذوة اهتمامهم المصطنع، وبعذابهم المبكي في الغياب، هؤلاء الرجال مُربكينَ للعاطفة، ومراوغين جداً حدّ إصابتك بدوخة عاطفية من حيثُ تجهلين.

هؤلاء الرجال يعودون لأرض الذكرى القاحلة بمهمّة خطيرة

وهي: أن يعيدوا مجدهم لقلبكِ بإثارة أكبر، وبمناورة عشقية تجهلينَ خطواتها، لكنكِ تسيرينَ فوقها بتعليماتهم، فأنتِ المأخوذة من تلابيب تفاصيلك لواقعٍ هم من يهيمنون عليه، هذا النوع يا صديقتي لن تستطيعي مقاومته بسهولة، لأنكِ لم تحقني أوردة مشاعركِ بمناعة اللقاء، والعودة، ومصادفات الحياة، لم تتمرّني على الجهاد في سبيلِ النسيان، لذلك ستقعين كلّ مرة في مأزقٍ أكبر وبغباءٍ أكثر.

لذلك ستبقين تجوبين أروقة العاطفة بين كر وفر، بين نسيانٍ وحضور، ستبقين تردّدين أغاني الوجع حتى حين، ولن يبقى لكِ متسعٌ من العمر حتى تحييهِ في حُبٍ آخر، هذا الحُب يا صديقتي سيقصم ظهر حياتك، سيجعلكِ تتشرّبين اللحن القديم كلّ مرة بوهنٍ أعظم، حاولي نفض غبار الذاكرة سريعاً، وإقفال سراديب قلبكِ بحصونٍ مؤصدة، هؤلاء الرجال لا يحقنوننا سوى بالأوهام العاطفية.

كوني ذكيّة،،وحاولي إضرام النسيان بصفعةٍ يبقى أثرها على وجه مراوغتهم للأمد.

لذلك دعي عبارة شكسبير هذه نصب عينيكِ:

«لا تتنهدنّ بعد الآن أيتها النساء، لا تتنهدنّ أبداً، فالرجال خادعون أبداً».

كم وددتُ أن أحقنها بالأجوبة، أن أمطر عليها التوقعات التي تعيد لها مجد ابتسامتها الفَراش، تلك الإبتسامة التي كانت تُؤثّث لنا فوضانا، تُلهمنا الغرام، وتجعلنا نعود للطفولة، للشقاوة والأغنيات الراقصة، لم أذكر بأنها كانت تخشى الفراق لأنها كانت تستبعده بغوايةٍ ودهاء، كانت تجيد طرد الظلمة الحالكة من حبّها، كانت على ثقة بأنها لن تسقط، كانت تعلم بأنها امرأة من حضارة

الصبابة والجنون، كانت تخبرنا بأنها ابنة القصائد المعتّقة وطفلة دراويش الهوى، فكنّا نجيبها بالضحكات التي كانت تثيرها بإصرارٍ أكثر وأكثر على موقفها ومبدئها الذي عقدت معه صفقة لمدى الحياة.

لم تعلم بأن الحب قادر على قلب الطاولة بخفّة السحرة، باغتيالٍ ونكران، فقط حتى يثبت لها بأن له ألف لونٍ ولون، فهو يمقت الألوان المكرّرة، الألوان التي لها لونٌ موحدّ، الألوان التي تضيء عتمة الأشياء، يحبّ الغامض منها، الأَسر، اللون الذي يأتي فوق سطوة الألوان لِيَمْحو، ليضيف، ليلغي وليتداول الصفقات العظمى بين فخاخ الألوان.

كان في عينيها «مستحيل» وأصبح لها «متاحٌ» للجميع.

لم تعلم بأن الأحلام المزهرة بالإشتياق لا تقبل أنصاف الحلول، لا تغريها أضغاث الأمنيات، لم تزر أدنى عوالم الحب، وتحديداً بجوار الأوهام العاطفية، لم تتعرّف على ملامح الكذب والنفاق العشقي، لم تتعلّم كيف تصبح قاسية وخاوية من الأمانة القلبية، لم تُصفع ولم تستيقظ من سباتها إلا عندما تذوّقت الغُبن العاطفيّ، إلا عندما لوّحت للهوى وهي عارية من كبريائها، وأناقتها وأنوثتها، إلا عندما شاهت بعينها كلّ الوجوه، إلا عندما شذّبت الذكرى بخنوعٍ وتأبين لم تتوقّعه أثناء دوختها الغرامية، وها هي الآن تسير مسيرة ألف شوقٍ واحتياج، لم يكن لديها سواي، لم تثق إلا بقوّتي المفتعلة من اللاشيء، طالما أخبرتني بأنني جريئة وقوية جداً في صفع الخذلان من حيثُ يأتي، والحقيقة بأن لا مجال لديّ للانهيار، لا وقت لديّ للبكاء والإنحناء الطويل، فأنا مشغولةٌ بملء

سلال الأمل والفرح لنساء الكتب، مأخوذة بحشو الأسطر بالكثير من الدهاء الأنثوي، حتى تتلبّسهنّ الدهشة حينما يقرأنها، لتحرّضهنّ على النهوض من كلّ وحلٍ عاطفيّ وقعن بهِ ذات غباء، لا وقت لديّ يا صديقتي للحنين، للإنصياع خلف عربات الذكرى، فكاهلي مثقل بأوجاع النساء ضعف وجعي ووجعك يا نايا، ضعف خيبتي وخيبتكِ، لذلك كان لابد لي من النهوض والمجاهرة بالنسيان، بالقوة الأنثوية، بالكتابة والكتابة لي ولكِ ولهنّ، لا يُعقل أن تنهار حضارة النساء، لن أسمح لأشباه الرجال أن يدهسوا آخر ما تبقّى لنا في تاريخ الكبرياء، كان لابد من ثورة، من تحالف أنثوي يعلن انقلابه ضد أعراف الحب، كان لابد من صحوة تليها صفعه ثم نسيان عظيم، وحياة أخرى لم نكن نتوقّعها، ولم نكن نتمناها حتى، هكذا لابد أن تسير الأمور يا نايا، هكذا يا صديقتي واجهي الخيبة بأناقة مفرطة من القوة المثيرة، كوني عظيمة ليس من أجلكِ بل من أجل كلّ نساءِ الأرض.

لطالما كان يستعبدنا أشباه الرجال باسم الحُب، لطالما كنا نلهث خلف فتات الإهتمام، ونرقص حباً بأقل الهدايا، ونثمل خلفَ أثمن الساعات الغرامية التي نقضيها منتشيات خلف هواتف الهوى، فنُشيّد منازلنا معهم من حلمٍ أبيض، لننجب أخيراً أطفال الغرام من الصبر والإنتظار، طاعنةٌ أنتِ يا صديقتي بالأمنيات العاتية.

بتلك الوتيرة المربكة كانت تستمع لي، كما كنتُ أرى شرودي وذبول ملامحي السابقة في ملامحها، بذات الوجع القديم عانقتها، بكيت معها، وكنتُ في الحقيقة أبكي وأعزّي نفسي بها، لم أتجرّأ يوماً أن أتلحّف البكاء جهراً، لم أتجرّأ على الصراخ بصوت الوجع،

لم أرغب أن أفسد ملامح كبريائي بضعف الساذجات، فهذا العالم يبكي كلّ يوم بما فيه الكفاية، ولا أعلم متى سيأتي وقت الضحك الجماعي، لم يكن يحتاجني الكون للبكاء، بل كان يحتاجني حتى أحقن المتضرّعات أمام أضرحة الحنين بالقوة، فنحن نستحقّ الفرح بقدر ما توجّعنا.

كانت أطرافها تنتفض، ومن شدة صراخها انصهر صوتها مع آخر صرخة قلبيّة، لم يكن باستطاعتي سوى حقنها بالسلام، بالأمل وبالكثير من الحياة التي أوشكت على مفارقتها.

- نايا، ألم تقولي لي ذات فرح بأنكِ أقوى من أي هزة غرامية؟ ألم تشعري ذات قلق بأن ساعة الفراق قد حانت، وجئتني تشتكين وتبكين، ثم اقتنعتِ بأن لا خير في رجل لا يفي بوعده حتى المنتهى؟ ما الذي غيّر قناعتكِ الآن يا نايا؟

- أنتِ لا تعلمين كيف يتّسع بي الوجع حدّ الغرق به دون وعي، لا تعلمين كيف يتحوّل الحب العظيم لبقايا ذكرى موبوءة بالوهن!

- بل أنتِ يا نايا التي لا تعلمين كيف لذلك الوهن القدرة على حقنك بالحياة والسعادة من حيث لا تشعرين، فقط إن وضعتِ مستقبلكِ نصب عينيكِ، وبأن ذلك الحب الذي كان عظيماً سيبقى كذلك، لكن بكرهٍ أعظم وبدافعٍ أكبر للإنتقام، للقتال وللتحدّي في سبيل إثبات الذات، في إثبات نجاحكِ في منتصف وجعكِ، أتعلمين كم صفعة ستصفعينه إن نجحتِ؟ كم من علامة تعجّب سترسمين على ملامحه؟ ستجعلينه مشدوهاً بكِ حدّ اللا توقّع، كوني قوية، فالحياة تحتاج لشطارة تماماً كالحب، لذلك أخبريني ما الجدوى

التي ستجنينها من البكاء الطويل، ما الذي ستغدقينه على جمالكِ سوى التنكيل بمعالم أنوثتك وطمرها! أفيقي من سباتك وحاولي أن تعودي للحياة بدونِ حب.

- أن أعود للحياة بدون حب!! يااااه ما أقساها وأوجعها يا سكّر، أنت الوحيدة التي تعلمين بأني طفلة الحب المدلّلة كيف لي أن أكبر حدّ تجاهله بهذه القسوة يا سكّر، كيف؟

- من قال لكِ بأنكِ ستتجاهلينه يا غبيّة؟ أنتِ فقط ستلعبين معه لعبةً أخطر، ستعقدين الصفقات العظيمة لتنجحي في رهانكِ الخطير.

- أخبريني ما الذي مُقبلةٌ عليهِ مشاعري؟

- كلّ خير يا نايا، الآن اذهبي للإسترخاء، فالأيام القادمة تحمل لكِ الكثير من التحدّيات وعليكِ الإنتصار، لا تفكّري بشيء، دعيني أفكّر عنكِ وارتاحي أنتِ الآن.

- كما تريدين، سأذهب للنوم وحيدة لأستيقظ بمهامٍ كبرى، فقط حتى أواجه «عبثية الحياة».

- هكذا عدتِ للحياة من أول جلسة، والآن سأذهب لمنزلي ولقطّتي الوحيدة، لديَّ الكثير لأكتبه والكثير من الرسائل البريدية تنتظرني، كوني بخير.

- كوني أنتِ أيضاً كذلك، وداعاً.

فقط عندما عانقتها بقوّتي عند عتبة الرحيل، علمت بأنها بدأت تمثّل، بدأت تعيد مجدها بقناعٍ ترتديه كلّ أنثى تطمح لدهس توقّعات رجُلها الراحل، هكذا نبدو أشد فتنة وإثارة ونحن في منتصف الغياب، هكذا هنّ الجميلات لا يبعثر الفراق ملامحهن

مهما عثا في القلب وجعاً.

أغبياء هم الرجال الذين يظنّون بأن أي امرأة تستطيع أن تُكسر من منتصف الشوق وما فوق، لسنا بتلك السهولة التي نظهرها لهم، نحن فقط بحاجةٍ إلى فترة نقاهة من الذكرى لنعود كما كنا، حتى نُشرع للضحك وللرقص الباب على مصراعيه بنسيانٍ يصعقهم بدهشة.

كان لابدّ أن أجعلها تعود لمرسمها وللوحاتها، كان لابدّ أن أشتري لها الكثير من الألوان الصارخة بالحياة حتى تنغمس بينها وتضاجع النشوة بحبٍ أكبر، فقط حتى تنجب من رحم الفراق والوحدة لوحات تُخلّدها وتضمن لها البقاء بكلّ أنوثة الكون، رجلها الأحمق حاول كسر طموحها برحيلهِ، فقط حتى لا تصل للعالميّة بفنّها، لكن لابدّ لي الآن أن أجعلها تعقد صفقة مع التحديات المستقبلية بجزيل الأمل، الحياة لن تقف عليه، ولا على أي رجل ترك أنثاه تتلوّى بمخاضِ غيابهِ، وما رحلَ قد رحل، وعموماً نحنُ في زمن الإستثمارات العاطفية، والبقاء للأذكى، بقدر ما للأسهمِ الغرامية من وقع مدوي.

* * *

دائماً نقف عند عتبة وقتين، نافذتين، مصادفتين وصمتين، دائماً تظهر في الوقت اللا متوقّع، حتى تسير خلفك الكوارث العاطفية، والإنهيارات القلبية، حتى تأتيني بجدالٍ عقيم، بمبادئٍ تنخر رأسي وبعاداتٍ تعرقلني بك أكثر وأكثر، أراكَ تجيد إحكام وثاقي جيداً وكأنك تكشّر عن أنياب الجنون بجنونٍ أكثر، تمهّد لي حضارات المستقبل، تبني من مشاعري قلاع الوجد، حتى تحملني كطفلةٍ

تخشى الضياع، الفراق والبكاء في الظلام، فقط لتصعد بي نحو المنتهى، مبتسماً، هادئاً، ونبيلاً، فتقترب من رعشةِ الكلمة وتهمس:

- هيا لوّحي يا أنا لوجعك، لماضيك ولكلّ الأمور التي جعلت فؤادكِ تالفاً، هيا اركلي مشاعرك الفاترة من علوّ الجنون، ها أنا أمسك بيدك، وها أنا بجانبك، وهذه القبلة فوق جبين حياتك القادمة معي، إسحقي الماضي بقوّتي، بجنوني وبحضوري، لا تندهشي من حبي العظيم، ولا تخبريني بأني غريب، بل الغرابة تكمن إن لم أسعدك، إن لم أرمّم ما يحتاج ترميمه في داخلك، عيشيني بأكثر من حياة وبأكثر من بقاء ومنطق، لا وعود بيننا ولا رباطاً سَيؤرّخ جنوننا، لكننا مؤمنون بثورتنا نحو اللاشيء، وبهذا التلاحم وبهذا الزهو والزهد العاطفي، لن نحتاج للثقة لأنها لا تكفي ولا حتى القسم يفي بذلك، وحدها المشاعر كفيلة بنفض الأسى عنا، ووحده حبّنا قادر على دب السعادة فينا، لذلك ها أنا أشد على قلبكِ بحبٍ مضاعف وبغناء يطرب مسامع سكونك، وبأنفاسٍ تعيد ترتيب فوضاك بقبلةٍ وعناق حميميّ، هيا انزعي الوهن عنّي وأعلني تمرّدك عليه، واصرخي بي ولي.

- فأنا نلت شرف جنونك بامتياز.

- بل نلتهِ بجدارة، لأنك قادرة على دهس الزمن السحيق بكلمة وبضحكة، قادرة على إبادة نتوءات الذكرى بحب أكبر، وقادرة على سدّ ثقوب الإحتياج بجزيل الحنان، لذلك كان جنوني بك فعل هوى

- لقد عثت بيّ فوضى.

- بل عثت فيكِ سحرا.

- ألن تكفّ عن تعديل أبجديتي الدائخة؟

- بل أسندها فوق قلبي، فأنا أخشى عليها من السقوط.

- في الحب يصبح كلّ السقوط مثيرا.

- إلا سقوط اللغة.

- لم؟

- لأن دوار المشاعر ودوخة الأحرف قادرة على خلق لغة أخّاذة، ونحن الكتّاب لابد أن نعيش حالة الهوس ما قبل سقوط اللغة، لابد أن نترفّع عن بقية العشاق بفصاحة لا يدركها عقلهم وبتجلّ لا يفقهه سوانا، لذلك إن سقطنا في هوة الخطيئة الصامتة أصبحنا مثلهم وأنى لنا كذلك.

- فلسفة جميلة.

- لا أريدها أن تبقى في ذهنك مجرد منطق يتمحور حول فلسفة او نظرية لعاشق مجنون، بل هي أكبر من ذلك سكّري، يااااه عندما كتبت لك للتوّ سكّري، لأول مرة أرى بأن اسمك يحمل الكثير من الثمالة والمرض، لذلك تغريني بكلّ الأضداد واللغات.

- و ماذا يحمل اسمي فوق عاتقه غير المرض؟

- بل يحمل حلاوة السكّر وجرعات النشوة والسُكّر، فأشعر بثمالة الغرام حدّ الترنح والتخبّط بك أكثر وأكثر، أنتِ مرضي الذي لا أنوي الشفاء منه، لذلك زيديني ثمالة ومرضا.

ها هي يدي أضعها على مقبضِ الحياة، دعيني أخرجكِ معي لنتنزّه، ولنرى الكون بأعيننا بعيداً عن عدم البياض، لكن سيبقى ذلك مجازاً محالاً، لكن إلى أن يحينَ وقتنا سيخيّم فوقنا هذا الإحتشاد العاطفي، أووه أعتذر لأعود لبداية المجاز، أنا أقف الآن

بجوارِكِ بل بمقربةٍ منكِ، لا يبعدنا سوى الكثير من الفراغ واحتراق الأنفاس، فماضينا يثقلنا بل يبعدنا عنا لكن لا بأس يا صغيرتي، دعيني أقولها لكِ لأني أشعر بها، فأنتِ الآن طفلتي وعليكِ أن تقبلي بذلك دون اعتراض، ليس مهمّاً، المهمّ إلى أين تودّين الذهاب؟ ما رأيكِ أن أشّد على يدكِ بالكثيرِ من الأحلام ولنبتعد عن الوجود؟ ما بالي أنا؟ نحن في الأساس نمتطي الأخيلة، لكنّ هنالك جزءاً ما في داخلي يشي لي بحتميّة مستقبلنا، يخبرني بأن هذا الحلم سيتحقق، لذلك عليّ الإعتناء جيداً بتفاصيل التفاصيل، فهذا هو لقاؤنا الأول، وهذه هي دهشتنا الأولى، لذلك لابدّ أن يكون كلّ شيء وكأنه لأول مرة يحدث بل علينا أن نشعر بذلك، لسنا مجبرين عليه بالتأكيد، لكنّنا من فرطِ الهوس سنشعر بهِ وسنثمل كثيراً، وأيضاً هنالك الكثير سأخبرك به في رحلتنا المجازية هذه، والآن يحوم من حولنا الكثير من الصناديق العتيقة، أنا خائف، فهذا السواد يخيفني، فليهلكني الله على هذا الضعف الذي اجتاحني فجأة، ما بي أرتعد؟! لابدّ لكِ أن تخفّفي عني، أن تُهدئيني، وأن تشفقي عليّ، لكن لا أطمح لذلك في الحقيقة، ولا أريده، ليسَ لأنه مجرد كبرياء للرجولة أو حتى لإثباتها في لحظةِ سقوط، بل لأنني وعدتكِ بأني سأكون معكِ كما أنا، وكأنني خارجٌ للتو من شرنقةِ الحياة، بجناحين صغيرين وبفمٍ مزموم، وبمشاعرٍ تتضارب، وبأفكارٍ تصرخ، وكأني خلقتُ في زمن البراري والخليقةِ الأولى، لذلك ستتشابك أصابعي بين أمانِ أصابعِ يدك، ولن أبكي مطولاً أمام صناديقٍ من تابوهاتٍ جانحة، بل سأذرف القليل من الدموع المتيبّسة، فهذا الحدث لابدّ أن يُخلد كما هو، وليس علينا

التظاهر بشيء، رغم أنه ضربٌ من خيال لكنه واقعيّ، واقعيّ جداً أيتها الصغيرة المشدوهة، ليبدأ الكرنفال، ولنبدأ نحن في النبش بين أسبارِ الأسرار، وليباركنا الله.

ما بال ملامحكِ متشنّجة؟ لا تقلقي لا داعي للقلق من الأساس، لكن ألم تكوني من البداية تقرعين وتضربين وتنفخين فوق الإستفهاماتِ الكبيرة؟! إذاً فلتستعدّي لهذا الطوفان الجميل، ألم أخبركِ بأن لي في كلّ ليلة بل في كلّ تكة رحلة طاعنة بالغرابة! وهذه البداية فقط، فانا رجلٌ مليء بالندب، بالخطايا وبالقبح، قبحي يجرّني للهروب، للخجل، وللتخبّطِ كثيراً، وهذا يدلّ على صلاح إنسانيتي، أو هذا ما أستشعره في قرارة وجعي، أو هذا ما أودّ معرفته عني، أو هذا الذي أريده بل أتمنّاه أن يكون، أو فليكن الجحيم، سحقاً لي، لكني أتمنى أن أكون سليم السريرة، رجلاً صالحاً، لكن كيف لنا أن نهتدي للصلاح دون اقتراف الكثير من الذنوب والندم؟ كيف سنتحسّس صلاحنا إن لم نتب عن خطايانا، أو حتى دونَ أن ننزع قشورنا الملوّثة عنّا؟ لذلك أيتها السكّريّة، قد تكون دقّت قيامة التوبة بالنسبةِ لي، وهذا على أقل تقدير، وسأتوب قريباً وقريباً جداً، وتحديداً عندَ عتبة رحمتكِ، أيتها القديسة الناسكة بذاكرتي، قد نتوقّف هنا، لنعود بتجلّ آخر، لنعود لنطفتنا ولعدمنا السحيق، وقبل التفكير بالعودة سأتركِ تراقصين هذه القصيدة التي أشعر بل أنا على ثقة بأن الشاعر طارق ناصر الدين كتبها من أجلكِ، لذلك تبّاً لقلمِ هذا الرجل الذي يُشعرني بفقري ونقصي اللغويّ، أيتها الشقيّة، إحذري أن تشهقيهِ حباً فتتركي حرفي يصارع البياض لوحدهِ، إحذري من اقترافِ المزيد من المذابح العاطفية في

صدري، فقط استمتعي وارقصي وتغنّجي بين عبق كلماتهِ التي كتبها عني بالتخاطر، دون لفتة اعجاب.

لا تسألي إن السؤال جوابي
والحُب أجملهُ بلا أسبابِ
إن تطلبي المجهول تلك رسالتي
أو ترجمي بالغيبِ فهو صوابي
غايبتُ وجهكِ عامداً لأحبّهُ
وقرأت فيه مواجعَ الغّيابِ
وكتبت عنك كما رأيتكِ نجمةً
مسروقةً من عالمٍ خلابِ
لا تعرف الأغصان قبل ذبولها
سرَّ انتشاء اللون بالعنّاب
وتُقاوم الأشجار قبل سقوطِها
غضبْ الرياح ونزوة الحطّابِ
لا توقظيني فالربيعُ مسافرٌ
والحب أرجعني إلى محرابي
وقنعت من سفرِ الربيع بوردةٍ
مرّتْ عليّ وأوصدت أبوابي
إني أحبّكِ كالعبيرِ مباحةً
مرصودةً بالقمقم الجذاب
إني أحبكِ كالملاكِ مُصانةً

من نسمةٍ مرّت على الأعشابِ
إني أحبّك حرةً مجنونةً
تُغري غريزتها بصلبِ شبابي
إني أحبّك حرةً مصلوبةً
وأنا صليبك والعذاب عذابي
فالحب أن تَتَفجري وتُفجّري
أرضاً تضيق بلوعةِ الأحبابِ
تُمّري على كَبِدي فأنت سفينةٌ
مُلِئتْ عنابرها من الأطيابِ
واستسلمي للموج قبل هديرهِ
ودعي الشراعَ لحكمةِ الربّابِ
أنا لا أسير، أنا يسيّرني الهوى
جسدي طليق والأسير ثيابي

هنا، هنا في هذه الأبيات أحببتكِ جداً، بل تفشيتُ بينكِ وبينكِ دون أن أتوقّف أو حتى أهدأ، فقط لأنها أنتِ، وأنتِ جئتِ أمامي بكبريائكِ الطاعن، بثورتكِ الأنثويّة، وبكلّ تلك الوفرة الخلّابة بملامحكِ على هيئةِ قصيدة متطرّفة بالجمال.

إني أحبّك حرةً مجنونةً
تُغري غريزتها بصلبِ شبابي
إني أحبّك حرّةً مصلوبةً
وأنا صليبك والعذاب عذابي

كوني حرّة يا صغيرتي لأعلقّ بكِ أكثر
مرادكِ الخائف...

* * *

لم أتجاوز معها مرحلة الخطر العاطفي، إلا وألقتني بسؤالها المفخخ للبكاءِ صمتاً.

- سُكّر هل نسيتِ وافي بمراد؟

- وهل تعتقدين بأن صديقتكِ من ذلك النوع السيء من الإناث؟

- بالطبعِ لا، لكن ما أعنيه بأن تقاطع مراد مع رحيل وافي، ألا تعتقدين بأنه أمر يدعو للشبهة؟

- ولمَ لا تنظرين للأمر من واجهة أخرى، فتعتبرينها عدالة قدرية!

- أتمنى أن تكون كذلك.

- ما الذي تحاولين إخباري بهِ؟

- لا شيء، لكنكِ لم تجاوبي على استفهامي!

- إلى الأن أذكره وأكتبه وأشتاقه، ومراد على دراية بذلك.

- أوه ألم يغر أو حتى يثور؟

- مراد مختلف تماماً عن وافي، ليس بهمجيّته أو حتى تسلّطه، هو يريدني كصديق قبل أن يكون حبيب، لذلك هو يفهمني جيداً، وهو على ثقه بأنه سينسيني وافي كما أنا على ثقة من عقلانيته وجنونه، لكن هذا الامر قد يأخذ منا الكثير من الوقت والصبر، لكننا أوشكنا على النجاح في ذلك.

- أغبطكِ وكلّي زخم وفرح من أجلكِ.

لكن رغم كلّ محاولاتها في الهرب غير المقنعة، كنت أشعر بأنها تخفي عني سراً بل أسرار، لم تكن نايا التي أعرفها من ملامحها، بدأت أجوس حول أمر مراد بالكثير من علامات التعجب والإستفهامات، لمَ إلى الآن يخفي نفسه عني الى الآن ، ولمَ نايا لم تقتنع بكلامي، الأمر بات مخيفاً ومربكاً، ولابدّ من اسدال الستار حول الأقنعة المظلمة مهما طال الامر.

* * *

ما كانَ بيننا هو هذه الجنة الضوئية، وكأنه سجين النوافذ والبياض، هنالك سر بحاجة للتعرّي، كلّ ما أخبرني بهِ سابقاً، جعل ناقوس الشك يقرع بداخلي، لم يأتني من بابِ المصادفة كما ذكر، لم يكن كما قال، أشعر بمهزلة عاطفية ستتدلى ستائرها قريباً، وعليّ الإجهاز عليه قبل أن يفعل هو، عليّ المخاطرة بل التضحية بكلّ شيء فقط حتى أعلم حقيقته وحتى أنزع عنه قناعه، لأنني صدقاً بت أشعر بأنه ملاك منزل من سماء الحب لأرضِ الأحزان، حاملاً معه رسالة واحدة وهي، أن يعثو في الأرضِ عشقاً وسلاماً عاطفيًا، بغيرِ عادتي وبعكس ما قررتهُ سابقاً، بعثتُ له سؤالاً مفخخاً وكأني أريد منه إثباتاً لي بوجوده وبأنه بشري مثلنا، رغم كلّ ما تحدّثنا بهِ مؤخراً، كان وسيظلّ هذا هو السؤال الأهم والفارق بإجابتهِ، هو من سيخبرني من يكون هذا الرجُل، ومن أيِّ وطنٍ وبأيِّ حجةٍ جاءني، كنت أعلم بأن رجلاً ملائكياً مثله، لا يكترث للتعقيداتِ البشرية، ولا يكترث لتوافهِ اهتماماتهم، لكنني مثلهم، أملك من الفضول القاتل ضعف العالمين، وتحديداً معه، أرغب بمعرفة سره ومن أي عالم جاءني وبأي نبوءة تصدّق عليّ؟ ولِمَ في وقت ضياعي وضعفي عانقني؟

لماذا طوّقني بحنانه، عمقه، فلسفته؟ لماذا روّض تمرّدي وعبثيّتي بالكثير من الصبر والإنتظار؟ لماذا يبقيني بين قابيْن إلى الآن دون صوته أو حتى لقائه من بعدِ عدةِ وجوهٍ وأماكن؟ لذلك كان معرفة جواب هذا السؤال بالنسبةِ لي الأكثر انتظاراً والأكثر استفهاما.

- من أي البلادِ أنت؟

جاءني رده في وقت اللا وعي، جاءني باستفهام أكبر وبمخاطرة أشد.

- و هل تهمّك أسماء الأوطان؟ أم أعلامها المنافقة؟

- ما يهمني أن أعلم أين تقطن؟ وأي البلاد تتنفّسها؟

- ما عدت أتنفّس سوى الرماد من كلّ العروبة الباقية.

- هروب مثير، لم تزدني سوى إصراراً على معرفة من تكون

- يا قصائدي الثرثارة بها، أنجديني فهي تسألُني من أكون؟! كوني عوناً لي وساعديني في عبور فضولها بأبسط الخسائر الممكنة، أنا الحُب القارس، أنا من يختال بجنائزيّة أمام الغياب بجرحٍ عارٍ، أنا من رحل للفناء مع صدى البكاء، أنا الموسيقى التي لا تكُفّ عن تحريض العُشاق على الرقص، هل علمتِ من أكون؟ لذلك ما زالَ البعض يكتب باقتضاب، وبأحزانٍ ملبّدة، والبعض الآخر يكتب مفلساً من كلّ الحياة ما عدا من أبجديته، والأسوأ هو من يكتب بنيّة التصفيق له، سأبقى أشتاقُ لنافذةٍ عانقت حرفينا بجزيلِ اللهفة والإنتفاضة، أشتاقُ لكِ ولي ولنا، فبعض الإشارات القدريّة، ما هي إلا رسالة مصيرية، يجب علينّا النبش بين رموزها حتى نصل للطريقِ الآمن، فهذا الحب الذي يدفعني لكتابتك، لمحاصرتك ولركلكَ

للتوق، أصبحَ حاداً كسكينٍ يمزّقني بلا هوادة، لكنني سأبقى أحبكِ حتى الفناء، لي نصفان، بمعنى لي عرقان أنتمي تحت دمهما، أي عرق تريدين معرفته؟

سؤاله أتاني كالصفعة، وافي أيضاً كان له عرقان، أحدهما سعودي والآخر مغربي، مستحيل ما أفكر به مستحيل.

لم يكن أمامي سوى أن أجعله يخبرني بعرقه الثاني، لأنه طبيعيا سيكون عرق الام، حينها فقط شعرت بنبضات قلبي تتسارع وبأنفاس متقطعة وبأطراف تنتفض كتبت له.

- أخبرني عن العرق الثاني!!

لم يجبني بتلك السرعة التي توقّعتها، وكأني بدأت أزيل غموضه، وأكشف أوراقه، كأني بدأت أقلب الطاولة عليه، هو رجل الأسرار، والبياض الآسر، رغم غموض تصرّفاته

ها هو الرد، ها هو بريدي يخبرني بوصول جواب أول الأسرار أهمية، فتحت ذلك البريد على عجل وكأني أريد أثبات توقعاتي مسبقاً، وكأني أعلم بجوابه حتى من قبلِ أن يبعثه.

فكان الرد:

- العرق الأكثر جمالاً فيَّ هو «العرق المغربي»...

* * *

كانت نايا الشاهدة الوحيدة على شتاتي وبؤسي العاطفي مع وافي، هي الصديقة الوحيدة التي حاولت نزعي من وحدتي، من متاهتي وضياعي، هي القريبة من حكايتي المشوّهة والغريبة بين تفاصيلها، فهي مهما حاولت بأن تغيّر مزاجي الساكن لم تستطع، حتى استسلمت فتركتني للوحدة وللعزلة أخيراً، أنا القادرة على

المضي قدماً، أو الوقوف الطويل أمام جثمان الوقت، وأنا الوحيدة القادرة على تغيير زمام الأمور إن أردت، لذلك كان فراقي عنه خيراً لي، رغم الشر الذي حلّ بقلبي وحرفي، لكن لا بأس لأن هنالك ما يجب عليّ أن أعيشه، وهنالك ما ينتظرني، لذلك كان لابدّ عليّ النهوض من حيث سقطت، طالما نفضت غبار تملّكهِ لي بكلّ تمردٍ وقوة، لابدّ أن أتعايش الآن مع عوالم الغبن وحيوات الحنين.

فكان لغم الحب يُحرّكها كما كان يلهمني، نحن النساء غريبات أطوار، في الغياب نصبح أشدُ جمالاً وفتنة، بل نصبح أشد إثارة وجاذبية للحدّ الذي نصبح فيه محطّ أنظار جميع الرجال، ألهذا الحدّ كان الحُب يخفي أنوثتنا ويطمرها؟ أم السبب في ذاك الوهن الذي يعقبه كان يغلّفنا بالنتوءات والتجاعيد لفترةٍ طويلة؟ لا يهمّ، المهم أننا في نهاية المطاف تجاوزنا الحدّ الذي كان يصيبنا بالكدر والإمتعاض.

لم تكن نايا إلا صورة مكبّرة منّي، فصداقتنا لها عدة وجوه وتقاسيم نتقاطع بينها كثيراً ونختفي، لم تكن علاقتنا متكلّفة ولا حتى عادية، هنالك دوماً حدث عظيم نتحدّث عليه، نخطّط له أو نبكي عليه، لم نكن كباقي النساء عاديات، وراكضات خلف توافه الأمور، كانت الكتابة هاجسي وطموحي الذي أصبو لتحقيقه ولإثبات ما أشعر به وما أرغب في الحديث عنه عبر ترجمانٍ لغويٍّ مقروء، بينما كانت هي الجانب الآخر مني من حيث رسمها ولغتها الدقيقة والممزوجة مع الكثير من الألوان الحميميّة، كانت النصف الذي أفخر بهِ، فنحن جمعتنا الأحزان قبل أن تجمعنا الحياة بأبهتها وترفها، لذلك نحن نعلم جيداً ما قيمة أن نصارع الكون من أجل البقاء بكبرياء الوجد، حتى وإن تطلّب ذلك الأمر منّا أن نعيش بلا

حُبّ، الأهم أن لا نفقد شغفنا بالحياة بزهوٍ وسلام، فالحياة لن تختلّ أحداثها من أجلِ رحيلِ رجل! لذلك لا بأس أن نضعف، نبكي، نصرخ، نتوجّع وحتى نسخط على عبثيّة التفاصيل الحامضة، ولا بأس من ممارسة بعض إنسانيتنا في السقوط بكلّ أنوثة وجلد الذات بجزع، لكن الغير مقبول أن نظلّ على تلك الهيئة القبيحة أعواماً وأعوام، وأن نجعل الماضي السحيق ينال منّا، لكلّ أمرٍ عارض عمر معيّن يبدأ منه وينتهي به، وهذا ما يجب أن نعلمه جيداً.

وها هي نايا أصبحت تتجمّل للأقدار، وللمشاعر الفتيّة، فهي أصبحت تعلم بأن الأسى الذي نتكفّن بهِ، بعد كلّ حبٍ رحل، لا جدوى منه سوى أن ننشطر من كلّ مظاهر الحياة بملءِ حماقتنا، لذلك كان نجاحها من رحم الوجع لذيذاً، آسراً، ولن يُنسى، سعيدة من أجلها وأجلي، من الجميل أن تتضح الرؤية لنا من بعدِ عُتمتها، ومن المدهش أن نرقص أمام النجاحاتِ الزاخرة بعدما كانت مستحيلة، لذلك كانَ علينا السير بل الركض خلف رغباتنا الطارئة للعيشِ بسلام.

* * *

كان لابد لكَ الآن أن تُدرك بأن امرأة الحرائق لا تقبل بأنصاف الحلول، ولا بأنصاف المشاعر، الكثير من الجنون كقليله، فكلاهما يُدوزِنان أنفاسنا بصورةٍ ضمنية، لذلك تَعلّم الصبر، وفاجئني كما أُفاجئك، فلم يَعد يعنيني أن أذهب لحتفي طالما لا تبذل مجهوداً في الحفاظِ عليّ.

لأنني أشذّب الذكرى من أقصاها، فقط حتى أكتُبكَ، أعتبر

مُصادفتنا بين الورق كانت فعل حنين، فأنا لا يغريني الرجل الذي لا يفقه في أمور الحُب سوى لذيذ الكلام، فأنا بحاجة لطغيانٍ عظيم، لفوضى ولخرابٍ يصعُب عليّ نسيانه، بحاجةٍ لأسقط بعمق كمين اللغة أكثر، عاشقة، ثائرة ومناضلة من أجلك، بحاجة لرجلٍ لا يدعني ألفظهُ بداخلِ مقبرةِ اللغة رغماً عني، فلا شيء أصعب على الكاتبة من أن تملأ محرقتها برماد حُبها، وبماضٍ ملامحه مُجعّدة، قد يُضاهي حُزن العالم في قلبها.

لذلك لا تأخذني بمأخذ العاطفة فقط، هنالك الكثير عليْكَ فعلهُ غير الكلام المبهرج.

وها أنا الآن أترفَّعُ عَنك بمنازلةٍ لا تفقهها أنت.

قبلَ النهاية بشهقة

كيف لك أن تنكُش الذكرى
وتعيد كلّ ذاك الحُب برسالة؟

- شهقــة النهاية -

وها أنا مع ســرّي الكبير أمامَ عينيكِ، لذلـك إقرئيني حتى نهاية النهايـة دون أن تهربـي، فتتركيني أنافك المـوت أمام بريـدكِ وحيداً وجافاً، لذلك سأبقى أنتظركِ دوماً في كلّ الأزمنة التي عبرناها والتي لم نتجرأ على عبورها.

أنا الآن على حافة الفوضـى، ولا أعلم ماذا أفعل هنا بالتحديد، لكن لابدّ أنني أحمل رسالة مهمة للحياة المليئة بـأي شيء والفارغة من كلّ شـيء، قبل السـقوط أو حتى البكاء احتضاراً، عليّ أن ألوح للعالمين بجزيل الحب، بابتسـامةٍ لا تنسى، وبنظرةٍ شاخصة، عليّ أن أستشـعر لحظة الإنخطاف هذهِ بكلّ عمق وغرابة، ما جدوى المنطق في حالات الصرع هذه؟ وما فائدة الفلسـفة في أتون العمر الراحل؟ لا شـيء يبقى كما هو، لذلـك فقط علينـا الرحيل من هـذه الحكاية الغابرة بأناقة وشـموخ، علينـا أن لا ننحني أو حتى نحبـو، لكنني ما زلتُ أعوم نحو وجهةٍ لا شـاطئ لها، نحو امـرأة لا خلاصَ لي منها ولا خلاصَ لها منـي، أنا أقف تماماً خلف العـدم، خلف اللا وجود واللاحدث، أنتظرنـي وأنتظـركِ وأنتظرنا كلّنـا هناك عند عتبـة البداية المقابلـة تمامـاً لمفـرق النهاية، مـا زلـتُ أتمنـى أن أتحـوّل لِدَعوة، لأمنية، أو حتى لنورسٍ يسبح في السماء، سـئمت من أن أطفو فوق سطحِ الأشـياء الكربونيـة والخالية منـكِ، هنـاك من فوق كلّ شـيء

سأراكِ، سأكون سكينتكِ وسلامك، وسأطرق نافذتك برقة أو حتى أجتاحكِ كالنفس، أو حتى أتحوّل لقلمك، أركض وأركض بحوافرٍ من حبر فقط حتى أملأ أسطركِ الشاسعة بلغتكِ ولغتي معكِ، لكن ما عساي أن أفعل وبيني وبينكِ تفاصيل طاعنة بالوجع والخيبات المتتالية؟! لم تسحقيني فحسب بل أضرمتِ حول ذكراي ناراً لم تنطفئ، فكنتِ كقبيلةٍ إفريقية تحوم حول اشتعال الحطب وتتمتم تراتيلها المقدسة بلغةٍ غير مفهومة لكنها كانت بنشوة وشبق، نعم أخطأت بمواصلة التماهي بكِ وبي وبنا، لكن أخبريني كيف كنتُ سأحل التباس أفكارنا مع عنادنا المتصاعد بالتحدّي حينها؟ لم يكن امامي سوى الرحيل عنكِ بخيبة تلهمكِ فتوجعني أكثر منكِ، ألم تكوني تسعين نحو تخليدي بألق؟ وها أنا أعطيتكِ تلك المساحة المقترنة بي للأمد، كنتُ صديق حرفكِ وعرّابكِ بصورةٍ أخرى، أعتذر على كلّ الملامح الضبابيّة وعلى هذا التشوّش العاطفي الذي أوقعتكِ بداخلهِ، لكن كما أخبرتكِ مسبقاً وكما تعرفين عني، فأنا مريضٌ بكِ، أنتِ منطقي، فلسفتي، وشريعتي، أنتِ كلّ الأمور التي لا ترى للعيان، لذلك كان تصوّفي بكِ مخضّباً، وآسناً من تحت قبابِ اللغة، هل ما زلتِ مشدوهة من أحرفي، مصارحتي،جنوني أو حتى مرضي وقصتي معكِ؟ لا بأس لطالما كنتِ تنظرين لعبثية حماقاتي بتلك النظرة المريبة اللذيذة، لكن قبلَ كلّ شيء وبعدَ كلّ هذه الفوضى سأحبّكِ وأحبّك وأجنّ بكِ، على الأقل هذا مصيري معكِ الذي بتّ تدركينه، لكن ماذا عن مصيركِ المفخّخ معي؟ ألن تشي لي به؟ أو للأسف ألم أعد صديقكِ أو حبيبك؟ لذلك بات هذا الأمر ليس من حدود صلاحيتي فيكِ!

لذلك ما زالَ يتملّكني القنوط، وما زلت أحرص على أن لا أعيث بقلبينا أي سوء، ولذلك تغيّرتُ بكِ، أنتِ هذّبتِ لي فوضويتي بلفحةٍ أنثوية، وبكلّ لصوصيّة الحب جعلتني أعاقر الأمل عنوة، من الجيد أن يتقاطع رجلٌ غابر بامرأة من أحلام وحياة، من الجيد أن تملأه بكلّ الصخب وزحام التفاصيل الطازجة فقط حتى ينزع من على جسدهِ المترهّل عباءة الماضي بسوءته وتقشّفه، لابدّ أن تهمس لكِ أفكارك بصوتٍ خافت بالهروب، بأن هذا الرجل لم يستوطنكِ إلا ليضرم الحرائق فيكِ بصورةٍ فجائية ثم يرحل بعيداً عنكِ، أنا أدرك مدى هلعكِ وخوفكِ، وأدرك بل أشعر بأنفاسكِ الضبابية المشتعلة قلقاً، لا تخافي يا طفلتي فموسم الهزيع قد ولى ورحل، بل قد رقص في حفلة بكائي وركلني، لذلك لن يعيد الكرّة ولن أعيد اللجوء لحماقتي وثورتي القديمة، أنا معكِ وكأنني ولدتُ اليوم، بلا ذاكرة وبلا ماضي، وبلا شبهة عاطفية، إملأيني بكِ، أنا الآن أجوعكِ، كوني طعامي، تصحّري، عقيدتي وغريزتي، كوني همجيّتي وهدوئي، كوني شقاوتي، شهوتي، شبعي، ضياعي وسلامي، كوني نجاتي، هروبي، إيماني وكفري، كوني الحب المنزّه عن سفالة الجميع، كوني الغرام والجنون الطاهر عن كلّ ذنوب العشاق التي لا تغتفر، كوني أنا بصورةٍ أنثوية مثيرة، مثّليني بغواية، بتطرّف وبرهبانية، كوني ناسكتي، وقدّيستي، ها أنا أشعر بحرمانية شغفنا، لا تطلقي قذائف أحكامكِ وتغاضي عن ندبتي القبيحة، أنا أعلم بأنني قطعتُ سيل أبجديتكِ المترفة بشيءٍ من الغرابة والعبثيّة، لكن لا بأس يا سيدتي ها أنا أنفث آخر سيجارة تبغ من العلبة الثالثة، لا تشفقي على حالي، فهذا الأمر قد أخذ مني الكثير من الوقت فقط

حتى أكون مستعداً أمام هجوم فضولكِ، لذلك دعيني أخبركِ من البداية وحتى العدم وأنا أترنّح كعربيدٍ ثمل، لا تتلقّفيني من التيه فليس هذا الوقت المناسب لإنقاذي، دعيني أسقط أمام قدمك، فهذا أشدّ السقوطَ جمالاً، لا تتعجّبي إن قبّلتُ قدمكِ كطفلٍ خائف، ولا تندهشي من توبتي الطارئة، فقط استقبليني كأمّ أو كمطارٍ أو حتى كوطنٍ شارد، ها أنا ذا أمامكِ بل تحت قدميكِ وها أنا يا سُكّرتي لن أرفل هذه المرّة بعيداً، ولن أختبئ تحتَ جنحِ الظلام، ولن أعيثُ بنا فساداً أو غبناً، طيلة تلك الفترة إنعكفت خلفكِ، أقرؤكِ، أدرسكِ، أتعلّمكِ وأكتبكِ لأول مرة، أنتِ تعرفينَ مدى فجوةَ جهلي، وتدركين كم كنتُ أثير شفقتكِ وشفقة عائلتي وحتى صديقي الوحيد يامن، وعلى غرار يامن فهو لم يكن يعلم بأننا افترقنا ذات فجيعة، ولم يعلم مدى حجم الأسى الذي أورثتكِ إيّاه، لذلك تعجّب من لقائك المثلج والبارد له، وخصوصاً هروبكِ الخائف فورَ ذكر اسمي، لذلك حشرني فور وصولي لروما في زاوية الأسئلة الضيقة وأنا لا أطيق إلا المساحات الفضفاضة، كانت فجيعته الظاهرة على ارتباكة أنفاسه مبكية جداً، لم يكن يتصوّرنا بعد ذاك العمر نجمع حطام تفاصيلنا الأولى بنيّة النسيان، لذلك دارَ بعدها بيننا هذا الحوار المنقطع النظير:

- كان جنوني بها يصفعني بلا هوادة، ما ذنب قلبي الغيور، الخارج عن عقالهِ؟ وما ذنبها هي بساديّتي وضعفي؟ لم يكن أمامي إلا بتمثيل مسرحية هي ضحيّتها الأساسية وأنا الجاني فيها وكلّ دموع جنوني، أيامي، سنيني، وصبري هم كواليسها، لذلك كان مشهدنا الأخير متقطّع الأنفاس، آسن النهاية، وناضح الأسى،

في ليلةٍ من زمهرير خنتها، بل سرت فوق سطح الخيانة وأنا لم أقم بتلك الكذبة إلا من أجلها هي، فأنا كنت على ثقة بأن هذه النهاية البلاستيكية والحامضة، هذه النهاية المعلبة كسردين ستقودني للهاوية قبلها، ستجهز على ديمومتي ولن تلقيني إلا لمرافئ التسوّل العاطفي، لم أكن على دراية بأن طفرة الحب قد تتفشّى بنا لهذا الحدّ المفزع من الغرابة، لم أكن أتصور بأنني سأظل ألهث وألهث عند عتبة رحمتها ليالٍ طويلة دونَ أمل، دون مستقبل وحتى دون ملل، لم يكن همي سوى أن أتجمهر حول أي مكان تشهق تحت سمائه، لم أكن أشعر بمهابة الموت مطلقاً سوى أن باغتتني الأفكار الصدئة والمستحيلة بأنها قد تجهضني من رحمها بحبٍ جديد، لابدّ أن تندهش من كلمة «مستحيلة» لأنني أعرفها كما لم أعرف نفسي ولم أحاول معرفة من أكون إلا معها وبها وبدونها، أعرف من أكون لقلبها، لوسادتها، لأحلامها، لكوابيسها، لغضبها، لثورتها، لثيابها، لمساحيقها التجميلية، لأغنياتها، لأكوابها، لأقلامها، لدفاترها، ولصباحاتها ولياليها، أعلم جيداً كيف طوّقتها بي عند سدرة الحب المقدّسة، وكيف إلى الآن لم تستطع ولن تستطيع إيجاد من يهديها الخلاص بغرامٍ أكبر، من الصعب صدّقني أن نغادر حباً عظيماً لنستقرّ في حبٍ صغير، لذلك لن تجد رجلاً بمثل قبح تصرفاتي، كبريائي وثورتي ضد كلّ شيء واللا شيء، أنا أعلم بأن همجيتي ووحشيتي في الحب هي من أبقتنا لهذا العمر، وهي من أبعدتنا في نهاية المطاف.

- أخبرني يا يامن كيف لي التحلي بالقوة وأنا أحوم حول عنقِ زجاجة الحنين؟ كيف تقمّصت اسم رجلٍ آخر؟ ماذا وإن كانت

أحبت أفكاره، غموضه، لغته، وجنونه أكثر مني؟ ماذا لو ركلت مؤخرة ذكرياتي بنسيان؟ ماذا عساي أفعل وأنا مكبلٌ ومتورطٌ بها حدّ اليباب؟

- صدّقني يا أحمق فأنت تستحق أكثر من هذه الفوضى وهذا الضياع، لا أعلم إلى الآن لمَ خضت غرار هذه المهزلة العاطفية وأنت القادر على تسوية علاقتكَ بها منذ البداية المنصرمة؟ لم تحاول الإلتفاف حول الطرق الشائكة والمخاطرات العظيمة بحماقة وجرأة؟ ثم تأتي لتشتكي، لتبكي، لتستشريني فترحل وفوق رأسك ألف نورسٍ يحلّق بمئات الأفكار.

لكن طالما توزّطت وطالما تسمّرت كلوحةٍ منزوعة من الحياة في أقصى الزاوية، إذاً لابدّ منك إكمال ما بدأته بمهارة، فهي على كلّ الأحوال ما زالت تحبّك وما زالت تشتمّك إليك، وتشتكي منكَ لك، يا للسخافة والعبثية التي وضعتها بها، لكن لا بأس ففي النهاية هي تحاول أن تنساكَ لتحبّك من جديد، وهذه بداية تضاهي النهاية المفزعة التي حقنتها بها على حينِ غرة، لذلك طالما استملت قلبها وطالما تمكّنت من السيطرة على زمام التوق، حان الوقت أن تقف أمام جبهة المواجهة، أن تفتح باب الجنون على مصراعيه.

لكنه في جميع الأحوال كان مخلوع الباب، لذلك ما عليكَ فعله هو أن تضرم الحب بحبٍ أكبر، ولا تفكر في النهايات الحامضة أو كيف ستتقبل تلك النوبة العاطفية المنصهرة وكيف ستكون ردّة فعلها إزاء جنونك؟ فقط أخبرها كيف من أجلها أقحمت نفسك بين الكتب، كدودةٍ للورق، كناسكٍ يتضرع للبياض وللأسطر بالرحمة، وكأحمق يلهث خلف كلّ الذكريات القاحلة فقط

حتى يشذب لها الطرقات التي تعبرها بجزيل الهيام.

أخبرها أنك متورط بها أكثر من تورطها فيك، وأن تلك الحدّة الكلامية التي كانت بسبب طموحها الدؤوب لتحقيق مستقبلها، وخوفها من انتزاعك لشغفها بالحياة، بالكتابة وبالتفاصيل اللغوية ما عادت خطراً الآن، وما عادت عائقاً لتكملا مسيرةَ ألف حب وجنون،لأنك كنت معها حرفاً بحرف، رغم هويتك الملفقة، فأنت الآن قد أصبحت أشد نضجاً ووعياً، لطالما تمنّتكَ هكذا، لذلك لا تخف يا وافي وأخبرها فوراً من تكون، لكن كن دوماً على حذر من أن تخفي أي شاردة أو واردة على أنثى عاشقة، فهي ستشعر بكذبك بكلّ صمت، وهذا ما بدأت تشعر بهِ سُكّر لكنها بدأت بمصارحتك بفضولها حولك، وأنا على ثقة كما أنت على يقين وعلم بأنها قد تكون تحاول ربط الكثير من الأحداث بينكَ وبينك، أنظر للغرابة هنا، ما أقصده بين مراد ووافي، وكلا الرجليّنِ أنت، لذلك لا تتردد في مصارحتها قبل أن تتعرّف عليك بدهاء.

- سأفعل يا رجُل، هذه المرة سأكون أقوى، من الصعب أن أصمد مجدّداً أمام سيل أسئلتها الجارفة، ومن الخطورة أن لا أهتمّ بترويض فضولها الشيطانيّ، لذلك لابدّ عليّ أن أدلف نحو فخاخ المصارحة بثمالة، ودوخة، لن أستطيع أن أكون حينها بكلّ صحوتي العقلية والجسمية، لابدّ من إغماءة تسابق جموح المواجهة، فقط أدعُ لي.

لذلك يا أنا عقدت مع الحب مؤامرة خطيرة، مؤامرة للأبدية، للزهد، وللإنعكاف على كسب ما ضاعَ منّي بسبب سخافتي وطيشي، لذلك يا عمري الدائخ لم أكن أنا ذلك الرجل الذي يفرّط بنصفه،

بنبضه، بجنونه، وأمه، لم أكن قادراً على تركك وحيدة في ظلام الذكرى تبكيني، تشتميني، تلعنيني دونَ أن أساعدك على خدشي وقذفي بكلّ غضب، كانَ لابدّ أن أكون معكِ بصورةٍ لم أكن فيها معكِ، وأنا أعلم بأنكِ لطالما تمنّيتني كذلك، وها أنا كنتُ معكِ في كلّ شاردة وواردة، تقمّصتُ السعادة فقط لأضحككِ، استرقت النظر لقلبكِ الصغير وأنا أخشى عليهِ من نسياني.

فجّة الوقت التي كانت تعبرنا ونعبرها لم تكن سوى ضحية لجهلنا بالحب، وها نحن قد تجاوزنا معاقل الحزن بعدةِ أميال وأحلام، دعينا نبدأ كما بدأنا، لا تنكلّي بكلّ أمنياتنا الراقدة تحت الركام أكثر، ودعينا نواصل التماهي بتوقنا وننفض عن سطح الذكريات غبار الماضي.

ألم أعدكِ أمام النوافذ الضوئية بأنني سأؤثث لكِ مشاعركِ بحبٍ أعظم؟ ها أنا كنت بقدر ما وعدتكِ وأكثر، فقط اسمحي لي بأن أقترب منكِ حدّ الأنفاس، كما كنا بل كما سنكون، وقبل ذلك أتذكرين تلك الخيانة الملفّقة؟ نعم كانت ملفّقة مني بالإتفاق مع نايا، لا تلومي المسكينة أرجوكِ ولا توبّخيها ولا حتى تنكريها وتبتعدي عنها، في ذلك الوقت الضيق من المشاجرات، من المشاحنات، من التفاصيل المتأججة بالعناد والتمرّد، لم أكن على وعي ودراية بماذا يتوجب عليّ أن أفعل ومن أين أبدأ وكيف أنتهي؟ لم أكن أطمح بأن ألقيكِ في الهاوية، ولم أستطع السيطرة على كلّ نوبات غيرتي ومرضي المفرط بكِ، نعم كنتُ مريضاً بتملّكي، بشكّي، بدناءتي ولهثي المستمر لأقرب الحلول، رافضاً أي طوق نجاة قد تقترحينه أنتِ، ليست غيرة منكِ كما اعتقدتِ، بل بسبب

هالة الرجولة المتضخمة فيّ، كنت على ثقة مفخّخة بأنني قادرٌ على احتوائكِ واحتواء أوقاتنا الضالة بجزيل الهدوء، لكن ماذا أفعل بعصبيّتي حينها؟ لم أستطع ليّ عنقها فأجهزت هي علينا، لذلك خفتُ عليكِ مني، من أنانيتي، من حبي الحيوانيّ، من تملّكي لكلّ تفاصيلكِ بصورةٍ تدميكِ بل تمزّقك.

لذلك كان لابدّ لي أن أمهّد الطريق لمخاطرة أخرى ولغيابٍ وخيانة مفتعلة وملفّقة، نايا ساعدتني على ذلك بمهارة، رغم وجعها عليكِ، ورفضها المتكرر لخوض غمار اللعبة، لكن عاهدتها بأننا سنكون في نهاية الجنون مع بعضنا، وستتأبطين ذراعي بأنوثة وسأبتسم للجميع بشموخ، لكن لن يحدث ذلك بتلك السهولة، الوقت كفيل بايقاف نزيف الذكريات، وأخبرتها بأنني سأرابط أمام حرفكِ، بريدكِ، وكلّ مساحاتكِ البيضاء، سألوّنها معكِ كما كنا نفعل لكن سأكون هذه المرّة أنضج، وأشهى وأحادي، ألم أكن كذلك؟ لا تصمتي سأنتظر منكِ الكثير وأنا على علم أن هذه المرة ستنهمر علينا البداية بلذيذ الحياة، فقط كوني معي وليس ضدي، أنا أعتذر عن كلّ التفاصيل الباكية، فأنا يا أنا لم أحتمل فكرة أن تخضعي للحب مع رجلٍ غيري، أنا أعلم بأنني كنت مجرّد معتوه، فارغ، أجوف، ومتسلّط ولم يكن فيّ ما يثير أي أنثى للحب، كنت واجهة مثيرة للعابراتِ فقط، لذلك كنت دوماً على فزع أن يأتي من يملأ لكِ كلّ احتياجاتكِ التي أنا على دراية بها.

لذلك فقط من أجلكِ تغيّرت وعجنت أفكاري، مشاعري، وحتى أهدافي، فقط لأناسب كاتبتي الطموحة، لأجذب طفلتي الصغيرة، ولأغوي امرأتي الشهية، عملت جاهداً كي تنضح لغتي

وفلسفتي، فقط حتى أستطيع التبرير وأنا على كلّ حال لا أحتمل المفاوضات العاطفية.

فقط أتمنى يا أنا أن لا تسابقي مواسم الفراق وأن لا تلجأي لأمصالِ النسيان كحلّ سريع لتمحيني من عالمكِ الملوّن، فقط في هزيع الخيبة وفي شدة ظلام المشاعر عودي إلى هذه الرسالة، اقرأيها كأنها البداية، كأنها الربكة الاولى، وعقيدة الحب التي بدأت بالتفشّي فينا، مرّري عين قلبكِ عليها برفق واستشعري تسارع أنفاسي ولهثي الطويل خلفكِ.

فلتعلمي بأن هنالك رجلٌ انغمس بالهوان وتجرّع الذل ودهس كبرياءه وركل بكلّ مبادئه من أجلكِ، ذلك الرجل يا طفلة هو أنا، لذلك من الصعب أن أكون مشروع نسيان بل مشروع بداية يا صغيرتي وفقط، لا أجيد ختم النهايات تماماً ككافكا فهو كان لديه رهاب من النهايات الحتمية، لذلك لم يستطع إنهاء رواياته أو حتى علاقاته بسهولة، لكن قبل كلّ شيء وبصورة مسننة سأتركِ تقرأين رسالة أبيلار لهلويزه وكأنه تلبسني ذات خطيئة أو كتبني في زمنٍ ما، وها أنا أتقاطع معه عند ذات المشاعر المواربة للضياع، للخوف، للانصهار عشقاً، والتجلي جنوناً.

«أنتِ أحسن حالاً، أنتِ استطعتِ أن تفرّقي بين السماء والأرض، بين الإنسان والملاك، بين الله والشيطان، بين نداء الحب وصوت الرب، ولكن أنا لم أستطع، لم أعرف الفرق بين الألوان وأين الأصوات وبين الناس، فكلّ الأصوات صوتكِ، وكلّ الناس أنتِ، وكلّ نجوم السماء عيناكِ، وكلّ رحيق الزهور شفتاكِ، حتى

أنا أجدني فيكِ، فأنتِ أنا وأنا أنتِ، والذي أختاره لنفسي، لنفسكِ أيضاً، فنفسي نفسكِ، وليس عندي وقت أفكر فيما تقولين، فالذي تقولين هو ما أقول، ولا أعرف كيف أفكّر فيما أقول، فأنا مندفع إليكِ، بل إنني لا أبرح نفسي، فأنا مندفع في داخلي، أعذريني، لم أعد ذلك المدرّس القادر على الشرح، فالدرس صعب، والمدّرس قليل الحيلة، ولا أتوقّع منكِ خطاباً، فخطابي إليكِ هو خطابكِ إلي، أعذريني فأنا عندما حاولت بكِ ولكِ ومعكِ أن نمحو الكون كلّه من أجل أن نبقى وحدنا، نسيتُ ومحوتُ نفسي ومحوتُ نفسكِ، محوْنا أنفسنا، فانمحينا، إن عدمي يخاطب عدمكِ، فيا عدمي الذي أقوى من الوجود.

لم أعد بحاجة إليكِ، فقد استغنيت بكِ عن كلّ شيء وكلّ الناس، استغنيت بكِ عنكِ».

ولأنه قد يحدث أن يكونَ هو أنا.

ولأنه قد يحدث أن يجتاحكِ الديجافو بي.

سأبقى.

«مرادكِ» الذي هو في الأصل ما زالَ «وافياً» لكِ.

2013 - 8 - 10

ديجافو

أزدادُ وحدة كلما تقدمتُ بالعمر

أو كلما تقدم بي هو

لا يهم من حمل الثاني فوق عاتقه حد الانطواء

المهم حقًا

هو أن لا أدفن تحت هذه المأساة الحبرية

دون أن يذكرني أحد بدعوة تبث السلام في روحي

الهائمة بين الحيوات التي اجهلها و تجهلني

فأنا لا احتمل فكرة أن تبقى أناي باردة

وحيدة

و خائفة بدوني

لذلك كان كثيرًا عليّ أن أحيا بمفردي

رغما عن الفشل العاطفي

و رغما عن اعتدادي بقلمي و بي

لذلك وجدتك بين الاحرف المدمغة

و البياض العدمي

في حالة من " ديجافو "

سلمى الجابري

@salmaaljabri

facebook.com/ASPArabic

twitter.com/ASPArabic

ISBN 978-614-01-1203-2

9 786140 112032

جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com